محمد قطب

مفاهيم ينبغي أن تصحح

دار الشروق

مفاهيم ينبغي أن تصحح

الطبعة الرابعة

١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م

الطبعة الخامسة

١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م

الطبعة السادسة

١٩٩١م ـ ١٤١١هـ

الطبعة السابعة

١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م

الطبعة الثامنة

١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٤م

© دار الشروق
بيروت: ماراليأس - شارع سيدة صيدنايا - بناية صمدي صفا
ص.ب: ٨٠٦٤ - برقيا: داشروق - تلكس ٢٠١٧٥ SHOROK - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - ٨١٧٧٦٥
٨٦٧٥٥٥ - ٣٠٧٩٨٤

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ت: ٣٩٣٤٥٧٨ / ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس ٣٩٣٤٨١٤ - تلكس ٩٢٠٩١ SHROK UN
٨ شارع سيبويه المصري - مدينة نصر. ت: ٢٦٢٣٣٩٨
٢٦٢٣٥٤٨ - فاكس ٦١٧٥٦٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾

صدق الله العظيم

مقدمة

يعيش العالم الإسلامى اليوم ـ كما أشرت فى غير هذا الكتاب [1] ـ مرحلة من أسوأ مراحله التاريخية ، إن لم تكن أسوأ مامر به فى تاريخه كله . فلم تكن الأزمات الماضية تصيب المسلمين كلهم فى وقت واحد فى كل بقاع الأرض كما هو الحال فى هذه المرة . ولم يكن الذل والهوان والضياع يشمل الأمة الإسلامية كلها كما يشملها فى هذه المرة .

فإذا كانت نكبة الأندلس ـ مثلا ـ تعتبر من أسوأ مامر بالمسلمين فى القرون الماضية ، فنكبة فلسطين أسوأ . فحينما كان ظل المسلمين يتقلص عن الأندلس ، كانت الدولة العثمانية الفتية تقتحم القسطنطينية وتجعل منها عاصمة الخلافة الإسلامية ، ثم تتوغل بجيوشها فى أوربا حتى تصل إلى فينا وبطرسبورج . أما نكبة فلسطين فإنها تحدث وظل المسلمين منحسر فى كل الأرض ، والمذابح لا تكف عنهم فى كل مكان : فى الفلبين . فى الحبشة . فى أريتريا . فى تشاد . فى نيجريا . فى الهند . فى أفغانستان . فى

---

(١) فى كتاب « واقعنا المعاصر » . وقد كان الأصل أن يصدر كتاب « المفاهيم » قبل « واقعنا المعاصر » لأنه مكتوب قبله بعدة سنوات ولكن شاء الله أن يتأخر كتاب المفاهيم كل هذه السنوات . وتصدر قبله كتب أخرى كتبت بعده بسنوات ! وكل شىء عنده بمقدار .

العالم الشيوعى كله حيث يخيرون بين الكفر أو الموت . والمؤامرات تحاك للإسلام والمسلمين على نطاق القوى الدولية كلها مجتمعة . والعالم الإسلامى يفتت ، ثم يعود فيفتت ، ثم يعود فيفتت . وتقوم المحاولة إثر المحاولة لإقامة دول لغير المسلمين فى الأرض الإسلامية ، تقتطع فى كل مرة جزءا من أرض الإسلام ، وتستعبد من يبقى فيها من المسلمين أو تقتّلهم .. ثم الدعاة المسلمون يقتّلون ويعذبون أبشع تعذيب فى التاريخ ، على يد حكومات تناوئ الدعوة الإسلامية ، وترفض أن تحكم المسلمين بشريعة الله .

هذا هو الوضع السيئ الذى يعيشه العالم الإسلامى اليوم بغير شبيه له فى التاريخ .

* * *

ولا شيء فى هذا الوضع يحدث اعتباطا ، ولا يمكن أن يحدث شيء واحد فى حياة البشر اعتباطا ! إنما يجرى كل شيء فى حياة البشر حسب سنة الله التى لا تتخلف ولا تحابى أحدا من الخلق :

« فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلا »[٢] .

ومن سنة الله أنه لا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، أى ينحرفوا عن الطريق :

---

(٢) سورة فاطر [٤٣] .

« ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وأن الله سميع عليم »(٣) .

ومن سنته أنه لا يحابى أحدا لكونه من « ذرية » قوم صالحين :

« وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال : إنى جاعلك للناس إماما . قال : ومن ذريتى ؟ ! قال لا ينال عهدى الظالمين »(٤) .

إنما يمكنهم حين يكونون هم بأنفسهم مؤمنين صالحين :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا »(٥) .

أما الذين يرثون الكتاب وراثة ، أى لا يعتبرونه خاصا بهم ، ولا ملزما لهم ، إنما هو شىء موروث عن الآباء والأجداد فأولئك هم الخلف السيئ الذين أشير إليهم فى كتاب الله فى معرض الحديث عن بنى إسرائيل لتحذير المسلمين من عاقبتهم :

« فخلف من بعدهم خَلْفٌ ورثوا الكتاب ، يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ! وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ! ألم يؤخذ

---

(٣) سورة الأنفال [٥٣] .

(٤) سورة البقرة [١٢٤] .

(٥) سورة النور [٥٥] .

عليهم ميثاق الكتاب ألاّ يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا مافيه ؟ والدار الآخرة خير للذين يتقون ، أفلا تعقلون ؟ ! »[٦] .

وهم هم الذين يقول الله فيهم :

« فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غيا »[٧] .

هذه كلها سنن ربانية تجرى بها الأمور فى الحياة البشرية ، لا تحابى أحدا ، ولا تتبدل على هوى أحد من البشر .

ولقد أنعم الله على الأمة الإسلامية بالتمكين والاستخلاف والتأمين ، وفتح عليها بركات من السماء والأرض كما وعد المتقين « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض »[٨] .

ثم تغير الحال من الاستخلاف والتمكين والتأمين إلى الذل والضعف والهوان ، والتشريد والتنكيل والتقتيل حين صاروا إلى الصورة التى أنذرهم بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحذرهم منها :

« يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يارسول الله ؟ قال : أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل .. »[٩] .

---

(٦) سورة الأعراف [١٦٩] .
(٧) سورة مريم [٥٩] .
(٨) سورة الأعراف [٩٦] .
(٩) أخرجه أحمد وأبو داود .

فما الذى تغير؟ .. وكيف حدث التغيير؟

* * *

لقد حدثت انحرافات كثيرة فى حياة المسلمين فى مسيرتهم الطويلة خلال التاريخ .

وكل انحراف وقع فى حياتهم عن المنهج الربانى كانت له ولاشك عاقبته البطيئة أو السريعة حسب نوع الانحراف ، ودرجة تفشيه ، وموقف الأمة منه بحكامها وعلمائها وعامتها .. حتى إذا وصل الانحراف إلى حده الأقصى كانت عاقبته مانراه اليوم من ضعف ومذلة وخوف ، بدلا من الاستخلاف والتمكين والتأمين ..

ومابنا فى هذا الكتاب أن نتحدث عن خط الانحراف الطويل كله .. [١٠]

إنما نتحدث هنا عن نوع معين من الانحراف ، قد يكون هو الأشد خطرا فى حياة المسلمين فى الوقت الحاضر ، أو قد يكون هو الخلاصة التى آل إليها الانحراف التاريخى كله ..

إن كثيرا من الدعاة المخلصين أنفسهم ليظنون أن ما أصاب المسلمين قد أصابهم بسبب انحراف سلوكهم عن الصورة الإسلامية الصحيحة .

وانحراف المسلمين فى سلوكهم أمر أوضح من أن يشار إليه .. فإن

---

(١٠) تحدثت عنه وعن آثاره فى كتاب « واقعنا المعاصر » .

ما تفشى فى حياتهم من الكذب والغش والنفاق ، والضعف والجبن والاستخذاء ، والبدع والمعاصى ، وما صار إليه الشباب من تفلت وتحلل ، وما صار الناس إليه من تبلد على الفجور والمنكر .. وعشرات غيرها من الصفات والأعمال ، كلها ليست من الإسلام فى شىء ، بينما هى الواقع الذى يعيشه « المسلمون » !

ومع ذلك فليس الانحراف السلوكى هو الانحراف الوحيد فى حياة أولئك « المسلمين » ، ولا هو الانحراف الأخطر فى حياتهم . ولو كان الأمر مقصورا على الانحراف السلوكى وحده لكان الأمر ـ على سوئه ـ أهون بكثير !

ولكن الأمر تجاوز ذلك إلى الانحراف فى « المفاهيم » .. كل مفاهيم الإسلام الرئيسية ابتداء من لا إله إلا الله !

وحين تجد إنسانا منحرفا فى سلوكه ، ولكن تصوره لحقيقة الدين صحيح ، فستبذل جهداً ما لرده عن انحرافه السلوكى ، ولكنك لا تحتاج أن تبذل جهدا فى تصحيح مفاهيمه ، لأنها صحيحة عنده وإن كان سلوكه منحرفا عنها . أما حين يقع الانحراف فى المفاهيم ذاتها ، فكم تحتاج من الجهد لتصحيح المفاهيم أولا ، ثم تصحيح السلوك بعد ذلك ؟

تلك هى حقيقة الوضع فى العالم الإسلامى اليوم .

تجاوز الانحراف منطقة السلوك ، ووصل إلى المفاهيم الرئيسية لهذا الدين .

ومن أجل ذلك يعانى الإسلام اليوم تلك الغربة التى تحدث عنها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« بدأ الإسلام غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ »[١١] .

ولقد عاد غريبا بالفعل .. غريبا بين أهله أنفسهم ، يتصورونه على غير حقيقته ـ فضلا عن سلوكهم المنحرف عنه ـ ويستغربونه حين يعرض لهم فى صورته الحقيقية كما جاءت فى كتاب الله وسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخذت تطبيقها الكامل فى حياة السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ !

وعلينا أن نواجه الأمر على حقيقته ..

فإن أى جهد نبذله فى تصحيح السلوك وحده ـ مع بقاء المفاهيم منحرفة ـ لن يؤتى ثماره كاملة ، ولن يخرج الأمة من وهدتها التى انتكست إليها فى عصرها الحاضر. إنما نحتاج أن نبذل جهدا مضاعفا لإزالة الغربة الثانية كالجهد الذى بذلته الجماعة الأولى من المسلمين لإزالة الغربة الأولى للإسلام .

وهذا الجهد المضاعف هو المهمة الملقاة اليوم على عاتق الصحوة الإسلامية .

وأول مانبدأ به من هذا الجهد هو تصحيح منهج التلقى ..

---

(١١) أخرجه مسلم .

من أين نتلقى فهمنا لهذا الدين ؟ من كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسيرة السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ ؟ أم مما دخل على هذا الفهم الواضح المستقيم من أفكار دخيلة ومنحرفة ، بتأثير عوامل متعددة فى أثناء المسيرة الطويلة للأمة الإسلامية ، واحتكاكها الدائم بأخلاط من المذاهب وأخلاط من الأفكار ؟ !

فإذا صححنا منهج التلقى ، وصححنا بناء على ذلك ما انحرف فى حس المسلمين المتأخرين من مفاهيم الإسلام الرئيسية بقيت علينا مهمة أخرى لا تقل خطرا هى مهمة التربية على المفاهيم الصحيحة لهذا الدين .

والتربية هى الجهد الحقيقى الذى ترجى معه الثمرة . ولكنه لن يؤتى ثمرته حتى يقوم على أساسه الصحيح .

وهذا الكتاب محاولة متواضعة لتصحيح بعض المفاهيم الإسلامية ، بردها إلى صورتها الأولى ، المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسيرة السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ وإزالة ما علق بها من انحراف فى أثناء المسيرة التاريخية للأمة الإسلامية .

وقد تناولت فيه خمسة مفاهيم رئيسية من مفاهيم الإسلام : مفهوم لا إله إلا الله . مفهوم العبادة . مفهوم القضاء والقدر . مفهوم الدنيا والآخرة . مفهوم الحضارة وعمارة الأرض .

وسيجد القارئ أن القسم الأكبر من الكتاب قد استغرقه الحديث عن مفهوم لا إله إلا الله ، ثم مفهوم العبادة ، ولا غرابة فى ذلك . فلا

إله إلا الله هى الركن الأول ــ والأكبر ــ من أركان الإسلام ، كما أن الانحراف الأكبر ــ والأخطر ــ فى حياة المسلمين هو الذى وقع فى مفهوم لا إله إلا الله ! وكذلك مفهوم العبادة ، فقد كان له فى معناه الواسع الشامل صداه فى عظمة هذه الأمة وعظمة منجزاتها ، كما كان له فى معناه الضيق الهزيل الذى صار إليه صداه فى الواقع المنحسر الذى يعانيه المسلمون اليوم ...

وحين تصحح هذه المفاهيم ، وتعود لها فى نفوس المسلمين صورتها الحقيقية الحية الفاعلة ، فسيصبح الطريق ميسرا ــ بعون الله ــ لتصحيح كل ما أصاب المسلمين من انحراف ، وكل ما ترتب عليه فى حياتهم من آثار ..

فإن وفقنى الله إلى شىء فى هذه المحاولة المتواضعة فإنى شاكر لأنعمه .
وما توفيقى إلا بالله ،

محمد قطب

مفهوم لا إله إلا الله

لا إله إلا الله هى الركن الأول ـ والأكبر ـ فى الإسلام .. قبل الصلاة والصيام والزكاة والحج .. وقبل كل شىء فى هذا الدين .

ومن يتدبر القرآن يلحظ ولا شك الأهمية العظمى التى يوليها كتاب الله لقضية التوحيد .. قضية لا إله إلا الله ، بحيث تشغل الحيز الأكبر من القرآن كله ، وإن كان التركيز عليها فى السور المكية أشد .

وقد يتبادر إلى الأذهان لأول وهلة ـ كما أشرت فى كتاب « دراسات قرآنية » ـ أن هذا الاهتمام البالغ بقضية لا إله إلا الله فى كتاب الله كان سببه أن المخاطبين بهذا القرآن أول مرة كانوا قوما مشركين ، فكان من المناسب أن يركّز الحديث لهم فى قضية التوحيد لتصحيح اعتقاداتهم الباطلة وتصوراتهم الفاسدة فى قضية الألوهية .

ولكن استمرار الحديث عن هذه القضية فى السور المدنية ، بعد استقرار العقيدة ، وقيام المجتمع الإسلامى والدولة الإسلامية ، والتزام ذلك المجتمع بتكاليف الإسلام ومقتضياته . وعلى رأسها الجهاد فى سبيل الله .. كل ذلك له دلالته الواضحة على الأهمية الذاتية لهذه القضية ،

حتى بالنسبة للمؤمنين الذين تخاطبهم الآيات المدنية مبدوءة بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا .. » وأن قضية التوحيد ـ قضية لا إله إلا الله ـ ليست حديثا يذكر لفترة من الوقت ثم ينتقل منه إلى غيره ، إنما هى حديث يذكر ثم **ينتقل معه** إلى غيره .. حديث لا ينقطع فى أىِّ وقت من الأوقات .

وربما كانت هذه الآية فى سورة النساء حاسمة الدلالة فيما ذهبنا إليه :

« يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذى نزل على رسوله ، والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدًا »[1] .

فالذين يُدْعَون إلى الإيمان هم المؤمنون بالفعل : « يا أيها الذين آمنوا » ! والذى يُدْعَوْن إلى الإيمان به هو الذى آمنوا به بالفعل ! فهم يدعون إلى الإيمان بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ، والله يقول عنهم فى آخر سورة البقرة : «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله .. » ! .

فقضية لا إله إلا الله إذن قضية دائمة فى حياة البشرية .. لا يدعى إليها الكفار وحدهم لكى يؤمنوا ، ولا المشركون وحدهم ليصححوا اعتقادهم ، ولكن يدعى إليها المؤمنون بها كذلك ويذكّرون بها ، لكى

---

(١) سورة النساء [١٣٦] .

تظل حية فى قلوبهم ، راسخة فى ضمائرهم ، عاملة فى واقع حياتهم ، لا يفترون عنها ، ولا يغفلون عن مقتضياتها : « يا أيها الذين آمنوا ، آمنوا .. »

ولا عجب أن تكون قضية لا إله إلا الله **هى القضية** !

وليس السبب فى اهتمام القرآن بها أنه كتاب دين ! إنما السبب فى ذلك أنه الكتاب الذى يحدد منهج الحياة للإنسان [٢] !

فحياة الإنسان لا تستقيم حتى يعلم « الحق » الذى خلقت به السماوات والأرض ، وحتى تتوافق حياته مع ذلك الحق ، فلاتنحرف عنه ، ولا تشذ عن مقتضياته .

والحق أنه لا إله إلا الله .. هو الخالق وحده ، وهو الرازق وحده ، وهو المسيطر وحده ، وهو المدبر وحده ، وهو القيوم وحده .. ولا أحد غيره يخلق أو يرزق أو يدبر الأمر ..

ومقتضى ذلك كله أن يُعْبَدَ وحده ، لا يشرك به غيره ، ولا توجه العبادة لأحد سواه ..

وفضلا عن كون ذلك هو حق الله على عباده ، إذ أن حق الخالق الرازق المنعم المتفضل ألا توجه العبادة إلى غيره ممن لم يخلق ولم يرزق ولم ينعم ولم يتفضل ..

---

(٢) أشرت إلى هذا المعنى فى كتاب « دراسات قرآنية » .

فضلا عن ذلك فهى قضية الإنسان ذاته ..

فالله الخالق الرازق المنعم المتفضل حقيق بأن تفرد له العبودية لأنه هو المتفرد بالألوهية والربوبية . ولكنه ـ سبحانه وتعالى ـ غنى عن العباد وعبادتهم ، لا يؤثر فى ملكه أن يعبده عباده أو يكفروا به !

يقول الله فى الحديث القدسى : « ياعبادى ، لو أن مؤمنكم وكافركم ، برّكم وفاجركم كانوا على أتقى قلب رجل منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا ، ولو أن مؤمنكم وكافركم ، بركم وفاجركم كانوا على أفجر قلب رجل منكم مانقص ذلك فى ملكى شيئا »[٣] .

ويقول تعالى فى محكم التنزيل على لسان موسى ـ عليه السلام ـ :

« وقال موسى : إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد »[٤] .

أما الإنسان فأمره مختلف ..

فهو من ناحية لا يستغنى عن فضل الله لحظة واحدة من حياته :

« ياأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم . هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ؟[٥]

ومن ناحية أخرى هو عابد بفطرته . لا تمر عليه لحظة من عمره

---

(٣) أخرجه مسلم .
(٤) سورة إبراهيم [٨] .
(٥) سورة فاطر [٣] .

لا يكون فيها عابدا لشيء ما ، واعيا بذلك أم على غير وعى منه [٦] . وهو ـ فى أى لحظة من حياته ـ بين أمرين اثنين لا ثالث لهما : إما أن يكون عابدا لله وحده بلا شريك ، وإما أن يكون عابدا لشيء آخر غير الله ، معه أو من دونه ، كلاهما سواء ! مما يسميه الله ـ سبحانه وتعالى ـ « عبادة الشيطان » لأنه استجابة لدعوة الشيطان :

« ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى ، هذا صراط مستقيم » [٧] .

كما أن فى تركيب الإنسان ـ فى فطرته التى فطره الله عليها ـ حبا عميقا للشهوات ، يصفه ـ سبحانه وتعالى ـ على هذه الصورة :

« **زين للناس حب الشهوات** من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا . . » [٨] .

وهذه الشهوات ـ وإن كانت مركبة فى فطرة الإنسان لحكمة يريدها الله [٩] ـ **فهى** هى المداخل التى يستدرج الشيطان منها الإنسان ليبعده عن

---

(٦) حتى الذين يقولون إنهم « ملحدون » لايؤمنون بشيء ولايعبدون شيئا هم عابدون لأهوائهم وشهواتهم كما يقول سبحانه وتعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ؟ » [سورة الجاثية : ٢٣] .

(٧) سورة يس [٦٠ ـ ٦١] . (٨) سورة آل عمران [١٤] .

(٩) هى من « الدوافع » التى يعلم الله أنها لازمة للإنسان ليقوم بدور الخلافة فى الأرض ولكن فى الحدود التى أباحها الله ، وهى فى الوقت ذاته نقطة الابتلاء فى حياة الإنسان. انظر الفصل القادم « مفهوم العبادة » .

عبادة الله ، بعدا مؤقتا كما يقع فى المعصية : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن .. »[١٠] أو بعدا كاملا ينقطع فيه مابينه وبين الله ، فى شرك أو كفر وجحود :

« قال : فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين »[١١] .

ولا تستوى حياة الإنسان عابداً لله وعابدا للشيطان :

« أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى ؟ أم من يمشى سويا على صراط مستقيم ؟ »[١٢] .

« قل : هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ »[١٣] .

ومن فضل الله وكرمه أنه حين يؤدى العباد حق الله عليهم ، من إفراده بالألوهية والربوبية ، وتوجيه العبادة خالصة إليه ، يكونون فى أحسن تقويم كما خلقهم الله . وتكون حياتهم فى الدنيا خير حياة وأنظف حياة وأجمل حياة ، ويكون لهم فى الآخرة ما وعدهم الله من الجزاء ، بينما يتمتعون فى الدنيا ـ إذا كفروا ـ متاع الحيوان ، ويكون لهم فى الآخرة ماتوعد الله به من الجزاء .

---

(١٠) أخرجه الشيخان .
(١١) سورة الأعراف [١٦ ـ ١٧] .
(١٢) سورة الملك [٢٢] .
(١٣) سورة الرعد [١٦] .

« الذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم »[14] .

« والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى ، فبشر عباد »[15] .

من أجل ذلك يحتاج الإنسان دائما إلى لا إله إلا الله ..

يحتاج إليها وهو كافر أو مشرك ليصحح أصل اعتقاده ، ويحتاج إليها وهو مؤمن ليتنبه ويحذر ، ويضيّق فى نفسه مداخل الشيطان ، لكى لا يفتنه عن العبادة الحقة الواجبة لله .

وفى جميع الأحوال تؤدى لا إله إلا الله مهمة معينة فى حياة الإنسان ، ولا تكون « كلمة » تطلق فى الهواء بغير مقتضى لها ولا أثر فى واقع الحياة .

* * *

فلننظر الآن المهمة التى أدتها لا إله إلا الله فى حياة الجيل الأول ـ رضوان الله عليهم ـ ولننظر قبل ذلك لماذا رفضها العرب المشركون وصارعوا الدعوة إليها ذلك الصراع المرير الذى يعرفه التاريخ ..

إن لا إله إلا الله هى دعوة الرسل جميعا ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ من لدن آدم ونوح إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وموقف

---

(١٤) سورة محمد [١٢] .

(١٥) سورة الزمر [١٧] .

الجاهلية تجاهها موقف واحد لم يتغير خلال التاريخ : موقف الرفض والصد والإعراض والجنوح ..

فما الذى فيها يدعو الجاهلية إلى اتخاذ هذا الموقف الموحد خلال التاريخ ، وخاصة من جهة الملأ المستكبرين فى كل جاهلية .

« ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين ، ألاّ تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه مانراك إلا بشرا مثلنا ، ومانراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، ومانرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين »(١٦) .

« وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، إن أنتم إلا مفترون » ... « قالوا ياهود ماجئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين »(١٧) .

« وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ، فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربى قريب مجيب . قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ، أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا ؟ وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب »(١٨) .

« وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، ولا تنقُصُوا المكيال والميزان ، إنى أراكم بخير ، وإنى أخاف

---

(١٦) سورة هود [٢٥ ــ ٢٧] .
(١٧) سورة هود [٥٠ إلى ٥٣] .
(١٨) سورة هود [٦١ ــ ٦٢] .

عليكم عذاب يوم محيط » ... « قالوا : ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء ؟ إنك لأنت الحليم الرشيد ! »[19] .

ولم تكن الجاهلية العربية بدعا من الجاهليات تجاه ذات الدعوة التى أرسل بها كل رسول من قبل . فلماذا وقفت الجاهلية العربية هذا الموقف العنيد ، وأبت ذلك الإباء ، كما وقفت كل جاهلية من قبل ؟

أمن أجل الكلمة ؟ أم من أجل مدلولها ومقتضاها ؟ وماذا كان مدلولها فى حسهم بالضبط ؟ وما الفارق ــ حسب مدلول الكلمة ــ بين صورة حياتهم التى كانوا عليها وبين الصورة التى يُدْعَوْن إليها ، أو يتوقعون أن تكون عليها حين يدخلون فى لا إله إلا الله ؟

أما الكلمة فى ذاتها ــ بغير مقتضى ولا مدلول ــ فلا يتصور من قريش خاصة أن تقف من أجلها موقف العناد الشديد كله الذى وقفته ، وتخوض من أجلها ذلك الصراع كله الذى خاضته ، حتى يفلت الأمر من أيديها ، ويقتل من صناديدها من يقتل .. كما لا يتصور من بقية العرب كذلك أن يخوضوا صراعا هائلا من أجل كلمة ، لو كانت تلك الكلمة لا تغير من حياتهم شيئا ، ولا تقدم ولا تؤخر .

فأما قريش ، فإن القبيلة التى كان يولد فيها شاعر كانت تتيه فخرا على بقية القبائل ، فكيف بالتى يخرج منها نبى ؟ ! وقد كان لقريش خاصة

(١٩) سورة هود [٨٤ إلى ٨٧] .

زعامة « دينية » تعطيها فى الوقت ذاته مركزا سياسيا واقتصاديا متميزا ، ومولد نبى فيها يزيد الزعامة الدينية بروزا ، ومن ثم يؤكد المركز السياسى والاقتصادى ويزيده وثاقة .

فلماذا رفضت قريش أن تنطق الكلمة .. لو أنها مجرد كلمة تقال ؟ !

ولقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعمه أبى طالب وهو يناشده أن يسلم : قلها ياعم ! كلمة أشفع لك بها عند الله ! فهل كان يتصور من أبى طالب أن يرفض الكلمة لو أنها مجرد الكلمة ، أى لو لم يكن لها مقتضى ، ولا يترتب على قولها تغيير؟ أم إنه رفضها من أجل ما يترتب على التلفظ بها من تغيير كامل فى منهج الحياة كله ، وفى كل جزئية من جزئياته ؟

تلك بديهية لا نحسبها موضع جدال .

لقد كان البون شاسعا جدا بين صورة حياتهم التى كانوا عليها والصورة التى يدعون إليها ، وكانت معارضتهم لهذه الدعوة متعددة الصور متعددة الأسباب :

كانوا يكذبون بقضية الوحى ..

ويكذبون بالبعث والحشر والحساب والجزاء ..

وكانوا يرفضون أن يجعلوا الآلهة إلها واحدا ..

وكانوا يرفضون أن يتركوا ما عليه آباؤهم ويتبعوا ما أنزل الله ، وأن

يكون حلالهم وحرامهم ما أحل الله وما حرم الله ..

وذلك فضلا عن الأمور « الخلقية » الأخرى كالخمر والميسر والزنا والقتل والسلب والنهب ووأد البنات وأكل مال اليتيم والظلم المتفشى بينهم والبغى بغير الحق ..

باختصار .. كانوا يرفضون أن يتلقوا « الدين » من عند الله ، بمعناه الواسع الشامل ، الذى يشمل الاعتقاد والشعائر والتحليل والتحريم ، والأخلاقيات والتصورات ، كما يرفضون أن يلتزموا بما يلزمهم به الدين المنزل من عند الله .

وكانت أهم القضايا التى ركز عليها القرآن قضيتان رئيسيتان ، تجمعان فى طياتهما جميع القضايا : قضية توجيه العبادة لله الواحد ، وقضية اتباع ما أنزل الله فى التحليل والتحريم :

« وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . **أجعل الآلهة إلها واحدا** ؟ ! إن هذا لشىء عجاب ! »[20]

« **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله** قالوا : **بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا** . أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ؟ ! »[21]

ويلخص القرآن موقف الشرك فى هاتين القضيتين تلخيصا دقيقا فى سورة الأنعام وسورة النحل :

---

(٢٠) سورة ص [٤ ـ ٥] .

(٢١) سورة لقمان [٢١] .

« سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء . كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا » (٢٢) .

« وقال الذين أشركوا لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء . كذلك فعل الذين من قبلهم . فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ؟ » (٢٣) .

فالشرك يتمثل ـ فى صورته الاعتقادية ـ فى الاعتقاد بوجود آلهة أخرى غير الله ، وفى صورته العملية فى التوجه بالعبادة لغير الله ، والتحريم والتحليل من دون الله .

وهذا الذى من أجله رفض المشركون العرب أن ينطقوا بلا إله إلا الله .

* * *

أشرنا فيما سبق إلى أن هذا الموقف ـ موقف الرفض والصد ـ لم يكن خاصا بالجاهلية العربية وحدها ، إنما هو أمر عام فى كل الجاهليات التى كانت من قبل . وآيتا سورة الأنعام وسورة النحل اللتان ذكرناهما آنفا تشيران إلى ذلك :

« كذلك كذب الذين من قبلهم » .

« كذلك فعل الذين من قبلهم » .

---

(٢٢) سورة الأنعام [١٤٨] .

(٢٣) سورة النحل [٣٥] .

كما أن قصص الأنبياء تشير كلها إلى هذه الحقيقة التاريخية . ففى كل جاهلية أرسل إليها رسول نجد « الملأ » يسارعون إلى التصدى للرسول وتكذيبه ومحاولة تخذيله عن دعوته ، ونجد « الجماهير » المستضعفة تتبع سادتها ــ إلا القليل منهم ــ وتصد عن السبيل .

وقد ترفض الجماهير أن تترك مألوف عبادتها من الآلهة المتعددة ، لأن الجماهير ــ فى جاهليتها ــ تكون أكثر التصاقا بعالم الحس . وهذه الآلهة المحسوسة القريبة تلبى انحرافاتها الجاهلية ، وتجعلها تحس كلما رأتها أو لمستها أو قدمت لها القرابين أو شعائر التعبد ، أنها قريبة من آلهتها قربا ماديا محسوسا !

وأما الملأ ــ وهم أكثر تنورا وأكثر استعلاء عن الجماهير ــ فإن الذى يحركهم لمحاربة الرسول المبعوث إليهم ليس قضية الآلهة المزعومة بقدر ماهو قضية « السلطة » !

إن ولاءهم لهذه الآلهة صورى أكثر مما هو حقيقى ! وإن دفاعهم عنها ــ مهما بدا حارا ــ لا ينبعث من الاعتقاد بألوهيتها بقدر ماينبعث من كونها هى الأداة التى يستعبدون باسمها الجماهير ، ويعطون أنفسهم سلطانا مقدسا مستمدا من قداستها فى نفوس الجماهير !

أما القضية الحقيقية بالنسبة إليهم فهى قضية الحاكمية : من يحكم هذه الجماهير؟ هم ؟ أم الله ــ سبحانه وتعالى ــ عن طريق تحكيم شريعته ؟

هذه هى القضية الحقيقية التى تستفز الملأ فى كل جاهلية ليحاربوا دعوة لا إله إلا الله .

إن السلطة التى فى أيديهم ، سلطة التشريع التى يحكمون بها الجماهير ـ ويستذلونهم بها ـ ليست سلطتهم أصلا ، إنما هى حق الخالق الرازق المنعم المتفضل ، الذى خلق ، ثم رزق وأنعم وتفضل ، فكان من حقه وحده أن يحل ويحرم ، وأن يبيح ويمنع ، وليس لأحد غيره أن يشرع ـ أى يحل ويحرم ـ إلا أن يكون خالقا مثل الله ، رازقا مثل الله ، منعما متفضلا مثل الله . والله « ليس كمثله شىء » (٢٤) .

« أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكّرون ؟ ! » (٢٥) .

« هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ؟ » (٢٦) .

ولكن « الملأ » يتجاهلون هذه الحقيقة ، ويتجاهلون أسسها « الاعتقادية » ومقتضياتها العملية ، حين يستبدون بالسلطة ـ سواء حكموا بالدكتاتورية الصريحة أم من وراء ستار كما هو الحال فى « الديمقراطية » (٢٧) ، وسواء استجابوا لشهوات الجماهير وأهوائهم أم

---

(٢٤) سورة الشورى [١١] .

(٢٥) سورة النحل [١٧] .

(٢٦) سورة فاطر [٣] .

(٢٧) انظر إن شئت فصل « الديمقراطية » من كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » حيث بينا كيف تحكم الرأسمالية من خلال الديمقراطية . وكيف تحقق جميع مصالحها بينما يتوهم « الشعب » أنه هو مصدر السلطات .

اكتفوا بشهواتهم .هم وأهوائهم[٢٨] ـ، ويظلون يؤصلون سلطانهم « بأنظمة » للحكم و « دساتير » عرفية أو مكتوبة تجعل لهم الحق فى التحليل والتحريم ، والإباحة والمنع ..

حتى إذا جاء رسول من عند الله يقول : « لا إله إلا الله » « اعبدوا الله مالكم من إله غيره » يتغير الموقف كله !

إن الملأ قد يختصمون فيما بينهم أيهم الذى يتولى « السلطة » ويستعبد الجماهير. وقد يختصمون فيما بينهم وبين الجماهيرـ كما حدث فى الديمقراطية ـ أى قدر من السلطة يحتفظون به فى أيديهم وأى قدر يسقطونه فُتَاتاً تتلهى به الجماهير. أما حين يأتى الرسول الذى يقول:« لا إله إلا الله » « اعبدوا الله مالكم من إله غيره » فإن جوهر القضية يتغير.. وتصبح القضية هى نزع السلطة أصلا من أيدى الملأ ، بل من أيدى البشر جميعا ، وردها إلى الله صاحب السلطان ، صاحب الحق فى المنع والإباحة ، والتحليل والتحريم !

ومن أجل ذلك يفزع « الملأ » من دعوة لا إله إلا الله أضعاف أضعاف ما يفزعون من منازعيهم على السلطان الأرضى ، ويجندون طاقتهم كلها لمحاربة الدعوة ، ويستخدمون الجماهير ذاتها من بين الأدوات

---

(٢٨) فى الديمقراطية بالذات يستجاب لكثير من شهوات الجماهير الهابطة . كجزء من اللعبة الضخمة . لتمرير مصالح الرأسمالية الحاكمة وإيهام الجماهير أنها هى صاحبة السلطان !

التى يستخدمونها لهذه الحرب ، بتزييف الحقائق لها تارة ، وتارة بالإرهاب !

« وقال فرعون ذرونى أقتل موسى ، وليدع ربه ! إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ! »(٢٩) .

« ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين . فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا : إن هذا لسحر مبين. قال موسى: أتقولون للحق لما جاءكم؟! أسحر هذا؟! ولا يفلح الساحرون . قالوا : أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا **وتكون لكما الكبرياء فى الأرض** ؟ ومانحن لكما بمؤمنين »(٣٠) .

« فاستخف قومه فأطاعوه . إنهم كانوا قوما فاسقين »(٣١) .

* * *

وفى مكة كانت القضية هى ذات القضية .. وكانت قريش هى « الملأ » الذى يتصدى للدعوة بالصد والحرب . ولم تكن فى حقيقتها حربا بين قريش ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما كانت حربا بينهم وبين « الدعوة » التى يحملها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« فإنهم لا يكذبونك ! ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ! »(٣٢) .

---

(٢٩) سورة غافر [٢٦] .
(٣٠) سورة يونس [٧٥ ـ ٧٨] .
(٣١) سورة الزخرف [٥٤] .
(٣٢) سورة الأنعام [٣٣] .

وفى ذروة المعمعة أرسلت قريش رسولها إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعرض عليه الملك والمال ومتاع الأرض كله على أن يتخلى عن تلك الدعوة ! فلم تكن العداوة بينهم وبين شخص الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما نجمت العداوة من تمسكه بهذه الدعوة وعدم تخليه عنها ، وهم لا يطيقونها ولا يصبرون عليها ! ثم كان لابد أن تتحول فى النهاية إلى معركة بينهم وبين ممثل الدعوة ـ عليه الصلاة والسلام ـ ..

* * *

ثم شاء الله أن يؤمن من آمن بلا إله إلا الله ، فكان منهم ذلك الجيل الفريد فى التاريخ .. فكيف كانت لا إله إلا الله فى حياتهم ، وكيف كان مدلولها لديهم ؟ !

هل كانت مجرد تصديق بأن الله واحد ـ سبحانه وتعالى ـ وأنه لا إله غيره فى هذا الكون العريض كله ؟ أوكانت مجرد تصديق بالقلب وإقرار باللسان ؟ !

أم كانت فى نفوسهم وفى واقع حياتهم شيئا أضخم من ذلك بكثير ، وأعمق من ذلك بكثير ، وأشمل من ذلك بكثير ؟ !

فلننظر إلى حقيقة الواقع ..

كان العرب ـ كما أشرنا فى كتاب « واقعنا المعاصر »[٣٣] ـ شتيتا

(٣٣) فصل « نظرة إلى الجيل الفريد .

متناثرا لا يأتلف ولا يتجمع رغم وجود كل عوامل التجمع ، من وحدة الأرض ، ووحدة البيئة ، ووحدة اللغة ، ووحدة المعتقدات ، ووحدة الثقافة ، ووحدة التاريخ .. ومن هنالك التقطهم الإسلام فأخرج منهم « خير أمة أخرجت للناس » .

لم تكن الأصنام وحدها هى الأرباب المعبودة فى الجزيرة العربية كما تلح بعض كتب التاريخ التى تحصر قضية لا إله إلا الله فى إزالة ذلك اللون الحسّى الغليظ من الشرك ، ولا كان الفساد مقصورا على تلك المفاسد الخلقية من الخمر والميسر والزنا ووأد البنات وغارات السلب والنهب والمظالم الاجتماعية كما تلح كتب أخرى من كتب التاريخ !

لقد كانت لا إله إلا الله تستخلص النفوس من الشرك كافة ، ولم يكن الشرك لونا واحدا وإنما ألوانا متعددة تندرج فى النهاية تحت هاتين القضيتين الرئيسيتين : تعدد الآلهة واتباع غير ما أنزل الله ..

كانت القبيلة ربا معبودا ، كما يقول الشاعر :

وهل أنا من غزية ، إن غوت
غويت ، وإن ترشد غزية أرشد !

وكان عرف الآباء والأجداد ربا معبودا :

« وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا [٣٤] .

---

(٣٤) سورة لقمان [٢١] .

وكان الهوى والشهوات أربابا معبودة :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى ؟ !

وكانت قريش وغيرها من القبائل الكبيرة أربابا تحرم للعرب ماتشاء وتحل ماتشاء ، كما كان كهنة الأصنام :

« إنما النسيء زيادة فى الكفر يُضَل به الذين كفروا ، يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ماحرم الله [٣٥] ، فيحلوا ماحرم الله . زُيِّن لهم سوء عملهم ، والله لايهدى القوم الكافرين » [٣٦] .

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا : هذا لله بزعمهم ، وهذا لشركائنا ! فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ! ساء مايحكمون ! وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم . ولو شاء الله مافعلوه . فذرهم وما يفترون . وقالوا : هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء ــ بزعمهم ــ وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه . سيجزيهم بما كانوا يفترون .

---

(٣٥) كان العرب فى جاهليتهم يؤمنون بحرمة الأشهر الحرم الأربعة التى حرمها الله . ولكنهم كانوا إذا اقتضتهم أهواؤهم يحلون ما شاءوا من هذه الأشهر . ويحرمون بدلا منها ما شاءوا بحيث يظل مجموع الأشهر الحرم أربعة فى العام ! وإلى هذا تشير الآية الكريمة .

(٣٦) سورة التوبة [٣٧] .

وقالوا : ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ! سيجزيهم وصفهم ، إنه حكيم عليم . قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله . قد ضلوا وما كانوا مهتدين »[٣٧] .

ومن كل هذه الألوان من الشرك ــ إلى جانب عبادة الأصنام ــ وعلى درجة واحدة من الأهمية ، كان القرآن يدعو ــ بلا إله إلا الله ــ لتخليص النفوس والقلوب ، والمشاعر والسلوك . وكان جهاد الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى مكة موجها إليها جميعا بأمر الله وتوجيهه لرسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ .

ولئن كانت قضية البعث والحساب قد شغلت حيزا كبيرا من خطاب القرآن للمشركين فى مكة ، فإن الله يعلم ــ سبحانه ــ ما للإيمان باليوم الآخر من أثر فى اقتلاع الشرك بجميع أنواعه وجميع آثاره من القلوب ، ذلك أنهم إن لم يؤمنوا الإيمان القاطع أنهم سيبعثون بعد الموت ، ويحاسبون على شركهم ، فلن يَدَعُوا ذلك الشرك ولن يقلعوا عنه ، سواء كان شرك العبادة أو شرك الاتباع ..

* * *

وحين خلصت نفوس المؤمنين بلا إله إلا الله من تلك الألوان من الشرك ، فقد حدث فى نفوسهم تحوّل هائل .. كأنه ميلاد جديد .

---

(٣٧) سورة الأنعام [١٣٦ ــ ١٤٠] .

لم يكن مجرد التصديق ، ولا مجرد الإقرار ..

لقد كان ـ كما ذكرنا فى غير هذا الكتاب ـ كأنه إعادة ترتيب ذرات نفوسهم على وضع جديد ، كما يعاد ترتيب الذرات فى قطعة الحديد فتتحول إلى طاقة مغنطيسية كهربائية .

كان الاهتداء إلى « الحق » هائل الأثر فى كل جوانب حياتهم ..

لقد زالت لتوها كل الأرباب الزائفة التى كانت تحتل قلوبهم وأرواحهم وواقع سلوكهم ، ولم يعد يشغل تلك القلوب والأرواح إلا عبادة واحدة ، لله الواحد لا شريك له ..

وسقط مع تلك الأرباب الزائفة كل ما كان متعلقا بها من أعراف ، وكل ما كان حولها من اهتمامات ..

لم تعد القبيلة ، ولا عرف الآباء والأجداد [٣٨] ، ولا العادات ولا التقاليد الموروثة تزن فى حسهم جناح بعوضة أو تضغط على حسهم لتشكل سلوكهم أو مشاعرهم .. ولم تعد روابط الدم ، ولا روابط « المصالح » هى التى تجمّع بينهم أو تفرّقهم ..

بل لم تعد الدنيا كلها ـ بكل اشتباكاتها وكل وشائجها ـ هى الشغل الشاغل لهم كما كانت قبل إيمانهم بلا إله إلا الله ، ولم تعد « القيم » هى التى تقررها الدنيا منقطعة عن الآخرة !

---

(٣٨) يقابل هذا العرف فى وقتنا الحاضر مايسمى بالرأى العام !

لقد صارت « لا إله إلا الله » هى مفتاح التجمع والافتراق .. هى الرباط الذى يربط القلوب التى آمنت بها ، ويفصل بينها وبين غيرها من القلوب . وصار التجمّع الجديد ، الذى أخذ فى نفوسهم مكان التجمعات القديمة كلها ، منبثقا كله من لا إله إلا الله ، دائرا حول لا إله إلا الله ، مستمدا وجوده الجديد كله من لا إله إلا الله .

ثم كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى هداهم للا إله إلا الله ، والذى تمثلت فيه رسالة الله إليهم ـ يلتقى بهم فى دار الأرقم ليقوم بأعظم عمل قام به إنسان فرد فى تاريخ البشرية كله ، وهو تربية ذلك الجيل الفريد على مقتضيات لا إله إلا الله ، وأخلاقيات لا إله إلا الله ..

ومن خلال هذه التربية الفذة على مقتضيات لا إله إلا الله ، وأخلاقيات لا إله إلا الله ، على يد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرجت خير أمة فى التاريخ ..

* * *

يتوهم كثير من الناس أن لا إله إلا الله كانت مطلوبة بكل مقتضياتها ، ومؤثرة فى ذلك الجيل الفريد بكل آثارها لأنهم كانوا ـ قبل ذلك ـ مشركين ! ! وأنهم لو كانوا فى غير هذا الوضع لكان كل المطلوب منهم هو التصديق والإقرار ! !

وتلك هى الجناية الكبرى التى جناها الفكر الإرجائى على الأمة الإسلامية ، والتى ظلت ـ مع عوامل أخرى ـ تفرغ لا إله إلا الله من

محتواها الحقيق تدريجيا حتى أحالتها فى النهاية كلمة خاوية من الروح .

وقبل أن نناقش هذا الوهم ، نريد أن نستعرض ــ قليلا ــ صورة لا إله إلا الله مع المؤمنين فى المدينة .

إن حديث لا إله إلا الله ــ كما أسلفنا ــ لم ينقطع فى المدينة ، لأنه ليس حديثا يذكر فى مبدإ الطريق ثم ينتقل منه إلى موضوع آخر ، إنما يذكر فى مبدإ الطريق **ثم ينتقل معه إلى كل موضوع آخر** .

ولنأخذ نماذج من السور المدنية تبين هذا الأمر .

إن سورة البقرة التى تناولت موضوعات متعددة بدأ بها تنظيم حياة المؤمنين فى المجتمع الجديد بعد قيام الدولة ، تبدأ بوصف المؤمنين الذين صح اعتقادهم ورسخ على الصورة الصحيحة ، ثم أدوا العبادات التى فرضت عليهم :

« ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون »[٣٩] .

فماذا يقال لهؤلاء « المؤمنين » « المتقين » « المفلحين » الذين لم يستوفوا فقط شرط التصديق والإقرار ، بل أضافوا إلى ذلك إقامة الصلاة ، وإيتاء

---

(٣٩) سورة البقرة [١ ــ ٥] .

الزكاة ، وهما العبادتان اللتان كانتا وقتئذ قد فرضتا عليهم ؟

هل يقال لهم : يكفيكم ! أحرزتم المطلوب كله وضمنتم الجنة . أم يقال لهم : إن الله فرض عليكم ، وفرض عليكم وفرض عليكم .. على سبيل الوجوب لا على سبيل التخيير؟

ويقال لهم ، لكى يعلموا يقينا أن حقيقة الإيمان لا تتحقق بالتصديق والإقرار وحده ، ولكن بأعمال معينة دالة على الإيمان :

« ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس . **أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون** »[٤٠] .

وسورة آل عمران ، المشغولة كلها بقضية لا إله إلا الله[٤١] ، والتى تبدأ بهذه الآيات المتعلقة بالعقيدة :

«ألم . الله لا إله إلا هو الحى القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق

---

(٤٠) سورة البقرة [١٧٧] .

(٤١) انظر بالتفصيل إن شئت كتاب « دراسات قرآنية » .

مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس ، وأنزل الفرقان .. » [٤٢] .

هذه السورة تقرر أصول العقيدة واضحة حاسمة وتقرر إلى جانبها مقتضياتها ، وتبرز من بين هذه المقتضيات قضية القتال لإقرار هذا الحق فى واقع الأرض ، ويرد فيها بالذات هذا الدرس التربوى العظيم :

« إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض : ربنا ماخلقت هذا باطلا ، سبحانك ! فقنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد . فاستجاب لهم ربهم : أنّى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض ، فالذين هاجروا ، وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا فى سبيلى ، وقاتلوا وقتلوا ، لأكفرن عنهم سيئاتهم ، ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله . والله عنده حسن الثواب » [٤٣] .

فهؤلاء المؤمنون الصادقون الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى

---

(٤٢) سورة آل عمران [١ ـ ٤] .
(٤٣) سورة آل عمران [١٩٠ ـ ١٩٥].

جنوبهم ـ والذكر من عمل الجوارح إلى جانب عمل القلب ـ ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ، فيهتدون إلى أنها لم تخلق باطلا ، إنما خلقت بالحق ، والحق يقتضى أن يحاسب الناس على أعمالهم التى قاموا بها فى الحياة الدنيا ، فلابد من بعث وحساب وجزاء ، فيدعون الله أن يقيهم النار ويدخلهم الجنة ، ويتقدمون بمؤهلات الطلب : أنهم بمجرد سماعهم للمنادى الذى ينادى للإيمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد آمنوا .. هؤلاء المؤمنون الذين هذه حالهم وهذه صفاتهم يُخْبَرُون أن الله استجاب لهم .. فلأى شىء استجاب سبحانه ؟ أللتصديق والإقرار ؟ أللتفكر والتدبر ؟ أللذكر الدائم الذى لا ينقطع ؟ أللضراعة الحارة للوقاية من النار ودخول الجنة ؟ أم لشىء بعد ذلك كله ، هو من « مقتضيات » ذلك كله ؟ !

« فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع **عمل عامل منكم** ... »

والتوجيه التربوى واضح .. فالمطلوب ، والذى يستجيب له الله ـ جل وعلا ـ هو أن يتحول التفكر والتدبر والتذكر إلى **عمل**. ولما كانت السورة مشغولة بقضية الجهاد لإقرار الحق فى واقع الأرض ، أبرزت الآية أنواعا من العمل تناسب السياق ، فذكرت الذين هاجروا فى سبيل الله ، والذين أخرجوا من ديارهم فى سبيل الله ، والذين أوذوا فى سبيل الله ، والذين قتلوا فى سبيل الله ، لا لأنها الأعمال الوحيدة

المطلوبة ، ولكن لأنها هي المناسبة فى السياق[٤٤] .

وسورة النساء ، التى وردت فيها الآية التى تخاطب « الذين آمنوا » فتطلب منهم أن يؤمنوا ، بل تطلب منهم أن يؤمنوا بذات الأشياء التى هم مؤمنون بها بالفعل ـ كما أشرنا من قبل ـ لا تقول للذين آمنوا إنكم إذا آمنتم هذا الإيمان المطلوب ، بل رسختموه وحافظتم عليه وحرصتم عليه ، وامتلأت به قلوبكم ووجداناتكم ، وصدقتم وأقررتم ، فلا عليكم بعد ذلك أن يكون سلوككم الواقعى وتصرفاتكم العملية كما تملى عليكم أهواؤكم ، أو كما تقرر لكم أعرافكم... إنما يفرض عليهم « فرائض »[٤٥] يختم بيانها بقوله تعالى :

« تلك حدود الله . ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم . ومن يَعْصِ الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين »[٤٦] .

ويوجههم توجيهات معينة يقيمون عليها علاقاتهم الأسرية ، وعلاقاتهم الاجتماعية ، ويوجههم إلى المرجع الذى يرجعون إليه فى ذلك كله :

« ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ،

---

(٤٤) أشرت إلى هذا المعنى فى كتاب « دراسات قرآنية » فى عرض سورة آل عمران .
(٤٥) هى المواريث .
(٤٦) سورة النساء [١٣ ـ ١٤] .

فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر .. » [٤٧] .

فيربط رد الأمور إلى الله والرسول ، وإجراء الحياة كلها بحسب مايقضى به الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإيمان بالله واليوم الآخر ويجعله شرطه : « **إن كنتم تؤمنون** بالله واليوم الآخر » .

ثم يخبرهم أنه لم يرسل رسله لمجرد التبليغ والإعلام ، حتى يقول من يقول : لقد بلغنى وقد علمت ، وصدقت وأقررت .. إنما أرسلهم **ليطاعوا** :

« وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله .. » [٤٨]

ثم يعلمهم ـ بعد بيان أحكامه وأوامره ونواهيه وتوجيهاته التى فرضها على « الذين آمنوا » ـ أن الإيمان ليس بالتمنى ، إنما بالتصديق الواقعى للإيمان فى صورة عمل محسوس :

« **ليس بأمانيّكم** ولا أمانىّ أهل الكتاب . من يعمل سوءا يُجْزَ به ولا يَجدْ له من دون الله وليا ولا نصيرا . **ومن يعمل** من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن **فأولئك** يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » [٤٩] .

---

(٤٧) سورة النساء [٥٩] .

(٤٨) سورة النساء [٦٤] .

(٤٩) سورة النساء [١٢٣ ـ ١٢٤].

وسورة المائدة التى ورد فيها الإعلان باكتمال « الدين » وإتمام النعمة :

« اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا »[٥٠] .

هذه السورة كلها بيان لما أحل الله وما حرم من المطاعم والمشارب والمعاملات والأحكام ، وهى كلها موجهة « للمؤمنين » من أول آية فى السورة :

« **يأيها الذين آمنوا** أوفوا بالعقود .. »

وهى السورة التى نصت نصا صريحا على وجوب التحاكم إلى شريعة الله دون غيرها من الشرائع كافة ، وبينت أن الحكم نوعان اثنان لا ثالث لهما ولا واسطة بينهما :- إما حكم الله وإما حكم الجاهلية :

« أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون »[٥١] .

وأن من لم يحكم بما أنزل الله فحكمهم عند الله أنهم الكافرون الفاسقون الظالمون :

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »[٥٢]

---

(٥٠) سورة المائدة [٣] .

(٥١) سورة المائدة [٥٠] .

(٥٢) سورة المائدة [٤٤] .

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون »[٥٣] .

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون »[٥٤] .

وهكذا بقية السور المدنية على إطلاقها .. كلها خطاب للذين آمنوا ، أى أقروا وصدقوا ، تقول لهم : إن التصديق والإقرار الذى جاءوا به من مكة مهاجرين به فى سبيل الله ـ والهجرة ذاتها « عمل » كلفوا به فنفذوه ـ أو الذى كانوا عليه فى المدينة (إن كانوا من الأنصار) يقتضيهم أن يلتزموا بما جدّ فى المدينة من الأحكام والتكاليف والأوامر والنواهى ، وأن إيمانهم ـ الآن ـ صار مرتبطا بالالتزام بما جاء من عند الله من هذا كله ، وأن هذا الالتزام **هو المحك** لصدق إيمانهم ، وإلا فهو النفاق الذى لا يقبله الله ، ولا يجزى به إلا الخلود فى الدرك الأسفل من النار ..

« ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا » ... « **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك** فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما »[٥٥] .

« ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، **وما أولئك بالمؤمنين** . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا

---

(٥٣) سورة المائدة [٤٥] .

(٥٤) سورة المائدة [٤٧] .

(٥٥) سورة النساء [٦٠ إلى ٦٥] .

فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ! أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا ؟ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟ بل أولئك هم الظالمون . إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا . وأولئك هم المفلحون . ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون »(٥٦) .

« إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا »(٥٧) .

فإذا كان هذا ماجاءت به السور المدنية من مقتضيات لا إله إلا الله ، فقد وضح لنا أنه حين اكتمل الدين .. يوم أنزل الله قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا » كانت لا إله إلا الله منهج حياة كامل ، يشمل الجانب الاعتقادى ، والجانب التعبدى ، والجانب السلوكى العملى . يشمل الاعتقاد بوحدانية الله (أى توحيده فى ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله) وتوجيه الشعائر التعبدية له وحده بلا شريك ، وتحكيم شريعته وحدها دون غيرها من الشرائع ، والتخلق بأخلاق لا إله إلا الله ، إلى جانب التكاليف المتعددة التى كلفهم إياها ..

وإذا كانت السور المكية قد ركزت على الجانب الاعتقادى : الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، والقدر خيره وشره ، وعلى الجانب الأخلاقى كذلك ، وما كان قد فرض فى مكة من الشعائر

---

(٥٦) سورة النور [٤٧ ـ ٥٢] .

(٥٧) سورة النساء [١٤٥] .

التعبدية ، فإن السور المدنية قد ركزت تركيزا شديدا على قضية الحاكمية ،. والالتزام بتحكيم شريعة الله ، واعتبار ذلك هو المحك لصدق الإيمان ، مع التوكيد على الجانب الأخلاقى ، والعبادات الأخرى التى فرضت فى المدينة ..

ولكن من الخطأ البالغ أن نظن أن قضية الحاكمية ، أى تقرير كون الحاكمية لله وحده ، وأن حق التشريع من تحليل وتحريم وإباحة ومنع هو حق خالص لله لا يشاركه فيه البشر ، وأن التشريع بغير ما أنزل الله ــ معه أو من دونه ــ شرك ، وأن إطاعة الذين يشرعون بغير ما أنزل الله شرك ..

من الخطأ الظن بأن هذه القضية ــ بتفصيلاتها تلك ــ قد تقررت فى المدينة حين بدأت التشريعات تتنزل ليقيم المسلمون حياتهم عليها . بل لقد تقررت تقريرا واضحا حاسما فى مكة ، فى أكثر من سورة مكية ، كأصل من أصول الأعتقاد بلا إله إلا الله ، لا بوصفها التزاما سلوكيا فحسب .

خذ على سبيل المثال هذه الآية من سورة الأعراف المكية :

« اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ، ولا تتبعوا من دونه أولياء . قليلا ماتذكرون » [٥٨] .

---

(٥٨) سورة الأعراف [٣] .

فماذا تفيد هذه الآية ؟

إنها تفيد أن الناس فى حالتين اثنتين : إحداهما مأمور بها والأخرى منهى عنها . الأولى هى الإيمان ، والثانية **هى الشرك** .

فالإيمان ملخص فى قوله تعالى : « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم » .

والمقابل ــ أى اتباع غير ما أنزل الله ــ هو اتباع الأولياء ــ أى الشركاء ــ وهو الشرك الصريح .

وخذ هذه الآية أيضا من سورة الأعراف :

« ألا له الخلق والأمر » (٥٩) .

فهى تقرر أمرين فى وقت واحد : أن الأمر لله وحده . بصيغة القصر . الأمر على إطلاقه غير محدد بنطاق معين ولا مجال معين . الأمر فى السماوات والأرض وفى حياة البشر كذلك . فأما فى السماوات والأرض فمستفاد من قوله تعالى قبل هذه العبارة : « إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره » (٦٠) ، وأما فى حياة البشر فمستفاد من قوله تعالى بعدها : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية ، **إنه لا يحب المعتدين . ولا تفسدوا فى الأرض بعد**

---

(٥٩) سورة الأعراف [٥٤].

(٦٠) سورة الأعراف [٥٤] .

إصلاحها »[٦١] أى لا تعتدوا بالخروج على أمر الله . ولا تفسدوا فى الأرض باتباع غير شرع الله ومنهجه بعد إصلاحها بما نزل من عند الله .

أما الأمر الآخر الذى تقرره الآية فهو كون حق الحاكمية فى السماوات والأرض وفى حياة البشر مستمدا من الخالقية ، أى من القدرة على الخلق . فالذى له القدرة على الخلق هو وحده صاحب الأمر . وإذ كان الله وحده ـ سبحانه وتعالى ـ هو المتفرد بالخلق ، فهو وحده كذلك صاحب الأمر ، فى السماوات والأرض وفى حياة البشر سواء .

وخذ هذه الآية من سورة الشورى المكية :

« وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله . ذلكم الله ربى عليه توكلت ، وإليه أنيب »[٦٢] .

فهى تقرر ذات المبدأ ، وهو رد الحاكمية لله فى كل شىء يعرض للناس فى حياتهم . فقوله تعالى : « من شىء » معناها جنس الشىء وعمومه ، أى كل شىء على إطلاقه . وكل شىء على إطلاقه حكمه إلى الله فى كونه حلالا أو حراما أو مباحا أو مكروها أو مندوبا . والآية السابقة لها تقرر ذات المعنى الذى قررته آية الأعراف :

« أم اتخذوا من دونه أولياء ؟ ! فالله هو الولى ، وهو يحيى الموتى ، وهو على كل شىء قدير »[٦٣] .

---

(٦١) سورة الأعراف [٥٥ـ٥٦].

(٦٢) سورة الشورى [١٠].

(٦٣) سورة الشورى [٩] .

فرد الحاكمية فى كل شىء لله هو الإيمان ، وخلاف ذلك هو اتخاذ الأولياء ـ أى الشرك ـ وهو عمل باطل ، لأن الله وحده هو الولى ، وهو الذى يحيى الموتى ، وهو على كل شىء قدير .

كذلك قوله تعالى فى سورة الشورى : « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله ؟ ! »(٦٤) .

ولكن آيات سورة الأنعام ربما كانت أكثر تفصيلا فى القضية :

«أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا ؟ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، فلا تكونن من الممترين . وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم . وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ، إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون . إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين . فكلوا مما ذكر اسم الله عليه **إن كنتم بآياته مؤمنين** . وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه . وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم . إن ربك هو أعلم بالمعتدين . وذروا ظاهر الإثم وباطنه . إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون . ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه . وإنه لفسق . وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم . **وإن أطعتموهم إنكم لمشركون** »(٦٥)

---

(٦٤) سورة الشورى [٢١] .

(٦٥) سورة الأنعام [١١٤ ـ ١٢١] .

وهى تبدأ بهذا السؤال الإنكارى : « أفغير الله أبتغى حكما ؟ ! » الذى يفيد أن الحاكمية لله وحده . هو الذى ينبغى أن يتخذ حكما ، ولا ينبغى لأحد غيره أن يحتكم إليه فى أمر من الأمور . ثم تفيد أن الله قد أنزل الكتاب مفصلا فلم تعد هناك حجة لأحد أن يتخذ حكما غير الله فى أمر من الأمور .. ويلاحظ أن هذه آية مكية فى سورة مكية . وأنه فى مكة لم تكن قد نزلت كل التشريعات التى يحتاج إليها الناس فى حياتهم ، إنما كان ذلك فى المدينة . فالتفصيل الذى تشير إليه الآية ليس هو تفصيل الأحكام ـ أى تفصيل الفروع ـ إنما كان تفصيل القضية الكبرى ـ قضية الحاكمية ـ وأنها من أصل الاعتقاد . وأن الاعتقاد لا يتم ولا يصح إلا إذا كان معناه ومؤداه هو الالتزام ـ من حيث المبدإ ـ بما جاء من عند الله ، كثيرا كان ما جاء من عند الله أم قليلا ، ومختصا بالاعتقاد كان أم مختصا بالأخلاق ، أم مختصا بالأحكام .. (٦٦)

ثم تمضى الآيات فى تقرير أن كلمة الله هى الكلمة الفاصلة ، وهى الصدق والعدل ، وأن من لا يتبعها هم الضالون الذين يتبعون الظن ، ومن ثم لا يهتدون ، وأن الله يعلم من يضل عن سبيله ويعلم من يهتدى إليه .

---

(٦٦) اقرأ فى هذا الموضوع بتفصيل وافٍ مقدمة سورة الأنعام فى ظلال القرآن ج ٧ ص ١٠٠٤ ـ ١٠٢٩ ، وفصل « ألوهية وعبودية » فى كتاب « مقومات التصور الإسلامى » .

ثم تأتى القضية التى تأتى هذه المقدمات كلها توكيدا لها ، وتأصيلا لقاعدتها ، وهى قضية التحليل والتحريم ، ومن الذى يقرر الأمر فيها ، وموقف المؤمنين منها وموقف المشركين ، ومايجعل الإنسان فى شأنها مؤمنا أو يجعله مشركا . ومدارها أن المشركين فى مكة كانوا لا يذكرون اسم الله على الميتة ثم يحلون أكلها ، ويعطون هذا الأمر شرعية من عند أنفسهم بغير إذن من الله وبغير برهان . فينهى الله المؤمنين أن يأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ــ وهو الميتة التى حرمها الله ــ وينذرهم أنهم إن أطاعوا المشركين فهم مشركون مثلهم ، لأنهم يطيعون تشريعا جاهليا ما أنزل الله به من سلطان .

ومن ذلك يتبين أن قضية الحاكمية لم تبدأ فى المدينة بعد نزول التشريع ، إنما بدأت فى مكة فى وقت تأصيل العقيدة وبيان مقتضيات لا إله إلا الله ، وجاءت الأحكام القاطعة بعد ذلك فى المدينة تقرر أنه من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، وأنه لا يعتبر أحد مؤمنا حتى يحتكم إلى الله ورسوله ، تطبيقا وتوكيدا لما تقرر فى مكة وقت تأصيل العقيدة .

* * *

فإذا كان هذا من جانب التكليف الربانى ، فلننظر إلى الجانب التطبيقى فى حياة المؤمنين فى المدينة .. كيف تلقوا الأمر الربانى وكيف نفذوه ..

لم يكن أحد فى ذلك الجيل المتفرد يتلبث حتى يسأل : هل هذه الأوامر الربانية ـ سواء منها ماجاء فى كتاب الله أو فى السنة المطهرة ـ مُلْزِمَة ؟ ! هل هى داخلة فى مسمى الإيمان أم زائدة عليه ؟ هل يكفى التصديق بأنها من عند الله ، أم ينبغى تنفيذها كذلك ؟ ! ! وهل يكون الإنسان مؤمنا إذا لم يعمل بشئ منها على الإطلاق ؟ ! !

لم يكن أحد يصنع ذلك ، سواء كان من المؤمنين الذين شهد لهم الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإيمان ، أم كانوا حتى من المنافقين ، الذين يتظاهرون بالإيمان وهم فى دخيلة أنفسهم كافرون .

فقد كان هؤلاء وهؤلاء يعلمون أن لا إله إلا الله ليست كلمة تنطق باللسان وينتهى الأمر ، وإنما هى كلمة ذات مقتضيات ، **وكانوا يؤدون هذه المقتضيات بالفعل** ، مع فارق أساسى بين المؤمنين والمنافقين ، أن الأولين يؤدونها إيمانا بها ، وطاعة لله الذى أمر بها وأنزلها ، وطمعا فى جنته ورضوانه ، وأما الآخرون فيؤدونها نفاقا بغير إيمان ، ويؤدونها بفتور ظاهر أو خفى ، أو يتحايلون للتفلت منها :

« إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ، ولا يذكرون الله إلا قليلا »[٦٧] .

« وإن منكم لمن ليبطئن ، فإن أصابتكم مصيبة قال : قد أنعم الله

---

(٦٧) سورة النساء [١٤٢] .

عليّ إذ لم أكن معهم شهيدا . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن ــ كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ــ ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما ! »[٦٨] .

ولم يكن أحد من أولئك المنافقين ــ فضلا عن المؤمنين ! ــ يتصور أنه يستطيع أن يحصل على مظهرية الإسلام فى الحياة الدنيا بمجرد نطق لا إله إلا الله ، دون أن يعمل عملا واحدا من مقتضياتها .. ولا كان هذا ــ فى المجتمع المسلم ــ ممكن الحدوث ! !

إن تصور وجود فرد واحد فى المجتمع المسلم ــ أى المجتمع الذى يتحاكم إلى شريعة الله ــ يسمى « مسلما » ويحتفظ بهذا الاسم ــ سواء كان فى حقيقته مؤمنا أو منافقا ــ دون أن يعمل عملا واحدا من أعمال الإسلام .. هو تصور **مستحيل** !

فهناك على أقل تقدير مسألة الصلاة !

لا يستطيع فرد واحد فى المجتمع المسلم ــ أى المجتمع الذى يتحاكم إلى شريعة الله ــ أن يبقى ثلاثة أيام متوالية لا يقيم الصلاة دون أن توقع عليه عقوبة القتل ! ويستوى أن يقتل حدًّا أو يقتل كفرا . فليست العبرة هنا ! إنما العبرة ــ كما قال الإمام ابن تيمية بحق ــ أنه لا يمكن فى الواقع العملى أن يوجد إنسان فى قلبه ذرة واحدة من الإيمان يتعرض للقتل

---

(٦٨) سورة النساء [٧٢ــ٧٣].

بسبب عدم أدائه الصلاة ثم يظل مصرا على عدم الصلاة حتى يقتل بالفعل ! ! مستحيل ! !

وهناك أيضا الإقرار **الواقعى العملى** بحاكمية شريعة الله ، والتحاكم إليها وحدها ، وعدم التحاكم إلى أى شريعة سواها .. وإلا ، فلو أنه خرج عليها ـ فى المجتمع المسلم ـ أو أنكر شيئا منها ، **فهل يظل** « مسلما » ؟ وهل يظل حيا ؟ أم يصبح مرتدا يوقع عليه حد الردة ؟ !

وهكذا يتبين أنه **من المستحيل** ـ فى المجتمع المسلم ـ أن يوجد فرد واحد لا يعمل عملا واحدا من أعمال الإسلام ، ثم يظل يسمى مسلما ويحتفظ بهذا الاسم ، فضلا عن أن تظل له حياة فى ذلك المجتمع ! ! إنما تثار مثل هذه الدعوى الفارغة فى المجتمعات الجاهلية التى تدعى الإسلام ، مستندة إلى الفكر الإرجائى ، الغريب غربة كاملة عن روح هذا الدين ..

* * *

ولننظر الآن فى هذه القضية الخطيرة ـ قضية مقتضيات لا إله إلا الله ـ من ثلاثة منطلقات مختلفة ، تؤدى كلها إلى نتيجة واحدة فى النهاية :

أولا : هل يمكن أن يؤدى هذا الدين أهدافه التى نزل من أجلها إذا كان المطلوب كله هو التصديق والإقرار ، أو إذا كان التصديق والإقرار ـ

وحده ــ يكفى لإعطاء صفة الإسلام ، لا فى الدنيا وحدها ، بل فى الآخرة كذلك ؟ !

ثانيا : هل كان مايفعله رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وصحابته الكرام فى تطبيق مقتضيات لا إله إلا الله ، تطوعا من عند أنفسهم ، غير واجب عليهم ؟ !

ثالثا : هل يمكن فى واقع النفس البشرية أن يؤمن إنسان بشئ ثم يكون سلوكه الواقعى **كله** مغايرا لمقتضيات ذلك الإيمان ، أو مناقضا له ؟ !

* * *

ونبدأ بالمنطلق الأول فنسأل أولا : لماذا يرسل الله الرسل إلى البشرية ، ولماذا ينزل معهم الرسالات ؟

ولا نجيب من عند أنفسنا فى هذا الأمر الخطير ، فإنه لا ينبغى لأحد أن يجيب من عند نفسه فى هذا الأمر ، لأن الله ــ سبحانه وتعالى ــ قد تكفل بهذا فى كتابه المنزل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه :

« وما أرسلنا من رسول إلا **ليطاع** بإذن الله »[٦٩] .

---

(٦٩) سورة النساء [٦٤].

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان **ليقوم الناس بالقسط** . وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب . إن الله قوى عزيز »[٧٠] .

وقبل أن نتحدث عن الرسالة الخاتمة ـ ذات الوضع الخاص والأهداف الخاصة ـ نتدبر هاتين الآيتين اللتين تتحدثان عن الرسالات عامة من لدن آدم ونوح إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

فإحدى الآيتين تقرر أن إرسال الرسل لا يتم من عند الله لمجرد التبليغ والإعلام ، بحيث يسع أى إنسان أرسل إليه رسول أن يقول : لقد بلغنى الأمر وعلمته[٧١] . إنما ينبغى أن يقول : لقد بلغنى الأمر وعلمته **وأطعته** . ليكون بذلك قد استجاب للرسول المرسل إليه ، وحقق الهدف الذى من أجله أرسل .

والآية الأخرى تبين ذلك الهدف وتحدده ، وهو إقامة حياة الناس بالقسط . وهى عبارة موجزة شاملة جامعة تفصلها آيات القرآن الأخرى (والسنة المطهرة كذلك) تفصيلا دقيقا محددا غير متروك لأهواء البشر . ذلك أن تحديد القسط لو ترك لأهواء الناس لفسد كل شئ :

---

(٧٠) سورة الحديد [٢٥] .

(٧١) العلم فى اللغة يفيد اليقين . فهو يشمل « التصديق » الذى يتكلم عنه المرجئة ويقولون إنه هو المعنىّ بالإيمان .

« ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن »[٧٢] .

ومقتضى الآية المشار إليها آنفا إن إرسال الرسل وإنزال الكتاب ليس لمجرد التبليغ والإعلام ، إنما لتحقيق هدف **عملى واقعى** فى حياة الناس هو إقامة شريعة الله ومنهجه ، وإخضاع الناس لهذه الشريعة وذلك المنهج ، لأن هذا هو السبيل الوحيد الذى يؤدى إلى قيام الناس بالقسط . أى أن هناك **عملا** ينبغى أن يتم فى واقع الأرض **بعد التصديق والإقرار** . وبغيره لا يكون الهدف من إرسال الرسل وإنزال الدين قد تحقق ، إنما يظل الدين شعارات مرفوعة بغير رصيد واقعى ، أو أمانىّ فى الضمائر ، لا تقدم ولا تؤخر ، ولا تغير شيئا فى حياة الناس . والإشارة ــ فى الآية ــ إلى الحديد والبأس ، ونصرة الله ورسله ، واضحة الدلالة فى أن من بين الأعمال المطلوبة الجهاد فى سبيل الله لكى « يقوم الناس بالقسط » .

فإذا كان هذا المعنى متحققا فى جميع الرسالات من لدن آدم ونوح إلى محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فالرسالة الأخيرة لها وضع خاص ، وتكاليف خاصة ، غير الرسالات السابقة جميعا ، وبالإضافة إليها جميعا .

يقول ــ سبحانه وتعالى ــ عن الرسالات السابقة وأهلها :

« وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة

---

(٧٢) سورة المؤمنون [٧١] .

ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة » [٧٣] .

فإذا كان هذا الأمر شاملا للرسالات كلها حتى رسالة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فإن الرسالة الأخيرة ــ الخاتمة ــ التى أرسل إليها الرسول الخاتم ــ عليه الصلاة والسلام ــ لها شأن آخر غير بقية الرسالات ، وتكاليف إضافية غير بقية الرسالات .

لقد كان فى قدر الله ومشيئته ألا يرسل رسولا بعد محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ :

« ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين » [٧٤] .

« ألا إنه ليس بعدى نبى » [٧٥] .

وكان فى قدر الله ومشيئته أن يتم الدين بهذه الرسالة الخاتمة ، وأن تكون للبشرية كافة :

« اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا » [٧٦] .

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » [٧٧] .

---

(٧٣) سورة البينة [٥].
(٧٤) سورة الأحزاب [٤].
(٧٥) أخرجه الشيخان .
(٧٦) سورة المائدة [٣] .
(٧٧) سورة سبأ [٢٨] .

« قل : ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا »[78] .

« .. وبعثت إلى الأمم كافة »[79] .

وقد اقتضى ذلك جميعه أن تكلف الأمة الخاتمة ذاتُ الرسالةِ الخاتمة تكليفين اثنين لا تكليفا واحدا كبقية الأمم المؤمنة من قبل .

فإذا كانت الأمم المؤمنة السابقة كلها قد كلفت أن تعبد الله « مخلصين له الدين حنفاء » ، وتستقيم على الدين وتكاليفه **فى حدود ذاتها فحسب** ، فإن الأمة المسلمة قد كلفت هذا التكليف ذاته ، ثم كلفت فوق ذلك أن تنشر هذا الدين فى كل بقاع الأرض ، خلفاء عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وامتدادا له ، وأن تجاهد **حتى يكون الدين كله لله** .

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »[80] .

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله »[81] .

ومقتضى ذلك أن يكون « العمل » المطلوب من هذه الأمة **بعد التصديق والإقرار** أضخم بكثير ، وأخطر بكثير من كل عملٍ طلب من أمة سابقة فى التاريخ .

---

(٧٨) سورة الأعراف [١٥٨] .

(٧٩) أخرجه الشيخان .

(٨٠) سورة آل عمران [١٠٤].

(٨١) سورة الأنفال [٣٩].

وإذا كان التصديق والإقرار وحدهما ، بغير عمل ، لا يفيان بالتكليف الرباني لأى أمة من الأمم السابقة . لأن الله فرض على كل واحدة منها تكاليف ، وأرسل إليها رسولا ليطاع بإذن الله ، لا ليبلغ فحسب ، فهذه الأمة ـ بصفة خاصة ـ لا يمكن أن يفي التصديق والإقرار بالتكليف الرباني الملقى على عاتقها ، وقد كلفت تكليفين فى آن واحد : أن تستقيم لله فى ذات نفسها ، ثم تنشر الهدى الربانى فى كل الأرض ..

وهل كان يتصور ـ لو أن المطلوب كله هو التصديق والإقرار ولا زيادة ـ أن تطهر الكعبة وحدها من أوثان الشرك ، ولا نقول مكة وحدها ، ولا الجزيرة العربية ، فضلا عن بقية العالم الإسلامى الذى امتد إليه النور بجهاد المجاهدين فى سبيل الله .

وهل كان يتصور ـ لو أن المطلوب كله هو التصديق والإقرار ـ أن تقوم للإسلام دولة فى المدينة[٨٢] ، فضلا عن أن تشمل هذه الدولة الجزيرة العربية بأكملها ، فضلا عن أن تمتد ، فتشمل فى نصف قرن ما بين المحيط غربا إلى الهند شرقا كما حدث بالفعل .

وهل كان يتصور ـ لو أن المطلوب كله هو التصديق والإقرار ، أو لو أن المسلمين فهموا أن المطلوب كله هو التصديق والإقرار ـ أن تُثَبَّت

---

(٨٢) لم تقم الدولة فى المدينة إلا بعد الهجرة ، وهى ـ كما أسلفنا القول ـ عمل قام به المسلمون بتكليف من الله ، عمل زائد على التصديق والإقرار .

دعائم الدولة فى المدينة ، واليهود يكيدون لها من داخلها ، ومشركو قريش يكيدون لها من خارجها ، فضلا عن أن تثبّت دعائمها فى الجزيرة بأكملها ، فضلا عن أن تزال إحدى دولتى الشرك العظميين عن آخرها (فارس) وتزلزل الدولة الأخرى (الروم) عن عرشها وسلطانها ويتقلص ظلها فى الأرض .. وفضلا عن أن تكون هذه الدولة ــ فيما بعد ــ هى مركز الدنيا ومحورها ، فيها العلم ، وفيها الحضارة ، ولها القوة والتمكين فى الأرض ؟ !

* * *

من هذا المنطلق الذى أسلفنا الحديث عنه ننتقل إلى المنطلق الثانى ، وقد اقتربنا منه ، فنسأل : هل كان مايفعله رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وصحابته الكرام فى تطبيق مقتضيات لا إله إلا الله ، تطوعا من عند أنفسهم ، غير واجب عليهم ؟

وهنا نقطة قد تختلط على الأذهان ، فيما بين التطوع والتكليف بالنسبة لجيل الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ

وقد بينت فى كتاب « واقعنا المعاصر » أن الذى تفرد به الجيل الفريد لم يكن هو قيامه بالتكاليف الربانية ، فذلك أمر مفروض على كل الأجيال ، ومطلوب من كل الأجيال ، إنما تفرد ذلك الجيل بالدرجة العالية العجيبة التى نفذ بها تلك التكاليف .

فقد فرض الله القتال . أما ذلك الذى خرج من بيته يريد القتال

ومعه تمرات يقتات بها فاستبطأ الطريق إلى الجنة ، فقال : لئن بقيت حتى أنتهى من هذه إنه لأمر يطول ! فألق التمرات من يده وألق بنفسه فى المعركة فاستشهد .. فهذه درجة فذة فى تنفيذ التكليف الربانى ، تفرد بها وبأمثالها ذلك الجيل الفريد . أما القتال فى ذاته ، استجابة للتكليف الربانى ، فأمر مطلوب من الأجيال كافة ، لم يتفرد به ذلك الجيل .

وقد أمر الله أن يشترك المجتمع الإسلامى كله فى الخير العام الذى يفيضه الله على ذلك المجتمع ، وجعل أداة ذلك الزكاة يدفعها الأغنياء من فائض أموالهم (أى مايزيد على النصاب) فتوزعها الدولة على المحتاجين إليها ، الذين بينتهم الآية الكريمة : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل »[83] كما جعل أداتها الإنفاق فى سبيل الله بغير نسب معينة كما هو الحال فى أنصبة الزكاة ، وقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « فى المال حق سوى الزكاة »[84] . ولم يكن هذا الإنفاق فى سبيل الله أمرا تفرد به الجيل الأول ، لأنه تكليف لكل الأجيال . أما الذى خرج من كل ماله .. وأما الذى جاءه الضيف وهو لا يملك إلا قوت عياله فقال لأهله : أطفئ السراج وآوى الأطفال إلى فراشهم ، ثم جعل يتظاهر هو وأهله أنهم يشاركون فى الطعام حتى يأتنس الضيف ويأكل ، حتى أكل بمفرده الطعام الموجود كله ، فأنزل الله فيهم :

---

(٨٣) سورة التوبة [٦٠] .

(٨٤) أخرجه ابن ماجه .

« ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »[٨٥] ، فهذا وذلك تطوع نبيل لم يفرضه الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهو هو الذى تفرد به وبأمثاله الجيل الفريد .

وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الحلال بيّن والحرام بيّن ، وبينهما متشابهات . فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه ، ومن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه »[٨٦] فطلب من المؤمنين أن يتقوا الشبهات ليستبرئوا لدينهم ، وأن يقفوا عند حدود الحلال البين ، ويبتعدوا عما سوى ذلك . وهو تكليف لجميع المسلمين فى جميع العصور . أما الذين قالوا : «كنا نترك تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع فى الحرام » فهذا تطوع نبيل لم يفرضه الله ، وهو الذى تفرد به ذلك الجيل ...

وهكذا نفرق تفريقا حاسما بين أمرين يختلطان أحيانا فى أذهان بعض الناس . بين ماقام به ذلك الجيل الفريد تكليفا من عند الله ، لا يختص بهم وحدهم ، إنما هو للأجيال كافة ، يأثمون إذا تركوه ، وبين ماتطوعوا به من الالتزام بالمندوبات كأنها فروض ، منطلقين فى ذلك من عمق إيمانهم ورسوخه ، وحساسية ضمائرهم المرهفة تجاه ما كلفهم به الله ..

فلننظر الآن فى التكاليف التى قاموا بها لأنها تكاليف ، لا المندوبات التى التزموا بها وفرضوها على أنفسهم كأنها فروض ..

---

(٨٥) سورة الحشر [٩] .

(٨٦) متفق عليه .

هل الالتزام بما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والرجوع إلى الله ورسوله فى كل أمر من الأمور ، كان تطوعا من الجيل الأول لم يكلفوا به ؟

هل صدق الجهاد فى سبيل الله كان تطوعا لم يكلفوا به ؟

هل تحقيق معنى الأمة فى صورته الحقيقية ، بما يشتمل عليه من التكافل بين فئات المجتمع ، والأخوة الصادقة بين المؤمنين ، والتعاون على البر والتقوى ، وحرمة الأموال والدماء والأعراض وصيانتها .. هل كان هذا كله تطوعا لم يكلفوا به ؟

هل كان تحقيق العدل الربانى فى واقع الأرض تطوعا لم يكلفوا به ؟

هل كان التخلق بأخلاقيات لا إله إلا الله تطوعا لم يكلفوا به ؟

هل كان الوفاء بالمواثيق تطوعا لم يكلفوا به ؟[٨٧]

وهل كان فى حسهم أنهم يقومون بهذا كله تطوعًا زائدا على أصل الإيمان ، وأن الإيمان متحقق فى نفوسهم وفى واقع حياتهم بمجرد التصديق والإقرار وإن لم يقوموا بشئ من هذا كله على الإطلاق ؟

---

(٨٧) تلك أبرز سمات الأمة المسلمة التى تحدثنا عنها فى كتاب « واقعنا المعاصر » مضافا إليها الحركة العلمية الإسلامية والحركة الحضارية الإسلامية اللتان جاءتا ـ بطبيعتهما ـ متأخرتين فى الزمن . ولكن بذورهما الأولى وجدت فى أطواء الانطلاقة العظمى التى حققها الجيل الأول .

أم كان يملأ نفوسهم ـ كما تعلموا من كتاب الله ومن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن القيام بهذه التكاليف هو مقتضى الإيمان بأنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .. ثم كانوا ـ فى الأداء ـ يرتفعون إلى تلك القمم السامقة تقربا إلى الله ؟ !

وهل يعقل أن يكون الواقع العملى للإسلام **كله** زيادات على الأصل ، غير داخلة فى ذلك الأصل ؟ !

ماقيمة هذا الدين إذن ؟ ما المهمة التى يؤديها فى حياة الناس ؟ !

وهل ينزل الله الكتب ، ويرسل الرسل ، ويكلفهم بالصبر والمصابرة ، والجهاد المرير ، من أجل تلك الحصيلة السلبية التى تظل مستسرة فى القلوب ، كامنة فى الضمائر ، لا تغيّر شيئا من واقع الناس ، ولا تحق حقا ولا تزهق باطلا ، ولا تقيم معروفا ولا تبطل منكرا ؟ !

وهل لهذا أخرجت تلك الأمة إلى الوجود ؟ !

« كنتم خير أمة أخرجت للناس ، **تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر** . وتؤمنون بالله »[88] .

هل يعقل أن يكون الهدف الرئيسى من إخراج هذه الأمة أمرا زائدا ، بمعنى أن تحققه أو عدم تحققه لا يؤثر على الأصل ؟ !

أم يقولون إن الارتباط بين لا إله إلا الله ومقتضياتها كان خاصا بجيل

---

(٨٨) سورة آل عمران [١١٠] .

الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وأما من أتى بعدهم فلا عليهم من العمل إذا تحقق منهم التصديق والإقرار ؟ !

فهل لهذا القول من سند حقيق من كتابٍ أو سنةٍ أو منطقٍ عاقل ؟ !

هل هناك نص ـ أو منطق ـ يقول : إن جيلا معينا أو أشخاصا بأعيانهم هم الذين ينبغى أن يتقيدوا بمقتضيات لا إله إلا الله ، أما من عداهم فليس عليهم إلا أن يصدقوا بقلوبهم ، وينطقوا بألسنتهم أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فإذا نطقوا بها ـ مصدقين بها ـ فقد تم المطلوب منهم كله ، ولم يعد لأحد أن يطالبهم بعد ذلك بشئ ! فإن هم « تفضلوا » من عند أنفسهم فعملوا بشيء من مقتضيات لا إله إلا الله فلهم الفضل ، وإن لم يفعلوا فلا تثريب عليهم .. فقد حازوا الإيمان ! !

حقيقة إن الجيل الأول قد قام بتحقيق مقتضيات لا إله إلا الله فى ذات نفسه وفى واقع حياته بصورة فذة لم تتكرر فى التاريخ ، بينما الأجيال التالية ظلت تتفلت تدريجيا من تلك المقتضيات خلال القرون الطويلة حتى كادت تنفلت منها جميعا . ولكن ذلك لم يكن بسبب أن الجيل الأول كان بذاته مكلفا تكاليف خاصة غير بقية الأجيال ، ولا بسبب أن الأجيال التالية كانت معفاة من التكاليف التى فرضت على الجيل الأول .

إنما كانت الظروف التى أحاطت بنشأة الجيل الأول هى التى جعلت منه ذلك الجيل المتفرد فى التاريخ . فقد شهد الجاهلية ثم شهد الإسلام ،

فأحس بالنعمة الربانية وقدرها حق قدرها فحرص عليها . وكان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعيش بين ظهرانيهم ، يتلقون منه تلقيا مباشرا ، ويتربون على عينه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيرتفعون إلى أقصى طاقة البشر فى الارتفاع . بالإضافة إلى ماتصنعه النشأة الجديدة فى النفوس من شحذ العزائم والطاقات إلى أقصى درجاتها ، بخلاف الأجيال التى تولد بعد تمام البناء ، كما أن الجيل الذى ينشئ البناء بيديه ، ويتعب فى إقامته ، يكون حريصا عليه ألا يصيبه خدش يفسد جمال رونقه .. (٨٩)

هذه الظروف مجتمعة جعلت ذلك الجيل الفذ يصل فى تطبيق مقتضيات لا إله إلا الله إلى ذلك المرتقى السامق الذى وصل إليه دون بقية الأجيال . أما التكاليف فهى التكاليف .. هى هى كما احتواها كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأما كون القيام بها هو مقتضى الإيمان بلا إله إلا الله ، فحقيقة لا علاقة لها بكون أى جيل من الأجيال هو الأول أو الأوسط أو الأخير ! (٩٠) .

* * *

ونأتى الآن إلى المنطلق الأخير فنسأل : هل يمكن فى واقع النفس البشرية أن يؤمن إنسان بشىء ، ثم يكون سلوكه الواقعى كله مغايرا

---

(٨٩) تعرضت للحديث عن هذه الظروف وأثرها فى تكوين الجيل الأول على صورته الفذة فى كتاب « واقعنا المعاصر » فصل « نظرة إلى الجيل الفريد » .

(٩٠) تحدثت عن هذه النقطة كذلك فى الفصل المشار إليه من كتاب « واقعنا المعاصر » .

لمقتضيات ذلك الإيمان أو مناقضا له ؟ !

هناك حالة واحدة يعرفها المشتغلون بعلاج الأمراض النفسية هى حالة « انفصام الشخصية » يكون للمريض فيها شخصيتان منفصلتان تماما إحداهما عن الأخرى ـ كأنه لا صلة بينهما على الإطلاق ـ إحداهما ـ مثلا ـ خيرة والأخرى شريرة ، يتنقل المريض بينهما فى نوبات عصبية لا سلطان له عليها . وهى حالة مرضية تسقط التكليف عن صاحبها .. ومع ذلك فإن هذه الحالة ذاتها تكتشف من **التصرفات** المصاحبة لها والدالة عليها ! أى من **سلوك عملى** يصاحب الحالة النفسية !

أما الحالة المفترضة ، وهى وجود إنسان فى حالة طبيعية ـ أى فى وعيه وإرادته ـ يؤمن فى دخيلة نفسه بشئ ما ، ثم لايبدو فى مجموع تصرفاته كلها أمر واحد يدل على وجود ذلك الإيمان المستسر فى الضمير (فى غير حالة القهر التى توجب التستر الكامل عن عيون الأعداء المتربصين) **فهى** حالة **مستحيلة** فى واقع النفس البشرية ، لم يتحدث عن مثلها أحد فى التاريخ ! !

إنما الذى يمكن أن يوجد بالفعل هو وجود إيمان بشئ ما ، ووجود **بعض التصرفات** مخالفة لمقتضى ذلك الإيمان. هذه حالة طبيعية.. بل هى الحالة الغالبة على تصرفات البشر ! ولكنها لا تقع اعتباطا بغير أسباب ! وليست خالية من الدلالة كذلك .

أما أسبابها فهى الجنوح الموجود فى النفس البشرية نحو التفلت من التكاليف استجابة لدوافع تعتمل فى باطن النفس. إذ التكاليف ـ كما هو ظاهر ـ قيد على الرغبات ، سواء فى تحديد مقدارها أو تحديد مسارها . ومن ثم تجنح النفس إلى التفلت من تلك التكاليف حين تركن إلى الاستجابة للرغبات دون ضوابط . ولكن يبقى شئ ـ ملحوظ من الدراسات النفسية ـ هو أن « الإيمان » ـ وهو فطرة ، إذ من فطرة النفس البشرية أن تؤمن بشئ ما ـ هو ذاته قيد على الرغبات ، يحدد مقدارها أو يحدد مسارها . ومن ثم لا تنطلق الرغبات مع وجود الإيمان بنفس القدر وفى نفس المسار كما يحدث فى حالة عدم وجود ذلك الإيمان . ويكون التصرف الواقعى للإنسان هو محصلة القوى والضوابط التى تعتمل داخل نفسه . فيكون أكثر استجابة لمقتضيات الإيمان أو أكثر تفلتا منها بحسب مقدار هذه القوى وتلك الضوابط معا فى ذات الوقت . وتختلف أحوال الإنسان الفرد مابين لحظة ولحظة حسب اختلاف المقادير بين هذه وتلك ، ولكن لا تكون حصيلة الإيمان صفرا فى أى حالة من الحالات ، بحيث يصبح وجوده وعدمه سيان ..

تلك طبيعة النفس البشرية .. ولذلك قال العلماء المستبصرون بنور الله إن الإيمان يزيد وينقص .. ينقص بالمعاصى ويزيدبالطاعات ..

والدين قيد لاشك فيه .. سواء على القدر المسموح به من الاستجابة للرغبات ، أو فى تحديد مسارها .

يقول الله سبحانه وتعالى : « تلك حدود الله فلا تعتدوها »[91] « تلك حدود الله فلا تقربوها »[92] فيحدد الحدود التى يستجيب فيها الإنسان لرغائبه التى تعتمل فى كيانه ، والتى تلخصها الآية الكريمة : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا »[93] .

ويقول سبحانه وتعالى : « يأيها الناس كلوا مما فى الأرض **حلالا طيبا** ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين »[94] .

ويقول : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ . ولأمة مؤمنة خير من مشركة **ولو أعجبتكم** .. »[95] .

ويقول : « وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم **محصنين غير مسافحين** .. »[96] .

فيحدد مسار الرغبات كذلك .

والحلال والحرام كله هو القيود التى يضعها الدين فى طريق الشهوات ليحدد مقدارها أو يحدد مسارها .

---

(٩١) سورة البقرة [٢٢٩] .

(٩٢) سورة البقرة [١٨٧] .

(٩٣) سورة آل عمران [١٤] .

(٩٤) سورة البقرة [١٦٨] .

(٩٥) سورة البقرة [٢٢١] .

(٩٦) سورة النساء [٢٤] .

وفضلا عن ذلك فهناك تكاليف أخرى تضع قيودا من نوع آخر فى طريق الشهوات فتحدد مقدارها ومسارها ، كالصلاة والزكاة والصيام والحج ، وأخلاقيات لا إله إلا الله ، وعلى القمة من ذلك كله الجهاد فى سبيل الله .

والشهوات ـ أو « الدوافع » ـ لم يضعها الله فى الكيان البشرى عبثا ، تعالى الله عن العبث . وكذلك القيود لم يضعها الله فى طريق الدوافع لغير غاية ..

فقد علم الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن مهمة الخلافة فى الأرض التى خلق الإنسان من أجلها تحتاج إلى دوافع تدفع الإنسان إلى العمل والحركة والإنتاج من أجل تعمير الأرض ، وهو أحد الأهداف المطلوبة من الإنسان ، والمقدرة له فى مقامه فى الأرض :

« وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة »(٩٧) .

« هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها »(٩٨) .

كما أنها من وسائل « المتاع » الذى قدره الله للإنسان فى الأرض :

« ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين »(٩٩) .

وهى فى الوقت ذاته نقطة الابتلاء التى خلق الإنسان لها :

---

(٩٧) سورة البقرة [٣٠] .
(٩٨) سورة هود [٦١] .
(٩٩) سورة البقرة [٣٦] .

« إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها لنبلوهم ايهم أحسن عملا »[100] .

أما القيود والضوابط فقد علم الله كذلك أنها ضرورية للكيان البشرى ليقوم بمهمة الخلافة **الراشدة** المطلوبة منه . فالاستجابة الكاملة للدوافع ، التى تتعدى بها الحدود المأمونة مهلكة للإنسان ومفسدة له ، وصارفة له عن الرفعة التى قدرها الله للإنسان الصالح ، الذى خلقه الله فى أحسن تقويم ، متميزا تميزا حاسما عن الحيوان ، والتى بها هُيِّئ لحمل الأمانة التى أبت أن تحملها السماوات والأرض والجبال وأشفقت من حملها لأنها لم تهيأ لها ، وحملها الإنسان ..

وتؤدى القيود مهمة مزدوجة فى حياة الإنسان .

تحدد المقدار الذى يستجيب به الإنسان لدوافعه وشهواته ، فتحبس قدرا من الطاقة أن يتبدد كله فى المجال الحسىّ . ثم تحدد مسار هذه الطاقة فترفعها عن المجال الحسّى الخالص إلى مجال « القيم » ، التى ترسم الوجود الأعلى للإنسان ، وهى هى الأمانة التى تميز الإنسان عن الحيوان ..

وهكذا .. بين الدوافع والضوابط يتوازن كيان الإنسان ، ويحقق غاية وجوده وهو فى أحسن تقويم[101] .

---

(١٠٠) سورة الكهف [٧] .

(١٠١) اقرأ فى هذا إن شئت « منهج التربية الإسلامية » الجزء الأول ، و « دراسات فى

ولكنه لا ينضبط تماما فى كل حالة . ولا يستمر على توازنه فى كل حالة :

« ولقد عهدنا إلى آدم من قبل **فنسى ولم نجد له عزما** »[١٠٢] .

«**كل بنى آدم خطاء** . وخير الخطائين التوابون »[١٠٣] .

وهنا تحدث المعصية ..

تحدث بأحد سببين ، أو بهما معا فى وقت واحد .. إما اشتداد ضغط الدوافع على الإنسان ، وإما ضعف الضوابط فى لحظة من اللحظات ، أو باجتماع السببين معا فى وقت واحد : شده الدافع ، وضعف الإرادة الضابطة التى تحدد المقدار والمسار .. وعلى قدر اشتراك العوامل المسبِّبة تكون النتيجة .. فحين يكون الدافع ضعيفا يمكن ضبطه بسهولة . أما حين يكون عنيفا فيتوقف الأمر على مدى قوة الإرادة . فإن كانت قوية فقد تكفى لرد الدافع تماما فلا تحدث المعصية ، أو تحدث خفيفة عابرة مما عبر عنه القرآن باللمم . أما حين تكون ضعيفة فإنها تنهار أمام الضغط ..

والإيمان بالله واليوم الآخر هو أقوى الأدوات المعينة للإنسان على مقاومة ضغط الشهوات . وبمقدار مايكون الإيمان قويا وراسخا تكون

النفس الإنسانية » فصل « الدوافع والضوابط » .

(١٠٢) سورة طه [١١٥] .   (١٠٣) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه والدارمى .

قدرة الإنسان على الانضباط فى داخل الحدود التى رسمها الله ، أى تكون الطاعة لأوامر الله، والقيام بالتكاليف التى فرضها الله. وليس معنى هذا أن يخرج الإنسان من بشريته ويصبح ملكا لا يَعْصِى ! ولكن معناه أن الطاعة والانضباط والقيام بالتكاليف تصبح فى حياته هى الأصل ، وغيرها هو الشذوذ العابر الذى لا يتلبث عنده ولا ينغمس فيه ، فيشمله هذا الوصف الربانى :

« والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين »(١٠٤) .

أما حين يضعف الإيمان بالله واليوم الآخر ـ وبمقدار مايضعف ـ فإن العكس يصبح هو الأصل ، وتصبح الاستقامة على أمر الله هى الحالة العابرة التى ينتكس بعدها إلى المعصية والغىّ والفساد .

وفى جميع الأحوال لا تكون حصيلة الإيمان صفرا ، ولا يكون وجوده وعدمه سواء ، بحيث لا يعمل الإنسان عملا واحدا من أعمال الإسلام ! !

---

(١٠٤) سورة آل عمران [١٣٥ ـ ١٣٦] .

والمعصية ـ بإجماع العلماء ـ لا تخرج الإنسان من الإسلام .. [١٠٥] .

إنما يخرجه من الإسلام استحلال المعصية ـ ولو لم يقترفها ـ والاستحلال عمل [١٠٦] يختلف اختلافا تاما عن الوقوع فى المعصية .

فالوقوع فى المعصية هو لحظة الضعف التى تنتاب الكائن البشرى فينسى ، كما نسى آدم من قبل ، وتخور عزيمته ، فلا يكون الإيمان مذكورا فى حسه ، وإن يكن مازال فى قلبه ، ولعل هذا ما أشار إليه حديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن .. » [١٠٧] ثم يفيق الإنسان من لحظة الضعف فيتذكر ، ويستغفر ، فيغفر الله له .

أما الاستحلال فهو الاستكبار عن عبادة الله والخضوع لأمره ، فكأنما يقول صاحبه بلسان الحال أو بلسان المقال : هذا مايقوله الله ، أما أنا فلى فى الأمر حكم آخر ، كما قال الشيطان وهو يعلن عصيانه لأمر الله ـ عز وجل ـ بالسجود لآدم : « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » [١٠٨] أو قال : « لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال

---

(١٠٥) لم يشذ عن هذا إلا الخوارج ، وهم فرقة خارجة عن الإسلام .

(١٠٦) هو عمل من أعمال القلب يحدث به الكفر .

(١٠٧) أخرجه الشيخان .

(١٠٨) سورة ص [٧٦] .

من حمأ مسنون »[١٠٩] وهذا الذى لا يغفره الله سبحانه لأنه شرك .

« إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء »[١١٠] .

ولكن ماحدود المعصية فى المجتمع المسلم ؟

هل يمكن أن تمتد فتشمل **كل المجتمع** ، ثم تمتد فتشمل **كل عمل** من أعمال الإسلام ؟ !

ويبقى مجتمعا « مسلما » بعد ذلك ؟ ! بمجرد التصديق والإقرار ؟ !

إننا إن أبحنا مبدأ « التصديق والإقرار » بوصفهما هما « الايمان » .. وجعلنا الإيمان متحققا بهما ولو لم يعمل الإنسان عملا واحدا من أعمال الإسلام ، بدعوى أن العمل ليس داخلا فى مسمى الإيمان ، وقررنا ـ بناء على ذلك ـ أن هذا القدر يكفى لإعطاء صفة الإسلام فى الدنيا ودخول الجنة فى الآخرة .. إذا أبحنا ذلك لفرد واحد فهل نملك أن نمنعه عن أى فرد ؟ وعن كل الأفراد إن أرادوا ؟ !

فكيف يكون الحال لو وجد عندنا مجتمع كله « مسلم » « مؤمن » على هذا النحو ؟ !

هل يتحقق فيه شئ مما أراده الله ببعث الرسل وإنزال الكتب ؟

---

(١٠٩) سورة الحجر [٣٣] .

(١١٠) سورة النساء [١١٦].

من باب التذكير نعود إلى الآية التى تحدد الهدف من بعث الرسل وإنزال الكتب :

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان **ليقوم الناس بالقسط** »[111] .

فهل يقوم الناس بالقسط على هذا النحو؟ !

ومن باب التذكير مرة أخرى نعود إلى الآية أو الآيات التى تحدد الهدف من إخراج هذه الأمة بالذات :

«كنتم خير أمة أخرجت للناس ، **تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر** ، وتؤمنون بالله؟ »[112] .

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا **لتكونوا شهداء على الناس** ويكون الرسول عليكم شهيدا »[113] .

« **وجاهدوا فى الله حق جهاده** . هو اجتباكم وماجعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل ، وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم **وتكونوا شهداء على الناس** ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله ، هو مولاكم ، فنعم المولى ، ونعم النصير»[114] .

---

(١١١) سورة الحديد [٢٥].

(١١٢) سورة آل عمران [١١٠].

(١١٣) سورة البقرة [١٤٣].

(١١٤) سورة الحج [٧٨].

فهل يتحقق شئ من هذه الأهداف على هذا النحو؟ !

أليس من مثل هذا الوهم ـ أو هذا السلوك الخاطئ ـ حذرنا الله ـ جل وعلا ـ بذكر حال بنى إسرائيل لكى لا نقع فيه :

« فخلف من بعدهم خَلْفٌ **ورثوا الكتاب** ، يأخذون عرض هذا الأدنى ، ويقولون : **سيغفر لنا !** وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ! ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق؟ ودرسوا مافيه؟ والدار الآخرة خير للذين يتقون ، أفلا تعقلون؟ ! »[115] .

أم إن هذا تكليف يقع على عاتق بنى إسرائيل وحدهم بينما تعفى منه « الأمة المسلمة »؟ !

لدرء هذا الوهم قال حذيفة ـ رضى الله عنه ـ : نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل إن كان لكم كل حلوة ولهم كل مرة[116] ! !

لا جرم أن يصبح « المجتمع » الذى تنتشر فيه هذه الأفكار الفاسدة عن « الإيمان » وعن « مقتضيات لا إله إلا الله » هو الغثاء الذى أخبر عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منذرا محذرا : «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ

---

(١١٥) سورة الأعراف [١٦٩].

(١١٦) رواه الطبرى عن حذيفة من أكثر من طريق . انظر تفسير الطبرى ٢٥٣/٦ الطبعة الثالثة ١٣٨٨ هـ .

يارسول الله؟ قال : أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل » ! [117]

وتتداعى الأمم بالفعل على ذلك الغثاء ، وهو قانع بالتصديق والإقرار ، توهما منه أنه بذلك حائز على الإيمان ! !

أما المجتمع المسلم ــ أى الذى يحكم بشريعة الله ــ فتحدث منه المعاصى ماقدر الله لها أن تحدث ، ولكن يبقى فى جميع الأحوال عملان اثنان على أقل تقدير لا يكف عنهما أى إنسان ليظل يعامل فى المجتمع المسلم على أنه مسلم ، وحسابه على الله ، ولكى ينجو من العقاب الماحق فى الحياة الدنيا ، هما الصلاة والتحاكم إلى شريعة الله ، وهما العملان اللذان ظلا ثلاثة عشر قرنا من بديهيات عمل المسلم فى المجتمع الإسلامى (ولو كان فى دخيلة نفسه كافرا منافقا) رغم كل الانحراف الذى وقع فيه المسلمون خلال الأجيال ، ورغم كل التفلت الذى تفلتوه من تكاليف الإسلام .. ولم يتخل الناس عنهما جهارا نهارا إلا فى القرن الأخير ..

* * *

إذا تبين أنه **من المستحيل** أن يتخلى الإنسان عن **كل** مقتضيات لا إله إلا الله ، ثم يظل مؤمنا بلا إله إلا الله .. مستحيل بالنسبة

---

(١١٧) سبق ذكره .

للأهداف التى من أجلها أرسل الله الرسل وأنزل معهم الكتاب ، ومستحيل بالنسبة لواقع المجتمع المسلم الذى يحكم بشريعة الله ، ومستحيل بالنسبة لواقع النفس البشرية ، فإلى أى شئ استند الذين يقولون: إن التصديق والإقرار هما كل متطلبات الإيمان ، وإن الأعمال ــ إن قام بها الإنسان بعد ذلك ــ فهى رفعة فى الدرجات ، وإن لم يقم بها فلا بأس على إيمانه ، الذى يتحقق كاملا بمجرد التصديق والإقرار ؟ !

لاشك أنها قولة المرجئة ومن لفّ لفّهم .. وأبسط مراجعة لتاريخ الفرق تدلنا على المصدر الذى جاءت منه هذه القولة الغريبة على روح الإسلام . وإن كان الحق أن المرجئة القدامى ــ على كل ما أحدثوه من انحراف فى فهم الإسلام ــ لم يتطرقوا قط ــ ولم يصلوا قط ــ إلى إسقاط الصلاة أو التحاكم إلى شريعة الله كما أسقطها المرجئة المحدثون ، لأنه لم يكن يدور بخلد أحد خلال القرون الثلاثة عشر الأولى أن هناك إنسانا واحدا فى الأرض الإسلامية يمكن أن يسمى مسلما فى الحياة الدنيا ، ويظل على قيد الحياة ، وهو يهمل الصلاة ثلاثة أيام متوالية ، أو يتحاكم إلى غير شريعة الله ..

ولكن المرجئة القدامى ــ مع ذلك ــ هم الذين وضعوا البذور السامة التى التقطها المرجئة المحدثون ، واستنبتوا منها إسلاما جديدا لم يتنزل به كتاب ولم يُرْسَلْ به رسول .. إسلاما بلا تكاليف ! أو قل : إسلام بلا إسلام ! !

إلى أى شئ استند المرجئة ـ القدامى أو المحدثون سواء ـ فى أن كل المطلوب لإثبات الإيمان هو الإقرار اللسانى بالنسبة للحياة الدنيا ، والتصديق والإقرار بالنسبة للحياة الأخرى ؟ !

أول ما استندوا إليه هو المدلول اللغوى للإيمان ، فقالوا : هو التصديق . ثم قالوا : إن عمل الصالحات يرد فى الآيات القرآنية معطوفا على الإيمان : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » والواو تقتضى المغايرة ، وإذن فالإيمان شئ وعمل الصالحات شئ آخر ، ليس من جنسه وليس داخلا فيه .

فأما الاستدلال بالمدلول اللغوى فهو مغالطة مكشوفة !

فالمدلول الاصطلاحى ـ الذى اتخذته ألفاظ معينة فى القرآن كالإيمان ، والصلاة ، والزكاة ـ يدخل فى عموم المعنى اللغوى ، ولكنه يكتسب باستخدام الإسلام له معنى خاصا وصفة خاصة ، لا يصلح أن يحتج فيها بالمعنى اللغوى .

فالصلاة لغةً هى الدعاء . ولكن هل يمكن أن نقول عن الصلاة ـ بمعناها الخاص فى المصطلح الإسلامى ـ إنها مجرد الدعاء ، بحيث يغنى الدعاء ـ فى أية صورة ـ عن الصلاة بركوعها وسجودها ، وما تشتمل عليه من التلاوة ، وما لها من الضوابط من وجوب الطهارة قبلها ، ووجوب أدائها فى أوقاتها .. الخ .. الخ ؟ !

كذلك الإيمان .. هو فى اللغة التصديق . ولكنه ـ بمعناه

الاصطلاحي الإسلامي ـ صورة معينة من التصديق ذات مقتضيات معينة ، من عملٍ قلبيّ كالحب والخشوع والإخبات والخضوع والإذعان ، ووجوب الرجوع إلى الله عند الحكم على أى أمر من الأمور ، أو موقف من المواقف ، أو تصرف من التصرفات ، بأنه حلال أو حرام أو مباح أو مكروه أو مندوب ، وعملٍ بالجوارح يشمل أداء الشعائر التعبدية ، والالتزام بأخلاقيات لا إله إلا الله فى السلوك العملى ، والخضوع العملى لأحكام الشريعة فيما يشجر فى حياة الناس فى كل لحظة من لحظات حياتهم :

« إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم »[119] .

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما »[120] .

« يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم . فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر .. »[121] .

---

(١١٩) سورة الأنفال [٢ـ٤].

(١٢٠) سورة النساء [٦٥].

(١٢١) سورة النساء [٥٩].

« قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس ، هم فيها خالدون »(١٢٢) .

تلك كلها من مقتضيات « التصديق » بمعناه الاصطلاحى الخاص الذى يعبر عنه القرآن بالإيمان ، والتى لا يحتج فيها بالمدلول اللغوى ، كما لا يحتج به فى معنى الصلاة ومعنى الزكاة وغيرها من المصطلحات الإسلامية ، التى حددت الاستعمال اللغوى ، وألحقت به مقتضيات معينة لا يحملها المعنى اللغوى بالضرورة .

وأما الاحتجاج بورود عمل الصالحات فى التعبير القرآنى معطوفا على الإيمان ، والاستدلال من ذلك على أن العمل ليس داخلا فى مسمى الإيمان لأن « الواو » تقتضى المغايرة ، إذ أن الشئ لا يعطف على نفسه .. فهو لا يقل تهافتا ولا مغالطة عن الاحتجاج الأول !

يقول سبحانه وتعالى : « من كان عدوا لله **وملائكته** ورسله **وجبريل وميكال** فإن الله عدو للكافرين »(١٢٣) ومعلوم أن جبريل

---

(١٢٢) سورة المؤمنون [١ـ١١].

(١٢٣) سورة البقرة [٩٨].

وميكال هما من الملائكة المذكورين من قبل ، ولم يمنع ذلك من عطف جبريل وميكال على الملائكة ، لأن عطف الجزء على الكل ، أو عطف الخاص على العام جائز ومعروف فى اللغة التى نزل بها القرآن لمعانٍ بلاغية معروفة .

ويقول سبحانه وتعالى : « الذين يحملون العرش ومن حوله **يسبحون** بحمد ربهم **ويؤمنون** به »(١٢٤) .

فالتسبيح المقدم فى اللفظ ، هو من مقتضيات الإيمان ، أو من الأعمال المقترنة به ، ولم يمنع ذلك من عطف الإيمان عليه ، لأن عطف الكل المؤخر على الجزء المقدم جائز ومعروف فى اللغة لمعانٍ بلاغية .. ولا يقتضى شئ من ذلك المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه ، لا فى المثال الأول ولا المثال الثانى ، بل هما مقترنان اقتران الاحتواء : احتواء أحدهما على الآخر ، أو اقتران العموم بالخصوص .

كما أن الاستدلال بالعطف الوارد فى الآيات القرآنية بين الإيمان وعمل الصالحات على استقلال كل منهما عن الآخر وعدم دخوله فى مسماه ولا فى معناه ساقط من جهة أخرى بالآيات التى ورد فيها ذكر الإيمان **مقترنا** بعمل الصالحات **لا معطوفا** عليه .

« ومن يأته مؤمنا **قد عمل الصالحات** فأولئك لهم الدرجات العلى .

---

(١٢٤) سورة غافر [٧].

جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى »[125] فجملة الحال هنا « قد عمل الصالحات » لا تحتمل إلا أحد معنيين : إما أن يكون عمل الصالحات هو مقتضى الإيمان ومضمونه ، بمعنى أنه من كان مؤمنا فحاله أنه يكون قد عمل الصالحات . وإما أن يكون عمل الصالحات ـ مع الإيمان ـ هما شرط دخول الجنة . وفى الحالين يكون الإيمان وعمل الصالحات مقترنين فى المبدإ أو المصير أو فى كليهما جميعا .

فإن قيل : إن عمل الصالحات شرط للوصول إلى «الدرجات العلى» وحدها لا مجرد دخول الجنة ، وإن دخول الجنة لا يشترط له إلا التصديق والإقرار فحسب ، فالآية الواردة فى سورة النساء تدحض ذلك :

« **ومن يعمل من الصالحات** من ذكر أو أنثى **وهو مؤمن** فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا »[126] .

فهنا تقدم ذكر العمل الصالح وجاء القيد ـ أو الشرط ـ فى جملة الحال « وهو مؤمن » وكان المصير هو دخول الجنة لا درجاتها العليا !

كذلك قوله تعالى : « ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا »[127] .

---

(١٢٥) سورة طه [٧٥-٧٦].

(١٢٦) سورة النساء [١٢٤].

(١٢٧) سورة الكهف [٢] .

فلا يخرج المعنى عن أن يكون أن عمل الصالحات هو شأن المؤمنين ، أو أن يكون عمل الصالحات شرطا مع الإيمان لنيل الأجر الحسن .

والآيات كلها ذات دلالة واضحة تدحض كل ماقاله المرجئة فى شأن انفصال الإيمان عن العمل ، واعتبار الإيمان المقبول عند الله ، المستوجب لدخول الجنة هو التصديق والإقرار فحسب !

* * *

احتج المرجئة كذلك بالمعصية ..

فالمعصية فى عمل الجوارح لا تخرج من الإيمان كما اتفق علماء الإسلام . فلابد إذن أن يكون الإيمان شيئا قائما بذاته ، غير مرتبط بالعمل ، وإلا لزالت صفة الإيمان عمن يرتكب المعصية ولم يعد مؤمنا ..

والاحتجاج بالمعصية على هذه الصورة فيه ـ ككل حججهم ـ مغالطة مكشوفة !

فالمعصية حقا **لا تخرج** من الإيمان . ولكنها بالتأكيد **تؤثر فيه** !

وتأثير المعصية فى حال الإنسان حقيقة لا تحتاج إلى تأكيد ، لأنها ملحوظة مشهودة معهودة . ولكن يكفينا هذا التقرير من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعلم الناس بحقيقة الإيمان ، وحقيقة القلب

البشرى ، وحقيقة مايحدث من أثر المعصية فيه .

« إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت فى قلبه نكتة ، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، وهو الران الذى ذكره الله تعالى : «كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون . كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ثم إنهم لصالوا الجحيم » [(١٢٨)] .

والقلب هو محل الإيمان .. فكيف يستوى القلب الأسود مع القلب الأبيض فى الإيمان ؟ !

إنما يتأثر الإيمان بالطاعة والمعصية فيزيد وينقص ، ولا يتصور بحال أن يكون حاله فى الزيادة كحاله فى النقصان .

ومع ذلك فينبغى ــ كما أشرنا من قبل ــ أن نضع حدودا للمعصية لا تتعداها مهما اتسع نطاقها ، وهى حدود لا نضعها من عند أنفسنا ، إنما هى مستنبطة من كتاب الله وسنة رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ .

فالمعصية غير الاستحلال . والاستحلال يخرج من الإيمان ولو لم يقترف الإنسان العمل المنهى عنه .

والمعصية لا يدخل فيها ماينقض أصل الإيمان . **والتشريع** بغير ما أنزل الله (أى التحليل والتحريم من دون الله) من نواقض الإيمان .

---

(١٢٨) أخرجه مسلم ومالك فى الموطأ .

والمعصية لايمكن أن تشمل **كل** مقتضيات لا إله إلا الله فى الآن الواحد ، أو فى الشخص الواحد . ومن لم يعمل عملا واحدا من أعمال الإسلام فى حياته كلها **يستحيل** أن يكون فى قلبه ذرة من الإيمان ! !

* * *

واحتجوا بأنه لم يكن يطلب من الناس للدخول فى الإسلام إلا النطق بالشهادتين . فمن نطق بالشهادتين اعتبر لتوه مسلما ، وأجريت عليه الأحكام الظاهرة فى الحياة الدنيا ، وحسابه على الله فى الآخرة .

وتلك من أكبر مزالق الفهم فى شأن مقتضيات لا إله إلا الله ! لأنها فى ذاتها حقيقة ، ولكن دلالتها ليست على النحو الذى يذهبون إليه .. وإليك الدليل !

حقيقة إنه من كان يجيء إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله (أو ما فى معناها) كان يعتبر لتوه مسلما ، ويدخل فى عداد المجتمع المسلم ، **ولو قالها نفاقا** .

ولكن الاستدلال بهذا على أن نطق لا إله إلا الله باللسان ـ **وحده** ـ هو الذى أعطى صفة الإسلام فى الحياة الدنيا ، وأنه لا يُطْلَبُ من الإنسان غيره ليصبح مسلما فى الحياة الدنيا وحسابه على الله فى الآخرة هو استدلال مردود !

والذى يحسم فى هذا الأمر هو الردة ..

فالمرتد الذى مايزال ينطق بلسانه : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ولكنه أنكر شيئا من مقتضيات لا إله إلا الله ، فأنكر الصلاة أو الصيام أو الزكاة أو الحج ، أو تحاكم مريدا راضيا إلى غير شريعة الله ، عقوبته فى الحياة الدنيا هى القتل ، وعقوبته فى الآخرة الخلود فى النار (ما لم يتب) ..

فهل يتصور من عدل الله سبحانه ، أن يأمر بقتل إنسان فى الحياة الدنيا ، وأن يدخله النار خالدا فيها فى الآخرة على أمر لم يطلبه منه ولم يلزمه به ولم يُعْلِمْهُ به ؟ !

إذا أخذنا ظاهر الحال ـ الذى يستدل به المرجئة ومن لفّ لفّهم ـ فإنه لم يُطْلَبْ من ذلك الإنسان إلا أن يقول بلسانه لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ولكن لا تستقيم عقوبة المرتد فى الدنيا والآخرة وهو مايزال ينطق بلسانه لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ولا يستقيم تصور عدل الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى الدنيا والآخرة ، إلا أن يكون هذا النطق باللسان **قد تضمن مقتضى معينا** ، علمه الناطق ، وعلم أنه مُلْزَمٌ به ، فلما نكل عنه ـ مع أنه مايزال ينطق الألفاظ بلسانه ـ حكم عليه بالقتل فى الحياة الدنيا ، والخلود فى النار فى الآخرة .

هل يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ؟

أعنى هل يمكن أن يكون كل المطلوب هو أن ينطق بلسانه أنه لا إله

إلا الله وأن محمدا رسول الله ، بغير مقتضىً متضمنٍ فى هذا النطق ، وملزمٍ للناطق به ، ثم يعاقب هذا العقاب الشديد ، وهو مايزال قائما بما طلب منه ؟ !

كلا ! لا يستقيم الأمر إلا على أساس واحد .. هو أنه حين طلب منه أن يقول بلسانه : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، قد طلب منه ضمنا أن يلتزم بمقتضى الشهادتين ، وهو الالتزام بما جاء من عند الله ، والتحاكم إلى شريعة الله .

فإذا قال قائل : لو كان هذا الالتزام مطلوبا لاكتساب صفة الإسلام لنص عليه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ نصا ، كما نص على ضرورة النطق بلا إله إلا الله .. ولكنا لا نجد شواهد على ذلك ..

فنقول : صحيح أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم ينص على هذا الأمر . فلم يقل لمن جاءه يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله : وتتعهد أيضا أن تقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ، وتتعهد كذلك بالتحاكم إلى شريعة الله وعدم التحاكم إلى شرائع الجاهلية (وهذا كله هو المقتضى المرتبط بلا إله إلا الله) .

بل قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإن قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم

وأعراضهم ، إلا بحقها »[129] .

نعم ، لم ينص ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلا على النطق ، ولم ينص على المقتضى المتضمن فى النطق إلا فى مرحلة التعليم . فقد قال لمعاذ ـ رضى الله عنه ـ وهو يبعثه إلى أهل اليمن :

« إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ماتدعوهم إليه عبادة الله ـ عز وجل ـ فإذاهم عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات فى يومهم وليلتهم ، فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ... »[130] .

فلما تم التعليم أصبح هذا الأمر « من المعلوم من الدين بالضرورة » كما يقول علماء هذا الدين . أى أصبح من المعلوم عند من ينطق بلا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله أنه مطلوب منه إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا . وأصبح من المعلوم عنده أن الله قد أنزل أحكاما وفرضها على من يعتنق هذا الدين ، وأن هذه الأحكام هى التى يجرى العمل بها فى المجتمع الإسلامى وماسواها باطل . **وبناء على هذا العلم** ، أصبح من نكل عن مقتضى لا إله إلا الله يعاقب هذا العقاب الشديد فى الدنيا والآخرة . « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته »[131] .

---

(١٢٩) متفق عليه .
(١٣٠) أخرجه مسلم .
(١٣١) سورة الأنعام [١١٥] .

وهناك أمر آخر مستمد من **واقع** المجتمع الإسلامى له نفس القوة فى شأن الالتزام بمقتضيات لا إله إلا الله . فقد كان للإسلام منذ وجد المجتمع الإسلامى كيان قائم بالفعل ، له صورة واقعة ، معلومة وذائعة ، لا مفترضة افتراضا ولا متخيلة خيالا . **فمعلوم سلفا** عند كل من جاء يقول لا إله إلا الله أن « المسلم » يصلى صلوات معينة فى اليوم والليلة ، ويصوم صياما معينا كل سنة ، ويؤدى زكاة أمواله ، ويحج إلى بيت الله الحرام إن استطاع ، ويتقيد بأحكام معينة منزلة من عند الله حدد فيها للمسلمين الحلال والحرام . ومعلوم عنده سلفا أن المسلم **ملتزم** بهذا كله ، وأن هذا هو مقتضى كونه مسلما . وأنه إن نكل عن شئ من ذلك فهو مرتد يوقع عليه حد الردة . فلا يعقل أن يجىء لينطق بالشهادتين وهو يعتزم فى دخيلة نفسه أن يعرض نفسه للقتل من قبل سلطان الشريعة القائم فى الأرض بالفعل ! إنما المنطق والمعقول ، أن يكون ـ وقد جاء ينطق بالشهادتين ـ قد اعتزم الالتزام بسلطان الشريعة القائم وعدم الخروج عليه .

ولا ينفى هذا بطبيعة الحال أن يكون جاهلا بكثير من الأحكام الفرعية . فكثير منها لا يعلمه إلا المتفقهون فى أمر الدين ولكن **الذى لا يمكن أن يجهله** هو **مبدأ الالتزام** بما جاء من عند الله ، وأن هذا الالتزام ـ على الجملة ـ هو مقتضى نطقه بلا إله إلا الله .

من أجل هذا كان يطلب ممن جاء يدخل فى الإسلام أن ينطق بالشهادتين ، ولا يطلب منه أن يقر بالصلاة والصيام والزكاة والحج ،

ويقر بالالتزام بأحكام شرع الله ، لأن هذا كله صار « من المعلوم من الدين بالضرورة » بعد أن انتهت فترة التعليم فى مبدإ الإسلام . وأصبح الذى ينطق بلسانه « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ثم ينكل عن شئ من مقتضياتها يوقع عليه حد الردة فى الحياة الدنيا ، ويخلد فى النار فى الآخرة ، بالتزام واضح لا لبس فيه .

ولم يكن هذا الالتزام بمقتضيات لا إله إلا الله فى المجتمع المسلم شأن المؤمن بهذا الدين وحده كما يتوهم بعض الناس ، بل هو شأن **كل إنسان** ينطق بلا إله إلا الله ولو كان كافرا منافقا ممن هم فى الدرك الأسفل من النار ! فإن المنافق ـ الذى قد يُعرف فى لحن القول وقد يعرف من فتوره فى أداء الصلاة أو غير ذلك من العلامات ـ لا يحتفظ بحياته فى المجتمع المسلم ، ولا تجرى عليه أحكام الإسلام ، إلا بنطقه بلا إله إلا الله ، والتزامه بالتحاكم إلى شريعة الله ، والتزامه ـ على أقل تقدير ـ بإقامة الصلاة .

إنما يفترق المؤمن عن المنافق لا بالالتزام بأحكام الله وأداء الصلاة (على أقل تقدير) فهذا هو الحد الذى يستوى فيه الناس جميعا ليحصلوا على صفة الإسلام فى المجتمع المسلم ، وليحافظوا على هذه الصفة ، وليحافظوا على أنفسهم من توقيع حد الردة عليهم .. إنما الفارق أن المؤمن يصنع ذلك كله إيمانا وتصديقا وطاعة وقربى إلى الله بينما يفعل المنافق ذلك كله نفاقا ، وحرصا على الحياة !

أى أن **مظهرية الإسلام** ذاتها فى المجتمع المسلم - أى الذى يتحاكم إلى شريعة الله - لا تنال إلا بنطق الشهادتين والالتزام بمقتضاهما ، وأداء الصلاة على أقل تقدير . وهى الأمور التى ظل الناس متعارفين عليها ، وملتزمين بها - مؤمنهم ومنافقهم سواء - طيلة ثلاثة عشر قرنا من تاريخ الإسلام !

* * *

يحتجون كذلك بحادثة أسامة بن زيد حين قتل رجلا قال لا إله إلا الله بعد أن علاه أسامة بالسيف ، وأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غضب منه غضبا شديدا وعاتبه عتابا قاسيا ، وظل يكرر عليه : قتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟ ! ولم يقبل منه اعتذاره بأن الرجل قالها متعوذا (أى من السيف) ، يعنى لم يكن مؤمنا بها . وقال له : هلا شققت عن قلبه فتعلم إن كان قالها .

والحجة فى هذه الحادثة لا توصل إلى ما يستدلون به .

إن لا إله إلا الله ترفع السيف قطعا . أى تمنع قتل من نطق بها . ولكن هل تعطيه صفة الإسلام ؟ ! هنا موضع اللبس فى الاستدلال بحادثة أسامة .

فحكم الله فى القضية أنه من قال لا إله إلا الله **ولو كان متعوذا** لا يجوز قتله . ولكن إذا لم يلتزم بأحكام الإسلام **فهل** يظل يعامل على أنه مسلم ؟ !

يعني جاء وقت أول صلاة بعد قوله لا إله إلا الله فلم يَقُمْ للصلاة ، وأبى ، فما حكمه ؟ حكمه أنه مرتد يوقع عليه حد الردة !

فنطق لا إله إلا الله قد رفع عنه السيف ، نعم ، ولكنه وضعه موضع المراقبة للتبين . فإن تبين أنه التزم بمقتضيات لا إله إلا الله ـ ولو كان منافقا ـ فهو مسلم فى الحياة الدنيا وحسابه على الله فى الآخرة ، وإلا احتسبت عليه قولته ، ووقع عليه حد الردة لنكوله عن مقتضيات لا إله إلا الله التى نطقها بلسانه !

وفى جميع الأحوال يكون **ثبات صفة الإسلام** لأى إنسان فى الحياة الدنيا موكولا بالالتزام بمقتضيات لا إله إلا الله بعد نطقه بالشهادتين ، سواء كان مؤمنا حقا أم كان من المنافقين .

ثم تحدث المعاصى فى المجتمع المسلم ، وتمتد وتمتد ، ولكنها تقف عن نقطتين أساسيتين لا تتعداهما بحال : التحاكم إلى شريعة الله ، وإقامة الصلاة .

* * *

ويحتجون بحادثة الجارية التى سألها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أين الله ؟ فأشارت إلى السماء ، فسألها : من أنا ؟ قالت رسول الله . فقال لسيدها : «أعتقها فإنها مؤمنة» . ويقولون : لو كان المطلوب لإثبات الإيمان شيئا آخر وراء النطق بالشهادتين ما أعطى

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صفة الإيمان بمجرد النطق (أو مايدل عليه) .

وتلك من أكبر القضايا التى أثارها المرجئة ـ قدماؤهم ومحدثوهم ـ ليثبتوا أن كل المطلوب فى الحياة الدنيا هو النطق بالشهادتين ، وكل المطلوب للآخرة هو الإقرار والتصديق .

ومن قديم رد العلماء عليهم استدلالهم ورفضوه ..

وسواء أخذنا بقول الإمام الشاطبى ـ رحمه الله ـ أن قضايا الأعيان لا تنقض النص ، لأن النص أقوى دلالة منها وأوثق ، أى أنها صحيحة فى ذاتها ولكن لا يقاس عليها[١٣٢] ..

---

(١٣٢) يقول الإمام الشاطبى : (الموافقات جـ٣ ص ١٦٥ ـ ١٦٦ ، مطبعة محمد على صبيح ، القاهرة)

إذا ثبتت قاعدة عامة أو مطلقة فلا تؤثر فيها معارضة قضايا الأعيان ولا حكايات الأحوال . والدليل على ذلك أمور :

أحدها : أن القاعدة مقطوع بها بالفرض ، لأنا إنما نتكلم فى الأصول الكلية القطعية ، وقضايا الأعيان مظنونة أو متوهمة ، والمظنون لا يقف للقطعى ولا يعارضه .

والثانى : أن القاعدة غير محتملة (أى لا تحتمل وجها آخر) لاستنادها إلى الأدلة القطعية ، وقضايا الأعيان محتملة ، لإمكان أن تكون على غير ظاهرها ، أو على ظاهرها وهى مقتطعة مستثناة من ذلك الأصل ، فلا يمكن والحالة هذه إبطال كلية القاعدة بما هذا شأنه .

والثالث : أن قضايا الأعيان جزئية ، والقواعد المطردة كليات ، ولا تنهض الجزئيات أن تنقض الكليات ...

أو أخذنا بقول الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أن نطق الشهادتين كافٍ لإجراء الأحكام فى الحياة الدنيا ـ والعتق من بينها ـ ولكنه ليس دليلا على الإيمان(١٣٣) ..

سواء أخذنا بهذا القول أو ذاك ، فالقضية الأصلية ما تزال

---

(١٣٣) يقول الإمام ابن تيمية : (الفتاوى ـ كتاب الإيمان ـ الجزء السابع) مقتطفات من ص ٢٠٩ ـ ص ٢١٥ ، طبع مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٣٩٨ هـ قلت : وأما احتجاجهم بقوله للأمة : «أعتقها فإنها مؤمنة» فهو من حججهم المشهورة ، وبه احتج ابن كلاّب ، وكان يقول : الإيمان هو التصديق والقول جميعا ، فكان قوله أقرب من قول جهم وأتباعه . وهذا لا حجة فيه ، لأن الإيمان الظاهر الذى تجرى عليه الأحكام فى الدنيا لا يستلزم الإيمان فى الباطن الذى يكون صاحبه من أهل السعادة فى الآخرين . فإن المنافقين الذين قالوا : (آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين) هم فى الظاهر مؤمنون **يصلون مع الناس ويصومون ويحجون ويغزون** ، والمسلمون يناكحونهم ويوارثونهم كما كان المنافقون على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ... والله تعالى لما أمر فى الكفارة بعتق رقبة مؤمنة ، لم يكن على الناس ألا يعتقوا إلا من يعلموا أن الإيمان فى قلبه ، فإن هذا كما لو قيل لهم : اقتلوا إلا من علمتم أن الإيمان فى قلبه . وهم لم يؤمروا أن ينقبوا عن قلوب الناس ولا يشقوا بطونهم ، فإذا رأوا رجلا يظهر الإيمان جاز لهم عتقه . وصاحب الجارية لما سأل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هل هى مؤمنة؟ إنما أراد الإيمان الظاهر الذى يفرق به بين المسلم والكافر . وكذلك من عليه نذر لم يلزمه أن يعتق إلا من علم أن الإيمان فى قلبه ، فإنه لا يعلم ذلك مطلقا ، بل ولا أحد من الخلق يعلم ذلك مطلقا ... والمقصود أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما أخبر عن تلك الأمة بالإيمان الظاهر الذى علقت به الأحكام الظاهرة ...

واحدة . فالذى ينطق بلا إله إلا الله يفترض فيه أنه ملتزم بمقتضيات لا إله إلا الله ، ولا يفترض فيه ابتداء غير ذلك ، لأن هذا الالتزام هو من المعلوم من الدين بالضرورة ، وبهذا الالتزام المفترض يأخذ صفة الإسلام ، أى بالمقتضى المتضمن فى النطق لا بالنطق وحده . فإن نكل عن المقتضى وإن كان مايزال مستمرا فى النطق فهو مرتد عن الإسلام ، لا ينجيه من توقيع حد الردة عليه فى المجتمع المسلم أن يقول : لم أكن أعلم ! ولم يحدث مرة واحدة فى تاريخ الإسلام خلال الثلاثة عشر قرنا التى كانت تطبق فيها شريعة الإسلام أن أحدا من الناس قال : لم أكن أعلم أن للإسلام مقتضيات ! ! وإن جهل أحكام الفروع كلها واحتاج إلى السؤال عنها ليتعلمها ! !

* * *

ويحتجون أخيرا بأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة » أو مافى هذه المعانى .

وليس من الضرورى أن نقول فى شأن هذه الأحاديث إنها قيلت فى مكة قبل نزول التكاليف وإنها نسخت فى المدينة بعد نزولها كما يقول بعض العلماء .

يقول الحافظ المنذرى : « ذهبت طوائف من أساطين أهل العلم إلى أن مثل هذه الإطلاقات التى وردت فيمن قال لا إله إلا الله دخل الجنة

أو حرّم على النار أو نحو ذلك كان فى ابتداء الإسلام حين كانت الدعوة إلى مجرد الإقرار بالتوحيد ، فلما فرضت الفرائض وحدّت الحدود نسخ ذلك ، والدلائل على هذا كثيرة متظاهرة ، وإلى هذا القول ذهب الضحاك والزهرى وسفيان الثورى وغيرهم . وقالت طائفة أخرى : لا احتياج إلى ادعاء النسخ فى ذلك ، فإن كل ماهو من أركان الدين وفرائض الإسلام هو من لوازم الإقرار بالشهادتين وتماته . فإذا أقر ثم امتنع عن شئ من الفرائض جحدا أو تهاونا على تفصيل الخلاف فيه ، حكمنا عليه بالكفر وعدم دخول الجنة »(١٣٤) .

ويقول ابن القيم : « وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله وأن الله رب كل شئ ومليكه كما كان عباد الأصنام يقرون بذلك وهم مشركون . بل التوحيد يتضمن من محبة الله والخضوع له والذلة له وكمال الانقياد لطاعته وإخلاص العبادة له وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال والمنع والعطاء والحب والبغض مايحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصى والإصرار عليها . ومن عرف هذا عرف قول النبى – صلى الله عليه وسلم – : « إن الله حرّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله» وقوله : «لايدخل النار من قال لا إله إلا الله » وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث التى أشكلت على كثير من الناس حتى ظنها بعضهم منسوخة ، وظنها بعضهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهى واستقرار الشرع ، وحملها

---

(١٣٤) الترغيب والترهيب ٢٢٠/٣ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

بعضهم على نار المشركين والكفار ، وأوّل بعضهم الدخول بالخلود فقال : المعنى لا يدخلها خالدا ، ونحو ذلك من التأويلات المستكرهة . والشارع ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ لم يجعل ذلك حاصلا لمجرد قول اللسان فقط ، فإن هذا خلاف المعلوم من دين الإسلام . فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم وهم تحت الجاحدين لها ، فى الدرك الأسفل من النار .. فلابد من قول القلب وقول اللسان . وقول القلب يتضمن من معرفتها والتصديق بها ومعرفة حقيقة ماتضمنته من النفى والإثبات ، ومعرفة حقيقة الإلهية المنفية عن غير الله ، المختصة به ، التى يستحيل ثبوتها لغيره ، وقيام هذا المعنى بالقلب علما ومعرفة ويقينا وحالا مايوجب تحريم قائلها على النار ... وتأمل قيام ماقام فى قلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التى لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية وحملته وهو فى تلك الحال على أن جعل ينتقل بصدره ويعالج سكرات الموت ، فهذا أمر آخر وإيمان آخر ، ولا جرم أنه ألحق بالقرية الصالحة وجعل بين أهلها ... »[١٣٥]

ونقول بعد ذلك : إنه لا حرج على فضل الله . فإن شاء ــ سبحانه وتعالى ــ أن يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه مثقال ذرة من خير .. أو إن أخرج ــ بفضله ــ من النار قوما لم يفعلوا خيرا قط .. فهذا شأنه سبحانه ، وهذا فضله ، وتلك رحمته ..

---

(١٣٥) مدارج السالكين ج ١ ص ٣٣٠ ــ ٣٣٢ طبعة دار الكتاب العربى ١٣٩٢ هـ .

ولكن يبقى بعد ذلك أمر ينبغي النظر فيه ..

فهذا المصير الذى يصير إليه فئة من الناس ـ بعد أن يذوقوا العذاب على معاصيهم وآثامهم ، وبعد أن يقضى الله فى حق العباد ، فيدخل الجنة ـ بفضله ـ من يستحقها من العاملين بمقتضيات لا إله إلا الله ، وبعد أن يشفع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمن يشفع من عباد الله .. هذا المصير الذى يصير إليه هؤلاء ، فينجون ـ بفضل الله ورحمته ـ من الخلود فى النار بعد أن يمكثوا فيها ماشاء الله لهم أن يمكثوا .. هل ينبغى أن يكون هو غاية السعى التى يسعى الإنسان إليها ، ويحدد جهده من أول لحظة على مقاسه ؟ !

نضرب مثلا للتقريب .. ولله المثل الأعلى .

تشكل لجان فى الاختبارات تسمى « لجان الرأفة » تنظر فى شأن الراسبين فى الاختبار ، فتحاول أن تستنقذ من الرسوب من تجد مسوغا لاستنقاذه . ثم تظل تراجع وتراجع حتى تنتهى فى النهاية إلى التعطف على من تجد أدنى مبرر لإخراجه من قائمة الرسوب .

فلو أن الطلاب قالوا لأنفسهم من مبدإ الطريق : هناك لجان الرأفة سترأف بحالنا وتمنحنا النجاح على أدنى جهد نقوم به ، بل إنها قد تمنحه لقوم لم يبذلوا جهدا على الإطلاق .. فهل يكون لعملية التعليم كلها قيمة ؟ وهل تؤدى أى هدف من أهدافها ؟ وهل يكون للاختبار ذاته أى مهمة يؤديها ؟ ؟ !

إنما تبقى هذه اللجان تقوم بعملها ، فتستنقذ فريقا من الضعفاء حقا ، الذين حاولوا ـ بصدق ـ ولكن لم يحصلوا ، فتكافئهم على صدق النية وصدق المحاولة رغم ضعف الحصيلة . ولكنها حين تجد الأقوياء القادرين ـ الذين تعرف منهم قوتهم وقدرتهم ـ قد تواكلوا ، وبددوا فى اللهو والعبث طاقتهم التى كان يمكن أن يصرفوها فى التحصيل والدرس ، استهانة منهم بالتبعة ، واستخفافا بالاختبار ، واعتمادا على أن لجان الرأفة ستنجحهم مهما تكن نتيجة عملهم .. فهل تقوم لجان الرأفة عندئذ بإنقاذهم ؟ !

مرة أخرى نقول : لا حرج على فضل الله .. وسعت رحمته كل شىء سبحانه .. ندعوه أن يغفر لنا ذنوبنا ويكفر عنا سيئاتنا ، ويرحم ضعفنا ، ويقيل عثرتنا ، ويسدد خطانا .

ولكنا نحسب أن حديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد قصد به ألا ييأس أحد من رحمة الله ، ولم يقصد به أن يفصّل منه المرجئة إسلاما بلا تكاليف ، ثم يزعموا أن هذا ما أراده الله بهذا الدين ! ودليلنا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما سأله معاذ ـ رضى الله عنه ـ : يارسول الله أفلا أبشر الناس ؟ قال : « لا تبشرهم فيتكلوا » [١٣٦] .

ثم إنه إن سامح الله أولئك المذنبين فى الآخرة بعد أن يذوقوا

(١٣٦) رواه الشيخان .

العذاب على ما اقترفوا من الذنوب ، فلم يخلدهم فى النار ، إنما شملهم برحمته الواسعة فأنقذهم من الخلود فيها وأدخلهم الجنة .. فهل يصلح أمر هذا الدين فى الحياة الدنيا حين يصبح أهله ـ كلهم أو غالبيتهم ـ من الساقطين الذين يتهافتون فى النار ، حتى تنقذهم رحمة ربهم من الخلود فيها ؟ !

إن الواقع الذى نعيشه اليوم خير شاهد فى هذه القضية . فالذل والهوان والضعف ، وغلبة الأعداء الذين لا يرقبون فى المسلمين إلاًّ ولا ذمة ، وعدوانهم المستمر على كراماتهم ودمائهم وأعراضهم وأموالهم ، هو الحال حين يكون الناس غثاء كغثاء السيل .. وهم لا يكونون كذلك إلا حين يكون إسلامهم هو إسلام التصديق والإقرار ، بلا عمل يعمل من مقتضيات التصديق والإقرار .. فهل يقبل الله من عباده أن يضيعوا دينه ، وينكلوا عن المهمة التى أخرجهم من أجلها ، ثم يكون هذا هو الأصل الذى يفصِّل الدين كله على مقاسه ؟ !

إن المجتمع القوى الإيمان ، الراسخ القدم فى العمل بمقتضيات لا إله إلا الله ، يستطيع أن يحمل فى تياره ضعاف الإيمان ، والكسالى والمتباطئين والمتثاقلين ، ويمضى فى طريقه يحقق أهدافه . ولكن حين يصبح كله ـ أو حتى غالبيته ـ من ضعاف الإيمان والكسالى والمتباطئين والمتثاقلين ، فهل يقدر على شئ ، وهل يصل إلى شئ ؟ !

تستطيع الشجرة القوية أن تحمل بعض الأوراق الذابلة المصفرة ، بل بعض الأغصان المتهاوية كذلك ، ثم تؤتى ثمارها لا تضيرها تلك الوريقات ولا الأغصان . ولكن حين تطالب كل ورقة فى الشجرة بحقها فى أن تكون ذابلة مصفرة ، وأن يحتسب لها مع ذلك حقها فى الوجود على هذه الصورة مادامت لم تسقط من الشجرة بعد ، فهل لهذه الشجرة من مصير إلا الفناء والموت ؟ !

فإذا كان الله ـ من رحمته بعباده ـ يتقبل أولئك الضعفاء ، بعد أن يطهرهم من أرجاسهم بالمكوث فى نار جهنم ماشاء الله أن يمكثوا ، فهل يجوز لنا أن نقول : إن هذا هو المطلوب من المؤمنين ولا زيادة ، ومن قال إنهم مكلفون بأكثر من ذلك فهو متزيد على دين الله ؟ !

مرة ثالثة نقول : لا حرج على فضل الله ، يدخل فى رحمته من يشاء . ولكن الله هو الذى أنزل هذه التكاليف وفرضها على المؤمنين . وهو الذى قال : إن دخول الجنة لا يكون بالتمنى مع القعود :

« ليس بأمانيكم ولا أمانىّ أهل الكتاب . من يعمل سوءا يُجزَ به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا »[١٣٧] .

---

(١٣٧) سورة النساء [١٢٣ ـ ١٢٤] .

ثم يتفضل الله من بعد ذلك على من يشاء من عباده بغير حدود !

* * *

على أن أهم مايهمنا فى شأن هذه الأحاديث هو ماوصّلها إليه المرجئة المحدثون !

لقد كان المرجئة القدامى على كلِّ ماحرفوا فى مفهوم لا إله إلا الله ، قد وقفوا ـ كما أسلفنا ـ عند نقطتين اثنتين ، لا يتجاوزونهما فى كل مايخرجونه من « العمل » من مقتضى الإيمان : الصلاة والتحاكم إلى شريعة الله ، وإن كانوا ـ نظريا ـ يقولون : إن العمل كله خارج من مقتضى الإيمان ، إلا أنهم حين يتكلمون فى الفقه ـ وكثير منهم كانوا فقهاء ـ يعرفون جيدا أن هناك أعمالا لابد أن يحافظ عليها الإنسان لكى تظل له صفة الإسلام فى المجتمع المسلم ، أهمها الصلاة والتحاكم إلى شريعة الله .

أما المرجئة المحدثون فلم يقفوا عند حد ..

لقد ولدوا فى مجتمع لا يحكم بشريعة الله .. وفى مجتمع لا تؤدى فيه الصلاة (ولا غيرها من العبادات) ، ثم تناولوا الجرعة المسمومة من الفكر الإرجائى ، فمدوا فكرهم حتى شملوا به كل شىء من مقتضيات لا إله إلا الله ، فقالوا : من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن ولو لم يعمل عملا واحدا من أعمال الإسلام .. فتجاوزوا الحاجزين الأخيرين اللذين كان المرجئون القدامى قد وقفوا عندهما : حاجز

الصلاة وحاجز الشريعة .. فوصفوا المجتمعات التى لا تحكم بما أنزل الله بأنها مجتمعات إسلامية ، ووصفوا الناس ـ كل الناس ـ بأنهم مسلمون ، ماداموا يقولون بأفواههم لا إله إلا الله محمد رسول الله !

ونحب أولا أن نرجع إلى الحديث الذى يستندون إليه : « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » .

أسلفنا القول أننا لا نحتاج أن نقول إنه نسخ بنزول التكاليف فى المدينة . ولكنا نقول فقط إنه **خصص** بأحاديث أخرى من قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاشترط فيه البراءة من الشرك .

يقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « مامن عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة »(١٣٨) .

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « من مات لايشرك بالله شيئا دخل الجنة »(١٣٩) .

وبالمقابلة والجمع بين الحديثين يتحدد لنا فى شأن لا إله إلا الله أن **البراءة من الشرك** هى شرط قبولها عند الله فى الآخرة . وقد حدد الله ذلك تحديدا قاطعا فى كتابه المنزل :

« إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء »(١٤٠) .

---

(١٣٨) أخرجه مسلم .
(١٣٩) أخرجه مسلم .
(١٤٠) سورة النساء [١١٦] .

والشرك أنواع .. يتحدث الخطباء والوعاظ عن بعضها ـ الذى لا يغضب ذوى السلطان ـ ويهملون الحديث عن بعضها الآخر !

فالتوجه لغير الله بشئ من ألوان العبادة كالدعاء أو الاستعانة أو الاستغاثة أو النذر أو الذبح .. شرك لا شك فيه . وما أكثر ما يتكلم الخطباء فى هذا اللون من الشرك !

والظن بأن مع الله من يرزق أو يضر أو ينفع .. شرك لا شك فيه .. وما أكثر ما يتكلم فيه الخطباء !

والتشريع (أى التحليل والتحريم) بغير ما أنزل الله ، والرضى بذلك التشريع ، شرك لا شك فيه. ولكن الناس فى قرنهم الأخير هذا قد جَهِلَوا ـ أو جُهِّلَوا ـ هذه الحقيقة الخطيرة ، فلم يعودوا يفرقون بين المعصية والشرك ، وصاروا ينظرون إلى هذا اللون من الشرك على أنه معصية مغفورة .. إن لم ينظروا إليه على أنه «ضرورة» مباحة لا إثم فيها . بل إن لم يكن فى حسهم ـ من وراء ذلك ـ أنها تقدم وتحضر وانعتاق من الأغلال ! !

* * *

كيف حدث ذلك ؟ !

لقد جاء الغزو الصليبى بادئ ذى بدء فنحّى الشريعة الإسلامية من كل بلد دنستها قدماه . ثم قيل للناس : لا بأس عليكم ! ما دمتم

تصلون وتصومون فأنتم مسلمون وإن لم تتحاكموا إلى شريعة الله !

ثم سلط الغزو الصليبي (واليهودى فى أطوائه) على الناس ما يصرفهم حتى عن الصلاة والصوم . ثم قيل للناس : لا بأس عليكم ! مادمتم تقولون لا إله إلا الله فأنتم مسلمون !

وهكذا بقى الإسلام معلقا بذلك الخيط الرفيع ، وهو نطق لا إله إلا الله باللسان ، بغير مقتضى فى حياة الناس على الإطلاق . ثم جاء المرجئة المحدثون ــ بما تناولوا من سموم الفكر الإرجائى ــ فقالوا : لا بأس على الناس ! فالإيمان هو التصديق والإقرار . ومن قال لا إله إلا الله فهو مؤمن ، ولو لم يعمل عملا واحدا من أعمال الإسلام !

* * *

وما بنا أن نكرر كل ما قلناه من قبل ..

ولكنا نحتاج أن نتذكر قضية ذات أهمية بالغة .. إن لا إله إلا الله تظل مقبولة عند الله طالما هى بريئة من الشرك ــ بصرف النظر مؤقتا عن قضية « العمل » وما دار حولها من ضلالات المرجئة القدامى ــ فإن أصابها الشرك فقد نُقِضَتْ نقضا ، ولم تعد مقبولة أى قبول عند الله ..

ومن مصائبنا التى ابتلينا بها فى قرننا الأخير هذا أننا نحدّث الناس عن نواقض الوضوء وندرسها للطلاب فى معاهدنا الدينية مئات المرات وفى مئات الصفحات .. ولا نحدثهم عن نواقض لا إله إلا الله ! فإن

حدثناهم فعن شرك الاعتقاد وشرك العبادة وحدهما دون شرك الاتباع ، على أساسٍ خاطئٍ من أساسه ، هو أن شرك الاتباع هو من « كفر العمل » الذى لا يخرج من الملة ! !

دخل عدى بن حاتم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يتلو « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون »[(١٤١)] فقال عدى : يا رسول الله ما عبدوهم ! فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ألم يحلوا لهم الحرام ويحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم ؟ قال : بلى ! قال : فذلك عبادتهم إياهم[(١٤٢)] !

هكذا يقول الله سبحانه وتعالى ، وهكذا يقول رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم هم يقولون هذا من كفر العمل ، وكفر العمل لا يخرج من الملة ! !

* * *

مرّ بنا القول أن قضية التشريع هى من قضايا العقيدة الرئيسية ، وأن السور المكية تحدثت عنها حتى قبل نزول الأحكام التفصيلية التى تحكم حياة المجتمع الإسلامى . فقال تعالى للناس فى مكة يدعوهم للإسلام :

---

(١٤١) سورة التوبة [٣١] .

(١٤٢) أخرجه الترمذى .

«اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء»[143]

«أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله»[144]

«وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه إلى الله»[145]

وقال للمؤمنين فى مكة :

«ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ، وإنه لفسق ، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ، **وإن أطعتموهم إنكم لمشركون**»[146]

ثم لما نزلت الأحكام التفصيلية فى المدينة ، وصار للإسلام صورة تطبيقية عملية ، ملتزمة بأحكام الله بالإضافة إلى العبادات ، الحلال فيها هو ما أحل الله ، والحرام هو ما حرم الله ، نشأت قضية جديدة فى المدينة هى قضية المنافقين الذين يتظاهرون بقبول الإسلام ولكن نفوسهم غير مذعنة لأحكام الله ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت (وكل حكم غير حكم الله طاغوت) ويريدون أن يكون الحلال والحرام حسب أهوائهم أو أعرافهم لا حسب ما أنزل الله .

وهنا نزل حكم الله فيهم حاسما قاطعا :

«فلا وربك **لا يؤمنون حتى يحكموك** فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا

---

(١٤٣) سورة الأعراف [٣] .

(١٤٤) سورة الشورى [٢١] .

(١٤٥) سورة الشورى [١٠] .

(١٤٦) سورة الأنعام [١٢١] .

فى أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما »[١٤٧] .

« ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، **وما أولئك بالمؤمنين** . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون »[١٤٨] .

فتبين من ذلك أن محك صدق الإيمان ــ بعد اكتمال الدين ــ أصبح هو التحاكم إلى شريعة الله بعد سلامة الاعتقاد وأداء العبادات . وأن سلامة الاعتقاد وحدها لم تعد تكفى . ولم يعد يكفى كذلك سلامة الاعتقاد وأداء العبادات ، لأن لا إله إلا الله صارت ذات مقتضيات أكثر مما كان لها من المقتضيات فى مكة . والإيمان بلا إله إلا الله يقتضى الالتزام **بكل** مالها من المقتضيات (مع وقوع المعصية التى لا تنقض أصل الالتزام) . فحين كان كل مقتضى لا إله إلا الله فى مبدإ الدعوة فى مكة هو الإيمان بوحدانية الله ــ سبحانه وتعالى ــ والإيمان بأنه أرسل رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليبلغ عنه ، كان الإيمان بذلك هو **كل المطلوب** من أى إنسان يدخل فى دين الله . ولما فرضت بعض العبادات صار المقتضى المطلوب هو الإيمان بوحدانية الله وإرساله لرسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأداء تلك العبادات ، فلما تمت العبادات فى المدينة وأنزلت الأحكام صار المقتضى المطلوب هو الإيمان بالله ورسوله (وما حول ذلك من تفاصيل حددها الوحى) والقيام بالعبادات المفروضة ،

---

(١٤٧) سورة النساء [٦٥] .

(١٤٨) سورة النور [٤٧ ــ ٤٨] .

والالتزام بشرع الله . ولم تعد واحدة من هؤلاء تغنى عن أختها أو تجزئ عنها .

ولكن المنافقين لم يكونوا يجادلون فى قضية التوحيد ، ولم يكونوا يجادلون كذلك فى أمر العبادات (وإن أدوها فى فتور وكسل) ولكنهم كانوا يَزْوَرُّون ويعرضون عن الأحكام التى تضبط تصرفات المؤمن فى حياته الدنيا ، فيميلون عنها إلى حكم الطاغوت (وهو كل حكم غير حكم الله كما أسلفنا) . لذلك ركزت الآيات القرآنية فى المدينة ـ بمناسبة الحديث عن المنافقين ـ على قضية الحكم بما أنزل الله ، لأنها هى القضية التى كانت مثارة يومئذ(١٤٩) ، ونزل قول الله الحاسم :

«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون»(١٥٠)

«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون»(١٥١)

«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون»(١٥٢)

«أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون»(١٥٣)

* * *

(١٤٩) وهى المثارة اليوم كذلك !
(١٥٠) سورة المائدة [٤٤] .
(١٥١) سورة المائدة [٤٥] .
(١٥٢) سورة المائدة [٤٧] .
(١٥٣) سورة المائدة [٥٠] .

من أعجب العجب أن يقول لك قائل : إن الله قد أنزل فيهم هذا الحكم لأنهم كانوا منافقين ! فقال عنهم : إنهم لا يؤمنون حتى يحتكموا إلى شريعة الله ! ! أما لو كانوا مؤمنين فلم يكن الله ليشترط عليهم هذا الشرط ! ! !

عجبا ! وكيف أصبح المؤمنون مؤمنين ؟ !

ولماذا صار المنافقون منافقين ؟ !

هل كان المؤمنون مؤمنين إلا بأنهم تحاكموا إلى شريعة الله مع سلامة الاعتقاد وأداء العبادات ؟ !

وهل كان في وسعهم أن يكونوا مؤمنين بغير ذلك ؟ !

« إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا **سمعنا وأطعنا** . وأولئك هم المفلحون(١٥٤)

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم »(١٥٥)

إنما أصبح المؤمنون مؤمنين لأنهم التزموا ـ منذ قالوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ـ أن يقروا ويذعنوا لما جاء من عند الله . فلما دعاهم أن يحتكموا إلى شريعته قالوا : سمعنا وأطعنا ، فاستمرت لهم صفة الإيمان لأنهم ظلوا عاملين بمقتضى لا إله إلا الله .

---

(١٥٤) سورة النور [٥١] .
(١٥٥) سورة الأحزاب [٣٦] .

ولم يكن وجوب التحاكم إلى شريعة الله مفروضا على المنافقين وحدهم لأنهم منافقون ! ! بل هو مفروض على كل من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله . فإن التزم بذلك مع التسليم النفسي والرضى فأولئك هم المؤمنون . أما إن أذعن إذعانا ظاهرا وهو فى دخيلة نفسه غير راض ولا مُسَلِّم فأولئك هم الذين قال الله عنهم إنهم منافقون (وهم مع ذلك لم يكونوا ممتنعين امتناعا ظاهرا لأنهم حينئذ يصبحون مرتدين لا منافقين ، ويكون جزاؤهم فى المجتمع المسلم هو القتل) .

* * *

وخلاصة الأمر أن قضية التشريع ترتبط ارتباطا مباشرا وثيقا بلا إله إلا الله . وأن هذا الارتباط لا يمكن أن ينفصم فى أى حال من الأحوال .

إنما قال الفقهاء فى قوله تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » إنه لا يكفر إلا إذا كان مستحلا وإنه إن لم يكن مستحلا فهو كفر دون كفر .. كفر لا يخرج من الملة .

فالقاضي الذى يحكم بغير ما أنزل الله فى القضية المعروضة عليه لأنه ارتشى من أحد الخصمين لا يكفر بذلك وإن كان آثما يتعرض لسخط الله وغضبه .

والمتأول الذى اجتهد فأخطأ فحكم فى الأمر المعروض عليه بغير

ما أنزل الله لا إثم عليه ، بل له أجر اجتهاده مادام قد أخلص النية فيه .

إلى آخر تلك الحالات التى عددها الفقهاء ..

نعم .. ولكن ذلك كله **لا ينصرف إلى التشريع بغير ما أنزل الله** . فالحكم فى قضية معروضة بغير ما أنزل الله ، بدافع من الدوافع المذكورة فى كتب الفقه ، بغير استحلال لذلك الحكم ، هذا شئ ، والتشريع بغير ما أنزل الله شئ آخر مختلف بالمرة . لأنه فى الحالة الأولى لا ينقض اعترافه وإقراره بأن شرع الله هو المرجع الذى يرجع إليه فى الحكم وإن خالف فى التنفيذ . أما فى الحالة الثانية فهو يضع من عند نفسه ــ بغير سلطان من الله ــ شرعا آخر مخالفا لشرع الله ، ثم يقول ــ بلسان الحال أو بلسان المقال ــ لا تنفذوا شرع الله ، ولكن تفذوا هذا الشرع الذى وضعته لأنه مماثل لشرع الله ، أو لأنه أفضل من شرع الله ، أو لأنه أنسب من شرع الله !

وهذا الأمر لم يختلف الفقهاء فى تاريخ الإسلام كله على أنه كفر مخرج من الملة .

وأمر آخر لم يختلف الفقهاء فى تاريخ الإسلام كله على أنه كفر مخرج من الملة ، هو **الرضى** عن علم وإرادة بشرع غير شرع الله ، ولا يدخل فى ذلك الإكراه بطبيعة الحال لأن الإكراه ينتفى فيه الرضى ، ولذلك قال تعالى :

«من كفر بالله من بعد إيمانه ـ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ـ ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم» [١٥٦]

فالتشريع بغير ما أنزل الله ، والرضى بتشريع مخالف لما أنزل الله ، كلاهما ـ في حكم الله ـ نقض للا إله إلا الله ، لذلك نزل فيه الحكم القاطع الحاسم : «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» [١٥٧]

يقول الإمام ابن كثير في تفسير قوله تعالى : «أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون» :

«ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المشتمل على كل خير ، الناهي عن كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بأهوائهم وآرائهم ، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيزخان الذي وضع لهم الياسق ، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها ، وفيها كثير من الأحكام أخذها بمجرد نظره وهواه ، فصارت في بنيه شرعا متبعا يقدمونه على الحكم بكتاب الله

---

(١٥٦) سورة النحل [١٠٦] .
(١٥٧) سورة المائدة [٤٤] .

وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكّم سواه فى قليل ولا كثير» (١٥٨)

* * *

هذا الارتباط الوثيق بين لا إله إلا الله وتحكيم شريعة الله ، ظل ثلاثة عشر قرنا متوالية بديهية فى حس المسلمين ، لا يتصورون الإسلام من غيرها ، ولا يتصورون فى «مسلم» أنه يكون مسلما من غيرها . وكان حكم الشريعة القائم بالفعل فى الأرض يعطى القضية ثقل الأمر الواقع ، فلا يفكر الناس فى غيره ، ولا يفكرون فى أن غيره يمكن أن يقع !

وكان الفارق ـ فى حس المسلمين ـ بين الإسلام والكفر ، وبين المسلمين والكفار أمران رئيسيان ، فضلا عن أمور كثيرة أخرى ، هما الصلاة وشريعة الله . فالمسلمون يصلون ، ويتحاكمون إلى شريعة الله ، والكفار لا يصلون ، ولا يتحاكمون إلى شريعة الله. ولكن الأمر تغير كثيرا فى حس المسلمين بعد الاحتلال الصليبى لبلادهم وتنحية شريعة الله عن الحكم ، ثم تسليط كل العوامل التى تخرج المسلمين من الإسلام .

---

(١٥٨) انظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٦٨ .

فأما الجيل الأول فقد كان يرى الحقيقة «الشرعية» واضحة ..

فتنحية الشريعة ـ من حيث المبدأ ـ كفر. والذين يقومون بذلك ـ من حيث الواقع ـ هم الكفار الصليبيون المغتصبون لأرض الإسلام.

ولكن الأمر اختلط كثيراً على الأجيال التالية ..

وفى غير هذا المكان تحدثت عن عملية التغريب، وعن الغزو الفكرى، وعن مناهج التعليم، وعن وسائل الإعلام، وعن الإفساد الذى تم فى عالم الفكر والأدب، وفى عالم السياسة، وفى قضية المرأة، وفى مجال الأخلاق .. لإخراج المسلمين من الإسلام(١٥٩).

ثم جاء حكام يحملون أسماء إسلامية، ويحكمون بغير ما أنزل الله، ينوبون عن الاحتلال الصليبى فى تنفيذ كل أهدافه، ويقال للناس إنهم مسلمون، وإن «الضرورة» تقتضى أن يحكموا بغير ما أنزل الله(١٦٠).

ثم يزداد الناس بعدا عن الإسلام ـ بفعل كل العوامل المسلطة عليهم ـ فيقال لهم صراحة إن الرقى والتحضر والتقدم والتحرر والانطلاق يقتضى تنحية شريعة الله عن الحكم، واستيراد النظم والمبادئ والدساتير والقوانين من أوربا المتحضرة ـ من غربها أولا ثم من

---

(١٥٩) انظر فصل «آثار الانحراف» من كتاب «واقعنا المعاصر».

(١٦٠) انظر فى كتاب «واقعنا المعاصر» فتوى الشيخ رشيد رضا بهذا المعنى وردنا عليها.

شرقها بعد ذلك ـ وإن الشريعة التى نزلت قبل أربعة عشر قرنا لا يمكن ـ ولا يجوز ـ أن تحكم حياة الناس اليوم . وإن « التطور » لابد أن يأخذ طريقه ، وإن الدين هو « الأغلال » التى تعوّق الناس عن الانطلاق ، وإن مصيرنا ـ رضينا أم أبينا ـ هو مصير أوربا ، التى لم تتقدم إلا بعد أن نبذت الدين ، وإن « الرجعية » لا يمكن ـ حسب قوانين التطور ـ أن تثبت فى مكانها ، فضلا عن أن تقف عجلة التطور عن الانطلاق !

ويقال للناس فى أثناء ذلك كله إنهم « مسلمون » .. ماداموا يقولون لا إله إلا الله ! !

* * *

هذا هو واقع «المسلم المعاصر» !

لقد أفرغت لا إله إلا الله من محتواها كله ، ومقتضاها كله ، وأصبحت كلمة تطلق فى الهواء ، ويتعلق بها ذلك «الغثاء» الذى تحدث عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيجرفه السيل ، لا يملك نفسه منه .. لأنه بلا جذور !

إن جذور هذه الأمة التى تمكّن لها فى الأرض هى «لا إله إلا الله محمد رسول الله». فإن أفرغت هذه الجذور من محتواها الحقيقى ، وظلت القشرة خاوية من المحتوى الحىّ ، فهل يمكن أن تمسك بشئ ، وهل يمكن أن تقاوم الدوامة الضارية التى يصنعها السيل ؟ وهل تكون هى

ذات الجذور التى أنبتت من قبل «خير أمة أخرجت للناس» ؟ !

لقد عملت عوامل كثيرة خلال التاريخ الإسلامى الطويل لإفراغ لا إله إلا الله من محتواها الحقيقى ..

فالتفلت من التكاليف ، وعدم كفاية التذكير ، والترف المتلف ، والسلبية الصوفية ، والاستبداد السياسى ، والفكر الإرجائى ، كل واحد من هؤلاء قد فعل فعله فى إفراغ لا إله إلا الله من محتواها الحى على المدى الطويل[١٦١] .

التفلت من التكاليف طبع فى البشر ، تمده ثقلة الأرض .. ثقلة الشهوات .. وعلاجه هو التذكير :

«وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين»[١٦٢]

فحين لا يكون التذكير كافيا ـ فى الدرجة أو فى النوع ـ فإن التفلت من التكاليف يظل مستمرا .. ثم يزداد .

والترف الذى أصاب المسلمين حين مكّنوا فى الأرض ، أرخى قبضتهم من حبل الله المتين .. فتفلتوا من التكاليف بحكم الرغبة فى المتاع الأرضى ، فكثرت البدع والمعاصى ، وكلها خروج على مقتضيات لا إله إلا الله .

---

(١٦١) تكلمت عن هذه العوامل بشئ من التوسع فى فصل «خط الانحراف» من كتاب «واقعنا المعاصر» .

(١٦٢) سورة الذاريات [٥٥] .

وجاء الفكر الصوفى ردّ فعل للترف ، فخلص المتطهرون بأنفسهم من الدنس المستشرى فى المجتمع المترف ، ولكنهم ـ من جانب آخر ـ انعزلوا عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فأفرغوا لا إله إلا الله من جانب مهم من محتواها الحى ..

وأسهم الاستبداد السياسى فى إفراغ لا إله إلا الله من محتواها فى الجانب ذاته ، حين أصبح الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يغضب المستبدين من ذوى السلطان ، فيفتكون « بالمعارضين » الذين يعترضون على انحرافاتهم وتجاوزاتهم ، فينحسر الناس إلى ذوات أنفسهم ويتحول « الدين » إلى ممارسة فردية ، تركز على الجانب العبادى وحده ، وينحسر عن صورته الجماعية ، أى عن جانبه السياسى بصفة خاصة .. وينفصل ما بين « الدين » و « السياسة » . وتصبح السياسة لا علاقة لها بلا إله إلا الله !

ثم يجىء الفكر الإرجائى فيغطى هذا الانحسار كله .. ويقول للناس : إن الإيمان هو التصديق والإقرار !

* * *

وحين جاء الغزو الصليبى كانت لا إله إلا الله قد وصلت فى نفوس المسلمين إلى حدها الأدنى الذى يحفظ المسلمين فى داخل إطار الإسلام ، مع وقوعهم فى المعاصى والآثام ، أى فى حدود إقامة الصلاة وتحكيم شريعة الله .. وكان انحسارها فى نفوس المسلمين إلى

ذلك الحد هو الذى جاء بالصليبيين ومكّن لهم فى أرض الإسلام ، فما كان لهم أن يغامروا بالمجىء ، وما كان لهم أن يتمكنوا فى الأرض ، لو أن المسلمين كانوا على ذكر بمقتضيات لا إله إلا الله ، عاملين بتلك المقتضيات فى عالم الواقع . فإن من بين تلك المقتضيات ـ الكثيرة ـ إعداد العدة لأعداء الله ، والإنفاق فى ذلك السبيل :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شئ فى سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون »(١٦٣) .

ومن مقتضياتها ـ الكثيرة ـ طلب العلم الذى يؤدى إلى التمكين فى الأرض .. فلا تمكين بغير علم :

« طلب العلم فريضة »(١٦٤)

ومن مقتضياتها التخلق بأخلاقيات لا إله إلا الله من الصدق والأمانة والإخلاص وإتقان العمل واحترام حقوق الغير والتعاون على البر والتقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان .. الخ .. الخ .. وهى من أكبر أدوات التمكين فى الأرض ، كما أن فقدانها من أكبر عوامل البوار ..

« ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم »(١٦٥)

---

(١٦٣) سورة الأنفال [٦٠] .
(١٦٤) أخرجه ابن ماجه .
(١٦٥) سورة الأنفال [٤٦] .

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا »[166]

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيرا منهن . ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب . **بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان** . ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون .. يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن . إن بعض الظن إثم . ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضا . أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه . واتقوا الله إن الله تواب رحيم »[167] .

ومن مقتضياتها .. ومن مقتضياتها ..

وكان الفراغ من تلك المقتضيات هو الذى أصاب المسلمين « بالتخلف العقيدى » الذى نشأ عنه التخلف العلمى والحضارى والمادى والاقتصادى والحربي والسياسى .. الذى أغرى الصليبيين بالمجيء ، ثم مكن لهم فى أرض الإسلام[168] .

* * *

ولكن الحد الأدنى الذى كان يحفظ المسلمين داخل إطار الإسلام – مع كل هذه المعاصى والآثام – لم يكن ليرضى الصليبية

---

(١٦٦) سورة آل عمران [١٠٣] . (١٦٧) سورة الحجرات [١١ – ١٢] .

(١٦٨) انظر فصل «آثار الانحراف» من كتاب « واقعنا المعاصر» .

الحاقدة وفى أطوائها اليهودية الشريرة ، ولم يكن ليطمئنهما على مصير مخططاتهما تجاه الإسلام :

« ولا يزالون يقاتلونكم **حتى يردوكم عن دينكم** إن استطاعوا »[١٦٩] .

« ود كثير من أهل الكتاب **لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا** حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق »[١٧٠] .

نعم .. فوجود المسلمين فى داخل إطار الإسلام ، فى هذا الحد الأدنى منه ، مع كل البعد الذى ابتعدوه عن حقيقته الشاملة الهائلة ، لا يُؤْمَن معه أن يعودوا إلى تلك الحقيقة مرة أخرى ، إذا بعث الله لهذه الأمة من يجدد لها أمر دينها ، كما تتجدد الشجرة الذابلة حين تُتَعهد بالرعاية والسقى ، ما دامت الجذور ما تزال فى حيز الحياة :

« ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .. »[١٧١]

قال جلادستون رئيس الوزارة البريطانية وقت دخول الإنجليز مصر مشيرا إلى المصحف : « طالما كان هذا الكتاب فى أيدى المصريين فلن يقر لنا قرار فى تلك البلاد » .

---

(١٦٩) سورة البقرة [٢١٧] .
(١٧٠) سورة البقرة [١٠٩] .
(١٧١) سورة إبراهيم [٢٤ – ٢٥] .

وقال توماس بين ـ المستشرق الأمريكى ـ فى مقدمة كتابه « السيف المقدس » ، بعد أن لخص تاريخ المسلمين وانتصاراتهم فى آسيا وأفريقيا وأوربا : « والآن تغير الحال ، وصار المسلمون فى قبضة أيدينا ، ولكن ماحدث مرة يمكن أن يحدث مرة أخرى . وإن الشعلة التى أشعلها محمد (صلى الله عليه وسلم) فى قلوب أتباعه ، لهى شعلة غير قابلة للانطفاء .. »

من أجل هذا عمل الصليبيون (واليهود فى أطوائهم) لإخراج المسلمين **نهائيا** من الإسلام لكى يأمنوا ، ويطمئنوا ، ويستريحوا ، وإن كانوا ساروا على **مخططهم** المعروف : « بطئ ولكنه أكيد المفعول Slow but sure » ، كما قال « كرومر » أول « معتمد بريطانى » فى مصر :

« إن مهمة الرجل الأبيض الذى وضعته العناية الإلهية (!) على رأس هذه البلاد هى تثبيت دعائم **الحضارة المسيحية** إلى أقصى حد ممكن ، **بحيث تصبح هى أساس العلاقات بين الناس**(١٧٢) ، وإن كان من الواجب ـ **منعا من إثارة الشكوك** ـ ألا يعمل على تنصير المسلمين ، وأن يرعى من منصبه الرسمى المظاهر الزائفة للدين الإسلامى ، كالاحتفالات الدينية وما شابه ذلك » !

وتم لهم ـ فى غفلة المسلمين ـ كل ما أرادوه ، فبدأوا بتنحية

(١٧٢) أى بدلا من الإسلام .

الشريعة الإسلامية عن الحكم ، وانتهوا بتنحية المسلمين عن الصلاة ، وانسحب «المسلمون» بذلك من كل ما كان قد بقى لهم من الإسلام ، على المخطط البطىء .. الأكيد المفعول .

ولم يجد الفكر الإرجائى صعوبة كبيرة فى تغطية الانسحاب .. فسمى المجتمعات الجاهلية ـ التى لا تحكم بما أنزل الله ـ مجتمعات إسلامية ، وأطلق صفة الإسلام على كل من يقول بلسانه : لا إله إلا الله ! إذ الإسلام هو مجرد التصديق وعلامته الظاهرة هى مجرد الإقرار !

* * *

حين نصل فى حديثنا إلى هذه النقطة ، يتصور قوم أننا مقدمون لا محالة على إصدار الحكم على الأجيال الحاضرة من الناس بالكفر ، لأنهم لا يتحاكمون إلى شريعة الله ، فيستشعر القوم فى أنفسهم «الخطر» من هذه القضية كلها ، فيسارعون إلى معارضتها من حيث المبدإ ، خشية أن يجرهم إقرار المبدإ إلى إصدار الحكم !

وقد أكدنا فى غير هذا المكان أن قضيتنا ليست هى إصدار الحكم على الناس[١٧٣] ! وأننا نهدف إلى قضية أخرى ، أبعد كثيراً ، وأخطر

---

(١٧٣) انظر «قضية الحكم على الناس» فى فصل «الصحوة الإسلامية» من كتاب «واقعنا المعاصر» . وقد فصلت الحديث هناك عن الأسباب التى تدعونى إلى عدم الخوض فى هذه القضية فى الوقت الحاضر ، وتركيز الجهد كله فى عملية البيان والتعليم دون التعرض لإصدار الأحكام على الناس .

ـ فى نظرنا ـ كثيراً من محاولة إصدار حكم على هذا الجيل من الناس !

إن حكمنا على الناس الذين يعيشون اليوم فى الأرض الإسلامية بالإسلام أو الكفر ليس هو الذى سيدخلهم الجنة أو النار ! فالله ـ سبحانه وتعالى ـ هو المتصرف فى شأنهم وشأن الكون كله « يدخل من يشاء فى رحمته ، والظالمين أعد لهم عذابا أليما »[١٧٤] . ولسنا الآن دولة حتى توقع حد الردة على المرتدين من أولئك البشر.. إنما نحن دعوة ، نحاول أن نقوم بالأمانة الملقاة على عاتقنا تجاه هذا الدين . والمهمة التى نسعى إليها ، ونحاول جاهدين أن نصل إلى شئ منها ، هى مهمة « البيان » للناس . فنحاول أن نبين لهم ما غاب عنهم ـ فى غربة الإسلام الثانية[١٧٥] ـ من حقائق هذا الدين .

والذين يظنون أننا حين نطلق على المجتمعات التى تعيش اليوم فى الأرض الإسلامية[١٧٦] أنها «مجتمعات جاهلية» نقصد بذلك أن أهلها ليسوا مسلمين ، أو أن الأصل فيهم هو الكفر إلا إذا تبين منهم غير

---

(١٧٤) سورة الإنسان [٣١] .

(١٧٥) قال عليه الصلاة والسلام : « بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء » رواه مسلم .

(١٧٦) نطلق لفظ « الأرض الإسلامية » على كل أرض كان الإسلام يحكمها ذات يوم ثم تراجع الحكم فيها عن شريعة الله وحكمتها شرائع الجاهلية . وحكم الفقهاء فيها أن أهلها مطالبون بردها إلى الحكم الإسلامى لا يسقط هذا الواجب عنهم أبد الدهر .

ذلك .. هؤلاء نقول لهم هنا ـ كما قلنا فى غير هذا المكان ـ إن حكم المجتمع لا ينصرف إلى الأفراد ـ أى الأعيان ـ إنما هو شبيه بالحكم على الدار بأنها دار كفر أو دار إسلام . والفقهاء مجمعون على أن وصف الدار بأنها دار كفر أو دار إسلام لا يتعلق بعقائد القاطنين فيها إنما يتعلق بغلبة الأحكام فيها ، فالأرض التى تحكمها شريعة الله هى دار إسلام مهما تكن عقائد أهلها . والأرض التى تحكمها شريعة غير شريعة الله هى دار كفر مهما تكن عقائد أهلها .

وقد كانت مصر دار إسلام حين فتحها المسلمون مع أن غالبية أهلها كانوا على غير دين الإسلام ، وظلوا كذلك فترة من الوقت. وكانت الهند دار إسلام حين فتحها المسلمون مع أن غالبية أهلها كانوا ـ وما زالوا ـ على غير دين الإسلام . إنما اعتبرت دار إسلام لكون أحكام الشريعة هى الحاكمة فيها بصرف النظر عن عقائد أهلها .

وكذلك كانت الدويلات التى أقامها الصليبيون فى الشام ـ واستمر بعضها مائتى عام ـ دار كفر مع أن أهلها ظلوا مسلمين، لأن الصليبيين كانوا يحكمون فيها بغير ما أنزل الله .

فالمجتمع المسلم هو المجتمع الذى تحكمه شريعة الله ، وتحكمه تصورات الإسلام ومفاهيمه وآدابه وأنماط سلوكه ، بصرف النظر عن عقائد أهله . والمجتمع الجاهلى هو المجتمع الذى لا تحكمه شريعة الله ، ولا تصورات الإسلام ومفاهيمه وآدابه وأنماط سلوكه ، بصرف النظر

عن عقائد أهله ، وعن حكم الله عليهم فى الآخرة بالدخول إلى الجنة أو الدخول إلى النار.

والناس الذين يعيشون اليوم فى الأرض الإسلامية هم خليط لا يجمعه حكم واحد. فنهم مسلمون بلا شبهة ـ بحسب الظاهر من أحوالهم ، وحسابهم على الله فى الآخرة ـ لأنهم يقولون لا إله إلا الله ، ويؤدون العبادات ، وينكرون حكم الجاهلية ، ويرغبون فى تحكيم شريعة الله ، ويتحاكمون إليها فيما يقدرون عليه من أمورهم ، ومنهم كفار بلا شبهة ـ بحسب الظاهر من أحوالهم ، وحسابهم على الله فى الآخرة ـ لأنهم ـ حتى إن قالوا لا إله إلا الله[١٧٧] ـ ينكرون أن تكون شريعة الله واجبة التحكيم ، ويقولون فى ذلك مقالات شتى ، فمنهم من يقول : ما للدين والسياسة ؟ ! ومنهم من يقول : كيف تحكم الشريعة التى نزلت قبل أربعة عشر قرنا حياة الناس المتطورة اليوم ؟ لابد من أنظمة متطورة تحكم الحياة المتطورة . فلنأخذ الديمقراطية أو فلنأخذ الاشتراكية بديلا من الإسلام ! ومنهم من يقول : إن الدين قد استنفد أغراضه ولم يعد له مكان فى الحياة اليوم ! ومنهم من يقول : إن الدين رجعية وتأخر ينبغى نبذه والانسلاخ منه من أجل أن نصبح تقدميين ! ومنهم من يقول : إن الدين علاقة بين العبد والرب ، محلها

(١٧٧) بعضهم لا يكتفى بقول لا إله إلا الله ، بل يزعم أنه هو الذى تتحقق فيه حقيقة الإسلام ! «ويقولون آمنا بالله وبالرسول **وأطعنا** ! ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، **وما أولئك بالمؤمنين**» [سورة النور : ٤٧] .

القلب ولا علاقة له بواقع الحياة !

ومنهم كتلة متميعة غير واضحة السمات ، يختلط فيها الحابل بالنابل، ولكن مظهرها العام بعيد عن مقتضيات الإسلام، وهى التى يختلف الناس فى حكمهم عليها ، وهى كذلك التى نقول إننا لا نهدف إلى إصدار حكم عليها . إنما نهدف إلى أن نبين للناس جميعا حقيقة لا إله إلا الله ، لأننا نعتقد أن هذا البيان ـ فضلا عن كونه أمانة لله ـ فإنه هو الذى يمكن أن يقنع الناس بتغيير واقع حياتهم ، فيغير الله لهم ـ حين يغيرون ما بأنفسهم ويستقيمون على أمر الله ـ فيخرجهم من الذل والهوان والضياع الذى يعيشونه اليوم فى كل الأرض ، ويرد لهم العزة والتمكين كما وعد الله عباده المؤمنين :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا » [(١٧٨)]

هذا أمر الناس ـ أعيان الناس ـ أما « المجتمع » فله ـ كما بيّنا ـ حكم آخر ..

إن « المجتمع » ليس هو مجموع الأفراد فحسب . إنما هو كذلك « النظام » الذى يربط أولئك الأفراد ، ويتعاملون من خلاله بعضهم

---

(١٧٨) سورة النور [٥٥] .

مع بعض ، وعلى أساسه يقيمون علاقاتهم وينشئون ارتباطاتهم .

فهل يمكن ـ على هذه القاعدة ـ أن نقول ـ : إن هذه المجتمعات القائمة اليوم مجتمعات إسلامية ؟ ! هل النظام الذى يحكمهم هو الإسلام : شريعته ومنهجه وتوجيهاته ؟ هل الذى يحدد علاقاتهم وينشئ ارتباطاتهم هو الإسلام ؟ هل الذى يشكل تصوراتهم ويرسم مناهجهم التعليمية وبرامجهم الإعلامية وأنماطهم السلوكية هو الإسلام ؟

لقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لرجل من أجلّة الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ : أنت أمرؤ فيك جاهلية ، لكلمة واحدة خرجت من فمه فى لحظة غضب ، فقال لرجل أسود : يا ابن السوداء ! ! فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : عيرته بأمه ؟! أنت امرؤ فيك جاهلية ! [(١٧٩)]

فكيف يمكن أن يسمى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مجتمعاتنا ؟!

إن الذين يسمون هذه المجتمعات مجتمعات إسلامية ، ويطلقون على كل من قال لا إله إلا الله أنه مسلم ، مهما يكن واقع حياته ، ومهما يكن هذا الواقع مناقضا لمقتضيات لا إله إلا الله ، من باب التورع والتقوى .. إن هؤلاء ـ على كل تقواهم ـ يرتكبون فى حق الدعوة

(١٧٩) متفق عليه .

خطيئة ضخمة دون أن يدروا ولايقصدوا .

فإذا كانت هذه المجتمعات إسلامية ، وإذا كان هؤلاء الناس كلهم مسلمين ، فما الذى يدفع الناس إلى اعتناق الإسلام أو البقاء فيه ؟!

إن الواقع الذى تعيشه هذه المجتمعات ـ بكل مايشتمل عليه من سوء ـ لهو أشد مايصد الناس عن الإسلام ! فإذا أضفينا عليه صفة الإسلام ، وقلنا : إن الإسلام يتغاضى عن كل ذلك السوء ، ويظل يضفى صفته على الناس مهما فعلوا ، ماداموا ينطقون بألسنتهم : لا إله إلا الله ، فما الذى يمنع الشباب ـ والشباب المتفلت من التكاليف بصفة خاصة ـ مالذى يمنعه من الشيوعية والاشتراكية والديمقراطية(١٨٠) والفوضوية والعدمية والعبثية وغيرها من المذاهب الهدامة والأفكار الهدامة ؟

إذا كنا نطلق صفة الإسلام على كل هذا القدر من السوء والانحراف الذى يقوم اليوم فى الأرض الإسلامية من باب التورع والتقوى ، فلنتق الله فى الشباب الذين نصدهم عن الإسلام ، حين نصف هذا السوء كله بأنه داخل فى إطار الإسلام !!

---

(١٨٠) يحتج كثير من الناس المخدوعين بالديمقراطية على وضعها بين المذاهب الهدامة ! وقد بينت حقيقتها فى كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » وكيف أنها مسرحية جميلة تخفى فى أطوائها سيطرة الرأسمالية على المجتمع . وسيطرة اليهود على مقدرات الناس . وأن الفساد الذى تحتوى عليه أكبر بكثير من الخير الجزئى الذى تحققه !

إذا اتضحت لنا هذه الأمور ..

إذا اتضح لنا أن إطلاق صفة الجاهلية على هذه المجتمعات لاينصرف إلى أعيان الناس ..

وأن الذى نسعى إليه من وراء هذا البحث ليس إطلاق الحكم على أعيان الناس ، إنما بيان ماجهله الناس فى غربة الإسلام الثانية من حقيقة الإيمان المتعلقة بلا إله إلا الله ، ودعوة الناس ـ من ثم ـ إلى تصحيح أوضاعهم بمقتضى هذه الحقيقة

إذا اتضح لنا هذا نعود ـ مطمئنين ـ إلى وصل ما انقطع من الحديث عن مقتضيات لا إله إلا الله .

* * *

لقد تحدثنا فيما مضى عن مقتضيات لا إله إلا الله كما فهمها الجيل الأول ـ رضوان الله عليهم ـ من كتاب الله ومن تعليم رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبينا بوضوح ـ فيما أحسب ـ أن كل ما احتج به المرجئة ـ القدامى أو المحدثون ـ من أن كل المطلوب من الناس لكى يكونوا مؤمنين هو التصديق والإقرار دون العمل بمقتضى لا إله إلا الله ـ وخاصة التحاكم إلى شريعة الله ـ ليس له سند من كتاب الله ولا من سنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا من واقع الجيل الذى فهم حقيقة الإسلام أصدق فهم وطبقها أصح تطبيق .. وأن التحاكم إلى شريعة الله ـ على أقل تقدير ـ هو الحد الأدنى الذى يحفظ للناس صفة

الإسلام فى الأرض ، وحسابهم على الله فى الآخرة .. وأن عدم التحاكم إلى شريعة الله ـ عن رضى وعلم وإرادة ـ ينقض لا إله إلا الله من أساسها ، ويخرج الناس من الإسلام ..

والآن نتحدث عن الواقع الذى يعيشه « المسلم المعاصر ! » ..

نتحدث عنه من زاويتين اثنتين على الأقل : الزاوية الأولى هى تحديد الحد الأدنى الذى يحفظ للناس إسلامهم فى الواقع المعاصر الذى لاتُحَكَّم فيه شريعة الله . والزاوية الثانية هى طريق الخلاص للناس اليوم مما هم فيه من أوضاع لم يسبق لها مثيل ـ فى سوئها ـ فى تاريخ الإسلام كله .

ونعود إلى التذكير بحقيقة نرجو ألا تكون قد نسيت فى أطواء الحديث ..

هذه الحقيقة هى أن الناس كانوا يدخلون الإسلام ، ويعتبرون مسلمين فى الحياة الدنيا ، وحسابهم على الله فى الآخرة ، فى أثناء قيام المجتمع المسلم ـ أى الذى يتحاكم إلى شريعة الله ـ بمجرد أن ينطقوا بألسنتهم لا إله إلا الله محمد رسول الله . ولكن هذا ليس معناه أن مجرد النطق ـ دون أى مقتضى ـ هو الذى يعطيهم هذه الصفة ، إنما هو النطق المتضمن مقتضى معينا ، معلوما من الدين بالضرورة ، هو الإقرار بحاكمية الشريعة الربانية ، وأنها هى وحدها ـ دون سواها ـ التى يجب تحكيمها ، وهى وحدها ـ دون سواها ـ التى يرجع إليها

الناس فى كل مايتنازعون فيه من أمر ، تحقيقا لقوله تعالى :

« وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه إلى الله »[١٨١]

« فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر »[١٨٢]

وأن الذى ينكل عن هذا المقتضى ـ المعلوم من الدين بالضرورة ، والذى له فى المجتمع المسلم ثقل الأمر الواقع ـ يطبق عليه حد الردة مع أنه مازال ينطق بفمه لا إله إلا الله محمد رسول الله ، مما يقطع بأن نطق اللسان وحده ـ دون المقتضى المتضمن فى داخله ـ ليس هو الذى يعطى صفة الإسلام .

والآن نعود إلى الواقع المعاصر ، حيث لاتحكم شريعة الله . وإنما تحكم بدلا منها شرائع الجاهلية ، سواء اسمها الديمقراطية الليبرالية أو اسمها الاشتراكية أو اسمها الشيوعية أو أى اسم من الأسماء التى ما أنزل الله بها من سلطان

كيف يتحقق مقتضى لا إله إلا الله فى حده الأدنى الذى يعطى الناس صفة الإسلام ؟!

ولسنا نتحدث هنا عن **مظهرية الإسلام** ! وإن كنا سنلم بها فى أثناء الحديث ..

---

(١٨١) سورة الشورى [١٠] .

(١٨٢) سورة النساء [٥٩] .

إن مهمة الدعاة ليست أن يعطوا الناس شهادات مزورة بالإسلام ! وليست أن يدلوهم كيف يحافظون على مظهرية الإسلام فى الحياة الدنيا ولو كانوا مرفوضين عند ربهم ! إنما مهمتهم أن يبينوا للناس كيف يكونون مؤمنين حقا ، مقبولين عند الله فى اليوم الآخر ، « يوم لاينفع مال ولابنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم »(١٨٣)

وحتى مظهرية الإسلام فى الحياة الدنيا لها شروط غير قول لا إله إلا الله ، كما سيأتى بيانه عما قليل..(١٨٤)

إن الحد الأدنى الذى يعطى صفة الإسلام عند الله حين لاتكون شريعة الله قائمة فى الأرض ، قد بينها الحديث الصحيح بصورة حاسمة لاتحتمل التأويل . يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره . ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف ، يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون مالا يؤمرون . فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم

---

(١٨٣) سورة الشعراء [٨٨ ـ ٨٩] .

(١٨٤) ناقشت هذه القضية فى كتاب « واقعنا المعاصر » بمثل ما ناقشتها به هنا . وكان الأصل أن يصدر كتاب المفاهيم أولا . فلما تأخر ـ بقدر من الله ـ وسبقه كتاب « واقعنا المعاصر » احتجت فيه إلى بيان بعض القضايا الواردة أصلا فى كتاب المفاهيم .

بقلبه فهو مؤمن . **وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل** »[185]

ويقول ــ صلى الله عليه وسلم ــ :

« إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون . فمن كره فقد برئ ، ومن أنكر فقد سلم ، **ولكن من رضى وتابع** »[186] .

فالحديث الأول يثبت الإيمان ــ بدرجات مختلفة ــ لكل من جاهد حكم الجاهلية بيده ، أو بلسانه ، أو بقلبه ، وينفيه نفيا حاسما عما وراء ذلك . والحديث الثانى ينفى الإيمان كذلك عن كل من رضى عن حكم الجاهلية وتابعه .

ومن المعلوم جيدا عند كل من يتدبر كتاب الله وسنة رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه إذا ذكر لفظ الإيمان والإسلام معا فى نص واحد فالمقصود بالإيمان عمل القلب وبالإسلام عمل الجوارح . أما إذا ذكر **أحدهما** فهو شامل **لكليهما** سواء فى الإثبات أو النفى . أى أن النفى الحاسم المذكور فى الحديث ينفى الإسلام والإيمان معا فى ذات الوقت ، لا كما يقول المتمحكون إنه ينفى الإيمان ولكنه لا ينفى الإسلام ، مخالفين بذلك ما أجمع عليه علماء هذا الدين !

أما مظهرية الإسلام فى الحياة الدنيا فشرطها ــ إلى جانب قول لا إله إلا الله محمد رسول الله ــ **عدم التحاكم إلى الطاغوت عن رضى**

---

(١٨٥) أخرجه مسلم .

(١٨٦) أخرجه مسلم .

ومتابعة ، لأن ذلك التحاكم ينقض لا إله إلا الله نقضا ، ولا يبقى لها واقعا يعتد به حتى فى إثبات مظهرية الإسلام .

ولسنا نقول هذا لنصدر به حكما على أحد من الناس . فليس فى وسعنا ـ ولا هو من شأننا ـ أن نشق صدور الناس لنعلم هل هم يتابعون حكم الطاغوت عن رضى وإرادة ، وتسليم بأحقيته فى الحكم بدلا من شريعة الله ، أم هم مكرهون كارهون ، يرغبون فى تحكيم شريعة الله ولكنهم لايستطيعون . إلا من أظهر بلسانه أو بواقعه انتماءه إلى فكر جاهلى يدعو إلى تحكيم شريعة غير شريعة الله أو ظهر من حاله أن أمر الدين لايهمه ، وأنه يستوى عنده أن تحكم شريعة الله أو شريعة الطاغوت .

إنما نقول ذلك ليعرف الناس أين هم فى ميزان الله ..

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » (١٨٧)

وميزان الله ، المبينة قواعده فى كتاب الله المنزل ، يقول : إن الحكم نوعان لاثالث لهما ، إما حكم الله وإما حكم الجاهلية :

« أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟» (١٨٨)

---

(١٨٧) سورة الحديد [٢٥] .

(١٨٨) سورة المائدة [٥٠] .

فهناك إذن مظلة جاهلية تظلل الناس فى واقعهم المعاصر.. هى الحكم بغير ما أنزل الله. والناس جميعا واقفون تحت هذه المظلة ، تشملهم بظلها الكئيب الناشز عن أمر الله ، ولكنهم فى ميزان الله فريقان مختلفان : فمن رضى بالمظلة الجاهلية فهو منها ، ومن أنكرها وكرهها وجاهدها فهو المقبول عند الله ، بحسب درجته من المجاهدة ، ودرجته من الإنكار.

هذا هو الميزان الربانى الذى لايملك أحد تغييره بحسب هواه.

« وماكان لمؤمن ولامؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم »(١٨٩)

ولكن هذا القدر من المعرفة بميزان الله لايكفى حتى نعرف معنى المجاهدة بالقلب ، وهى الحد الأدنى من العمل الذى يحفظ الناس فى إطار الإيمان حين تكون شريعة الله غير قائمة فى الأرض ، والذى ليس وراءه من الإيمان حبة خردل ، فإن كثيرا من الناس ــ بتأثير الفكر الإرجائى ــ صارت تحسب أنه يكفى فى المجاهدة بالقلب ــ أو الإنكار بالقلب ــ أن يقول الإنسان بلسانه : اللهم إن هذا منكر لايرضيك ! أو أن يعتقد فى قرارة قلبه أن هذا منكر لايرضى الله ، ثم يكون سلوكه مع هذا المنكر بعد ذلك هو نفس سلوك الراضى به ، المقبل عليه !

---

(١٨٩) سورة الأحزاب [٣٦].

ذلك أن الفكر الإرجائى كما فعل بالإيمان ، فجعله مجرد التصديق والإقرار ، وجرّده من العمل ، فكذلك فعل بالإنكار بالقلب فجعله أمرا مستترا فى داخل القلب ليس له واقع سلوكى يعرف به .

يقول الإمام الغزالى ـ مع أنه رجل صوفى ـ فى بيان حقيقة الإنكار بالقلب :

« وعن عكرمة عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لاتقفن عند رجل يقتل مظلوما فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه . قال : وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لاينبغى لامرئ شهد مقاما فيه حق إلا تكلم به ، فإنه لن يقدم أجله ولن يحرمه رزقا هو له »

« وهذا الحديث يدل على أنه لايجوز دخول دور الظلمة والفسقة ، ولاحضور المواضع التى يشاهد المنكر فيها ولا يقدر على تغييره ، فإنه قال اللعنة تنزل على من حضر. ولا يجوز له مشاهدة المنكر من غير حاجة اعتذاراً بأنه عاجز »(١٩٠)

ومن أجل هذا المعنى اسّتحقت المجاهدة بالقلب أن تسمى « مجاهدة » ـ أى أن تدخل فى باب الجهاد ـ واستحقت أن تكون « إيمانا » ولو فى الحد الأدنى منه ، واستحقت أن تكون حاجزا بين

---

(١٩٠) إحياء علوم الدين المجلد الثالث الجزء السابع ص ٩ ، دار الفكر العربى .

الإنسان وبين غضب الله . أما الإنكار بالقلب على طريقة المرجئة ، فهو كالإيمان على طريقة المرجئة ، لايستحق أن يلتفت إليه ، ولايسمن ولا يغنى من جوع !

* * *

والآن نأتى إلى النقطة الأخيرة فى هذا الفصل ، وهى طريق الخلاص ..

حين نقول للناس إن طريق الخلاص هو تصحيح المفاهيم الإسلامية ـ وبصفة خاصة مفهوم لا إله إلا الله ـ يفتح كثير من الناس أفواههم من العجب .. وينكر كثيرون !

فعند بعض القوم أن طريق الخلاص هو محاربة الفقر والجهل والمرض . هو البناء الاقتصادى المتين . هو إيجاد الطعام لكل جائع ، والعمل لكل عامل . والتعليم لكل متعلم ..

وعند بعضهم هو إزالة التخلف الحضارى والمادى والعلمى والتكنولوجى ..

وعند بعضهم هو إصلاح الأخلاق المنهارة : الرشوة المتفشية والكذب والنفاق . والغش والإهمال . والجبن والتقاعس ، وموت الضمير وعدم المبالاة ..

وعند بعضهم هو جمع الكلمة وإزالة الفرقة وتوحيد الصف وإزالة

البغضاء وتغليب المصلحة العامة ..

وعند بعضهم .. وعند بعضهم .. وعند بعضهم ..

ونحن نقول : نعم لهذا كله ! كله إصلاح ! وكله مطلوب ! ولكن كيف السبيل ؟ !

لقد جربنا خلال قرن كامل من الزمان أن نصلح هذا كله . وفتحنا مدارس وفتحنا معاهد وفتحنا جامعات . وأنشأنا طرقا وأنشأنا مصانع .. وملأنا الطرق بالسيارات ، وملأنا البيوت بالثلاجات والسخانات والتليفزيونات ..

وصنعنا من ذلك كله قدرا غير قليل ..

ثم ..؟!

زادت مشاكلنا كلها حدة . وزادت أزماتنا كلها تعقيدا . وزدنا ضعفا وهوانا على الناس . ولم تعد « الأمم » وحدها هى التى تتداعى علينا كما يتداعى الأكلة إلى قصعتهم .. وإنما صار شذاذ الآفاق ، الذين كتب الله عليهم الذلة والمسكنة أول المتداعين إلى القصعة ، وأول الناهشين فى الأموال والأعراض والدماء ..

ونحن نقول : إن طريق الخلاص هو تصحيح المفاهيم الإسلامية بدءا بمفهوم لا إله إلا الله ، وإن فغر الناس أفواههم من العجب .. وإن أنكر المنكرون ..

إن الذين يظنون أن لا إله إلا الله هى الكلمة المنطوقة باللسان ، سيفتحون أفواههم عجبا وإنكارا ولاشك .. لأنهم يرون الكلمة منطوقة كل يوم بمئات الملايين ، ويرون السوء مع ذلك لايتزحزح من مكانه ، بل يرونه يمتد ويتسع ويشتد ، ويتضاعف حجمه بمرور الأيام ..

والذين يظنون أن المطلوب من لا إله إلا الله هو التصديق والإقرار ، سيفتحون أفواههم عجبا وإنكارا دون شك .. لأنهم يرون التصديق قائما ــحسب رؤيتهمــ ويرون الإقرار، ثم لايجدون مشكلا واحدا قد انحل، ولا أزمة واحدة قد آذنت بالانفراج .

والذين يرون عموما أن « العقيدة » من « المسلمات » ، وأن التسليم حاصل بالفعل ، يسعون جاهدين إلى شئ آخر غير العقيدة ، لأنهم يرونها ــ حسب رؤيتهم ــ قائمة ، ومع ذلك لاتغيّر شيئا من الواقع ، ولايبدو أنها قادرة على تغيير شئ فى المستقبل القريب أو المستقبل البعيد ..

وهؤلاء وهؤلاء وهؤلاء هم ضحايا الفكر الإرجائى الذى أفرغ لا إله إلا الله من مضمونها الحىّ ، وحولها كلمة تنطق باللسان ، لا مدلول لها ، ولا وزن لها فى واقع الحياة .

ونحن حين ننكر ذلك الفكر الإرجائى ، وندعو إلى تصحيحه وتقويمه ، لا نصنع ذلك لمجرد الجدل الذهنى ، ولكن لأننا نرى آثاره

السامة فى حياة الأمة ، ومقدار بعده ــ فى الوقت ذاته ــ عن روح الإسلام .

ونحب أن نسأل ، لنتعرف على الطريق : هل الأمراض التى يعانيها المسلمون اليوم : التخلف العلمى والحضارى والفكرى والأخلاق والاقتصادى والسياسى والمادى .. الخ ..الخ .. هل هى أمراض « إسلامية » ؟ بمعنى أنها نشأت من اعتناق الإسلام ، وممارسة الإسلام ، والمحافظة على الإسلام ؟!

ولكى نجيب إجابة علمية واقعية لاتصدر عن الهوى ولاتحركها العصبية ، نسأل : هل المجتمع الأول الذى اعتنق الإسلام ومارسه وحافظ عليه كان متصفا بشيء من هذا كله ؟ أم كان النقيض الكامل لهذه الصورة التى نراها فى واقعنا المعاصر ؟!

ثم نسأل لنصل إلى النتيجة : أى الجيلين كان يحقق لا إله إلا الله بكل مقتضياتها ؟ وأيهما أخرج لا إله إلا الله من محتواها ، وحوّلها إلى كلمة تنطق باللسان ؟

فإذا عرفنا الإجابة عرفنا السر فى كل الأمراض التى أصابت العالم الإسلامى فى تاريخه الحديث ..

حقيقة إنه ليست لا إله إلا الله وحدها هى التى فسد مفهومها فى حس الأجيال المتأخرة ، إنما هى المفاهيم الإسلامية **كلها** بلا استثناء . وحقيقة إن الواقع المعاصر هو حصيلة الفساد فى المفاهيم كلها فى وقت

واحد ، كما سيتبين من قراءة « مفهوم العبادة » و « مفهوم القضاء والقدر » و « مفهوم الدنيا والآخرة » و « مفهوم الحضارة وعمارة الأرض » ..

ولكن لا إله إلا الله هى ركن الإسلام الأول والأكبر كما أسلفنا القول ، ولذلك كان تأثيرها هو الأكبر والأخطر ، سواء فى حالة تطبيقها الصحيح أو فى حالة الانحراف عن حقيقتها . ومن أجل ذلك كانت العناية الشديدة التى أولاها الإسلام لهذه القضية خلال ثلاثة عشر عاما فى مكة ، ثم فى العهد المدنى كله ..

ولابد أن نستعيد فى ذاكرتنا مقتضيات لا إله إلا الله كما وعاها الجيل الأول ، من تعليم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم :

مقتضاها الأول هو توحيد الربوبية والألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات (أى توحيد الاعتقاد)

ومقتضاها الثانى هو توجيه العبادة لله وحده بلاشريك (أى توحيد العبادة)

ومقتضاها الثالث هو تحكيم شريعة الله وحدها دون غيرها من الشرائع (أى توحيد الحاكمية)[١٩١]

---

(١٩١) قولنا الأول والثانى والثالث ليس ترتيب أهمية . إنما هو من ضرورة الكلام . وإلا فهى كلها على مستوى واحد من حيث كونها متعلقة بالعقيدة ـ أى بأصل الإيمان ـ وكون الخروج عليها شركا مخرجا من الإسلام .

ومقتضاها الرابع هو القيام بالتكاليف التى فرضها الله على المؤمنين ــ غير ماسبق ــ ومن بينها طلب العلم ، وعمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى ، وإعداد العدة لأعداء الله ، ونشر الدعوة فى الأرض ، وعلى رأسها جميعا الجهاد فى سبيل الله .

ومقتضاها الخامس هو التخلق بأخلاقيات لا إله إلا الله ، الواردة تفصيلا فى الكتاب والسنة .(١٩٢)

هل هذا تفسير مفتعل لمقتضيات لا إله إلا الله أقحمناه من عندنا إقحاما بغير دليل ؟!

قال لى أحد العاملين فى حقل الدعوة ذات مرة ــ وكنت ألمح الإخلاص فى تساؤله ــ لقد أخبرنا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن الإسلام بنى على خمس : شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا ، فمن أين جئت أنت باشتراط التحاكم إلى شريعة الله ، وعلى أى شئ بنيت كونها من مقتضيات لا إله إلا الله ، والرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يطلب إلا النطق بها فحسب ؟!
وقلت له على الفور : أما اشتراط التحاكم إلى شريعة الله فمنصوص عليه فى كتاب الله : « فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر

(١٩٢) كذلك قولنا الرابع والخامس ليس ترتيب أهمية فكلاهما لازم لتحقيق « الإيمان الحق » : « أولئك هم المؤمنون حقا » .

بينهم ، ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما »[193]
وأما إدخال هذا الأمر فى مقتضيات لا إله إلا الله فهو أمر بديهى فى هذا الدين . فمادمنا أقررنا أن الإيمان لايتحقق إلا بالتحاكم إلى شريعة الله فأين يدخل التحاكم فى أركان الإسلام : هل يدخل فى الصلاة ؟ هل يدخل فى الزكاة ؟ هل يدخل فى الصوم ؟ هل يدخل فى الحج ؟

فإذا لم يدخل فى واحد من هذه الأركان كلها ، فهل بقى إلا أن يدخل فى الركن الأول ، ركن لا إله إلا الله ، الذى يعنى الالتزام بكل ماجاء من عند الله ، فيدخل فيه شرط التحاكم إلى شريعة الله ، كما تدخل فيه كل التكاليف التى فرضها الله ؟

إن الإسلام **كله** فى الحقيقة هو مقتضى لا إله إلا الله . لأن مقتضى الإقرار بأن الله واحد لاشريك له فى ملكه ، ولا فى خلقه ولافى تدبيره ، ولا فى هيمنته ، ولا فى رزقه ، ولافى قدرته سبحانه ، هو عبادته وحده بلا شريك ، أى طاعته فيما أمر به ، ومجموع ما أمر به هو « الإسلام » !

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أبرز عبادات معينة فجعلها أركانا قائمة بذاتها ، فإن مابقى من التكاليف التى أمر بها الله لابد بداهة أن يدخل فى الركن الأول الشامل ، الذى يشمل الإسلام كله ، وكل مايحتويه الإسلام !

---

(١٩٣) سورة النساء [٦٥] .

فإذا لم يكن الأمر كذلك ، فليقل لنا المرجئة ـ القدامى أو المحدثون ـ فى أى أركان الإسلام تدخل تلك التكاليف ؟ ! وإن لم تكن تدخل فى أى ركن من أركانه فأين موقعها من الإسلام ، وهى **تكاليف مفروضة** . وبعضها ـ كتحكيم شريعة الله ـ داخل فى أصل الاعتقاد ؟ !

إن معنى الإقرار بالشهادة ـ كما أسلفنا مرارا ـ هو الالتزام بما جاء من عند الله . ومن ثم يدخل فيها كل التكاليف الربانية بلا استثناء .

ولسنا هنا فى مجال تصنيف المخالفات التى تقع من البشر فى تحقيق مقتضيات لا إله إلا الله ، وأيها يقع فى دائرة اللمم وأيها يقع فى دائرة الكبائر ، وأيها يقع فى دائرة الشرك ، لأننا فى مجال بيان الأثر الذى يحدثه فى حياة البشر قيامهم بمقتضيات لا إله إلا الله ـ كلها ـ على وجهها الصحيح ، والأثر العكسى الذى يحدث من إفراغ لا إله إلا الله من مضمونها ، وجعلها كلمة تنطق باللسان بغير مقتضى واقعى ، سواء كان ذلك شركا أو معصية فحسب .

ولكن هذا لايمنعنا من إشارة عابرة إلى أن أى انحراف فى توحيد الاعتقاد (أى توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات) هو شرك ، وأى انحراف فى توحيد العبادة (أى توجيه كل ألوان العبادة لله وحده بلاشريك) هو شرك ، وأى انحراف فى توحيد الحاكمية (أى التحاكم إلى شريعة الله وحدها دون غيرها من الشرائع) هو كذلك

شرك . وكلها ـ الثلاثة ـ على ذات المستوى من الدخول فى أصل العقيدة ، والشرك فى أيها هو الشرك الأكبر المخرج من الملة :

« وقال الذين أشركوا لوشاء الله **ماعبدنا من دونه** من شئ نحن ولا آباؤنا ، **ولا حرمنا من دونه** من شئ »[(١٩٤)]

فهذه تشمل شرك العبادة وشرك الحاكمية .

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون »[(١٩٥)] .

وهذه تشمل شرك الحاكمية وشرك الاعتقاد .. وكلها سواء .

* * *

حين كانت الأجيال الأولى من المسلمين تدرك مفهوم لا إله إلا الله على حقيقته ، وتحققه فى واقع حياتها ، كانت « خير أمة أخرجت للناس » وكانت هى الأمة الممكنة فى الأرض ، وكانت هى أمة العلم والحضارة ، وأمة القيم والأخلاق ، وحدثت على يديها تلك المعجزات التى يعرفها التاريخ فى شتى المجالات ..

وحين انحسر مفهوم لا إله إلا الله فى نفوس الأجيال المتأخرة من

---

(١٩٤) سورة النحل [٣٥] .

(١٩٥) سورة التوبة [٣١] .

هذه الأمة ـ مع غيره من المفاهيم ـ وحين لم يعد له واقع فى حياتها ، تحقق فيها نذير رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يارسول الله ؟ قال : إنكم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل » (١٩٦)

وصارت هذه الأمة ألعوبة فى يد أعدائها ، يجرونها إلى الهلاك بكل مهلكة من القول والعمل ، ويفتنونها عن دينها ، « والفتنة أكبر من القتل » (١٩٧) ويزيدونها غيا كلما اتبعتهم على طريق الغىّ !

واليوم تبحث الأمة عن طريق الخلاص ..

وحين نقول للناس: إن طريق الخلاص يبدأ بتصحيح مفاهيم الإسلام كلها بدءا بمفهوم لا إله إلا الله ، يظن بعض الناس ـ بسذاجة حقيقية أو سذاجة مفتعلة ـ أننا نضع تصحيح المفاهيم بديلا من توفير الخبز للجائعين ، أو توفير العلم للمتعلمين ، أو إقامة المصانع أو تسليح الجيوش !

وهذا أمر لايتصوره عاقل !

ولم يكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يصحح اعتقاد الناس فى مكة ، ويدل المؤمنين على المفهوم الحقيقى للا إله إلا الله ، لم يكن

---

(١٩٦) أخرجه أحمد وأبو داود .　　　(١٩٧) سورة البقرة [٢١٧] .

يقول لهم : لا تأكلوا حتى تصححوا اعتقادكم ، ولاتبيعوا ولاتشتروا ، ولاتبحثوا لأنفسكم عن مصدر رزق حتى تفهموا جيدا معنى لا إله إلا الله !

هذا أمر لايتصوره عاقل !

ولكنه كان يربيهم ــ وهم يأكلون ويشربون ، ويبيعون ويشترون ، ويمشون فى مناكب الأرض ــ كان يربيهم على المقتضيات الحقيقية للا إله إلا الله ، بحسب تنزلها من عند الله ، حتى يستقيم سعيهم كله ، ويصبحوا فى النهاية « خير أمة أخرجت للناس »

وحين نقول اليوم : إنه لابد من تصحيح مفاهيم الإسلام بدءا بمفهوم لا إله إلا الله نقصد هذا الذى صنعه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أول مرة . ولانقصد تعطيل البحث عن الخبز ، أو تسليح الجيوش ، أو إنشاء المصانع ، أو فتح المدارس حتى يتم تصحيح مفهوم لا إله إلا الله !

نشكو اليوم ــ ونحن نحاول « الإصلاح » ــ من فقدان روح « الإحساس بالواجب » عند الناس . فلا أحد يتحرك أو يعمل انطلاقا من إحساسه بأن عليه واجبا يجب أن يؤديه. إنما يعمل ــ إذا عمل ــ لتحقيق مصلحة شخصية ، لا يبالى أن تجيء من طريق حلال أو حرام . فلا يعمل الموظف الصغير إلا أن يرتشى ، ولا يعمل الموظف

« الكبير ! » إلا أن ينهب من المال الحرام .. فكيف الطريق إلى إصلاح ذلك ؟

ونشكو من الارتجالية والفوضى فى أعمالنا كلها مما يضيع علينا أموالا كثيرة وأوقاتا عزيزة وفرصا نادرة ، ويؤدى إلى بوار كثير من مشروعاتنا .. فكيف الطريق إلى الإصلاح ؟

ونشكو من النفاق والكذب والغش والخديعة وقلة الأمانة عند الناس .. فكيف الطريق إلى الإصلاح ؟

ونشكو من الكسل والتواكل وانعدام الجدية فى أخذ الأمور .. فكيف الطريق إلى الإصلاح ؟

ونشكو من فقدان الروح العلمية فى تناول مشكلاتنا ، لأننا نفتقد النظرة الموضوعية ـ التى لاتتدخل فيها الأهواء ـ ونكره التخطيط والتنظيم .. فكيف الطريق إلى الإصلاح ؟

ونشكو من فقدان « الروح الجماعية » ، وغلبة الروح الفردية الأنانية الضيقة البغيضة .. فكيف الطريق إلى الإصلاح ؟

ونشكو من خيانة « زعمائنا » ، وعمالتهم لأعدائنا ، وتسخيرهم أوطانهم لمصلحة أعدائهم لقاء شهوة الحكم والسلطان .. فكيف الطريق إلى الإصلاح ؟

ونشكو .. ونشكو .. ونشكو .. ومر مايزيد على قرن من الزمان

ونحن نوهم أنفسنا ــ خادعين أو مخدوعين ــ أننا نسعى إلى الإصلاح ، ونبحث عن طريق الخلاص ..

والحصاد المر هو نهاية الطريق !

* * *

يحسب الذين يفكرون فى فتح المدارس ، وإقامة المصانع ، وتقوية الجيوش ، وتوفير الخبز **بلا قاعدة من عقيدة** ، أنهم هم القوم « العمليون » « الواقعيون » « العلميون » الآخذون بالوسائل الصحيحة ، المتنزهون عن « الغيبيات » ، البعيدون عن الخيالات ، الواصلون ــ لامحالة ــ إلى « الحلول العملية » التى تنقذ الناس من مشكلاتهم ..

ونحن لانقول لأحد لاتفتحوا المدارس ، ولا تقيموا المصانع ، ولا توفروا الخبز ، ولاتقووا الجيوش .. ولكنا نقول لهم بملء أفواهنا : إن صنعتم هذا كله بغير عقيدة صحيحة ، فالنتيجة هى ماترونه بأنفسكم من أحوال أمتكم بعد جهد مايزيد على قرن كامل من الزمان !

نفتح المدارس .. فماذا ندرس فيها لأبنائنا ؟!

ننشئ وسائل الإعلام « الحديثة » فماذا نبث فيها لشعوبنا ؟!

ننشئ المصانع فكيف يعمل مديروها وموظفوها وعمالها ؟! وأين يذهب إنتاجها ؟!

ونسلح الجيوش .. فكيف يصنع قادتها وزعماؤها ؟!

حدثنى اللواء عبد المنعم حسنى ، حاكم غزة فى زمن النكسة ، وقد جمعنى به معتقل واحد لعدة شهور(١٩٨) ، عن استجواب اليهود له يوم وقع أسيرا فى أيديهم بسبب دخول سيارته إلى الأرض اليهودية ــ خطأ ــ صبيحة النكسة .

قال إن أول سؤال وجهوه إليه ــ بعد أن أعلموه بخبر الحرب والهزيمة ولم يكن يعلم بأيهما ! ــ كان هو السؤال الآتى : أمازال يوجد إخوان مسلمون فى الجيش المصرى ؟!

قال لهم : بكل تأكيد لا ! ولكن لماذا تسألون ؟!

قالوا : إننا لانستطيع أن ننسى ماحدث فى عام ١٩٥٦ ، حين قام اثنان من ضباط الإخوان المسلمين بتعطيل الزحف اليهودى ست ساعات كاملة عند ممر « مِتْلاَ » حتى قتلا على مدفعيهما !

وهكذا لايفزع اليهود من المدفع فى ذاته ، فعندهم ــ دائما ــ ماهو أفتك منه !

ولكنهم يفزعون من عقيدة الرجل الذى يقاتل وراء المدفع ..

---

(١٩٨) كان اليهود قد اعتقلوه صبيحة النكسة ثم أفرجوا عنه ، ثم اعتقله جمال عبد الناصر لأسباب لا يعرفها هو ! وظل فى معتقل « القناطر » عدة أشهر حتى مات جمال عبد الناصر فأفرجوا عنه !

يفزعون من لا إله إلا الله .. لأنها أفتك من كل مايملكون من سلاح فتاك !

والروس فى أفغانستان لايفزعون من السلاح .. فليس لدى المجاهدين الأفغان سلاح يذكر أمام الطائرات الفتاكة والدبابات المدمرة والقنابل الحارقة والغازات السامة وكل وسائل الإبادة الوحشية التى يستخدمها الروس . ولكنهم يفزعون من لا إله إلا الله ، لأنها هى التى حفظت عزيمة المجاهد الأفغانى سبع سنوات متوالية أمام هجومهم الوحشى ، بصرف النظر عن النتيجة النهائية التى يمكن أن تسفر عنها المعركة فى هذا الجانب أو ذاك .

ومرة أخرى لانقول أعطوا الجندى لا إله إلا الله ولاتعطوه المدفع ، كما قد يفسر كلامنا صاحب سذاجة حقيقية أو سذاجة مصطنعة ! إنما نقول : إن المدفع وحده لايكسب المعركة ، مالم يكن الرجل الذى يقاتل وراءه صاحب عقيدة .. فلنشتر المدفع نعم ، ولكن فَلْنُقِمْ إلى جواره رجلا يؤمن حقا بلا إله إلا الله .. عندئذ لاتستطيع الذئاب أن تنهش الوطن الإسلامى وهى آمنة كما تصنع اليوم ! ولهذا السبب ذاته يحرص الأعداء ــ وعملاؤهم فى الداخل ــ أن يخرجوا من الجيوش كل من يؤمن إيمانا حقيقيا بلا إله إلا الله ، لأنهم يعرفون جيدا حقيقة هذا الدين ، ويعرفون ماذا يمكن أن تصنع لا إله إلا الله حين يعود لها فى القلوب مقتضاها الحقيقى الذى كان لها يوم أنزلت من عند الله !

« الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ..» [199]

* * *

ونعود إلى « مشاكلنا » .. !

يقول « الواقعيون » « العمليون » « العلميون » : دعونا بالله من حديث العقيدة ! تعالوا ننظر إلى الواقع ! تعالوا إلى ملايين الأفواه المفتوحة والمعدات الجائعة .. ابحثوا معنا عن « حلول عملية » للمشاكل الاقتصادية التى يعانيها العالم الإسلامى فى تخلفه المزرى وفقره المدقع وكثرة سكانه وقلة موارده ..

ونقول : نعم ! ابحثوا ! مازلتم تبحثون منذ قرن كامل أو يزيد .. فبأى شئ خرجتم ؟!

إننا نحن ـ الخياليين ، الغيبيين ، الحالمين ، المثاليين [200] ـ نقول : إن الأرض الإسلامية ـ ببترولها ، بمعادنها ، بحاصلاتها الزراعية ، بمواردها المائية ، بمساحتها الشاسعة المتصلة ، بقوتها البشرية ـ هى ـ بفضل الله ـ أغنى بقعة فى الأرض ! ولكن أهلها هم أفقر أهل الأرض اليوم وأكثرهم مشاكل ..

---

(١٩٩) سورة البقرة [١٤٦] .

(٢٠٠) كلمة المثالية فى مصطلحهم كلمة ذم لا مدح ! بل هى فى عرفهم من أشد مايذم به إنسان ! لأنها تعنى ـ عندهم ـ الشخص الذى يشغل نفسه بالأحلام غير القابلة للتحقيق . ويترك مشاكل « الجماهير » دون حل حقيق !

لماذا ؟ !

هل كان المسلمون فقراء يوم كانوا مسلمين حقا ، يحققون فى واقع حياتهم مقتضيات لا إله إلا الله كلها ، ومن بينها عمارة الأرض بمقتضى المنهجْ الربانى ، وطلب العلم ، وإعداد القوة للأعداء ؟ !

أم كان المسلمون هم أكثر أهل الأرض ثراء وأكثرهم تقدما وأكثرهم تمكنا فى الأرض ؟

ثم لما تخلفوا عقيديا (٢٠١) ، فتخلفوا علميا واقتصاديا وحربيا وسياسيا وفكريا وأخلاقيا .. (٢٠٢) غلبت عليهم أوربا الصليبية فعدت على أرضهم ، وسرقت خيراتهم ، وأذلتهم واستعبدتهم ، وامتصت دماءهم ، فتضخمت أوربا على حسابهم ، وزادوا هم هزالا حتى صاروا إلى حالتهم التى صاروا إليها اليوم .

واليوم يسعون إلى تخليص أنفسهم مما حل بهم ، رافضين الرجوع إلى المنهج الربانى ، باحثين عن الاشتراكية مرة ، وعن التصنيع مرة ، وعن الاقتراض من الدول « الكبرى » مرة .. ثم تزداد المشاكل تعقدا فى كل مرة . وتهبط عملات البلاد إلى الحضيض ، وتثقل الديون

---

(٢٠١) راجع الحديث عن « التخلف العقيدى » فى فصل « آثار الانحراف » من كتاب « واقعنا المعاصر » .

(٢٠٢) وراجع كذلك بيان الصلة بين التخلف العقيدى والتخلف العلمى والحضارى والاقتصادى والحربى والسياسى .. الخ . فى نفس الفصل .

الميزانيات ، وينحط الإنتاج ، ويزداد الجوع .. وتفسد معه الأخلاق ، أو تزداد فسادا إلى فساد !

ولن نقول للناس : هلموا استردوا سيادتكم على أرضكم ومواردكم ، واطردوا الغاصبين الذين استعبدوكم وسرقوكم وامتصوا دماءكم ، فهذا هو السبيل لاستعادة ماكان لكم ذات يوم من قوة وتمكن ..

مع أن هذا صحيح فى ذاته .. ولن يعود المسلمون إلى ماكانوا عليه من قوة وثراء وتمكن إلا حين يستردون سيادتهم على أرضهم ومواردهم ، ويمنعون عمليات السطو الضخمة التى مارسها العدو على كيانهم الاقتصادى كله ومازال يمارسها حتى اللحظة ..

مع أن هذا صحيح فى ذاته ، إلا أن بيننا وبين تحقيق ذلك جهادا طويلا قد يمتد إلى أجيال .. والأفواه الجائعة لن تصبر أياما معدودة فضلا عن أن تصبر مدى أجيال !

ولسنا نقول للقوم « العمليين » « الواقعيين » « العلميين » : كفوا عن التصنيع ، أو كفوا عن البحث عن موارد لميزانياتكم المرهقة المدينة المفلسة ..

ولكنا نقول لهم : إن أى جهد يبذل فى هذا السبيل دون رد الناس إلى المفهوم الصحيح للعقيدة ، وتربيتهم على المفهوم الصحيح ، سيظل كالإناء المملوء بالثقوب ، كلما حاولنا ملئه عاد إلى الفراغ !

إن التصنيع ـ كما يقولون فى لغتهم ـ جهد « حضارى » وليس مجرد جهد آلى تقوم به الآلة ..

أما نحن فنقول: إن عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى هى أحد مقتضيات لا إله إلا الله الكثيرة المتنوعة الشاملة . وحين يقوم التصنيع على منهج لا إله إلا الله فلن يسرق العمال الوقت كما يسرقونه اليوم فى ظل « الاشتراكية ! » معتمدين على التقرب إلى ذوى السلطان بالملق والنفاق والتجسس على إخوانهم ! ولن يسرق كبار الموظفين إنتاج المصنع ويبيعوه فى السوق السوداء ليحصلوا على الثروة الحرام من أيسر سبيل ! ولن يغمض الحكام عيونهم عن كبار اللصوص لأنهم شركاؤهم فى الغنائم كلها فى نهاية المطاف !

وعندئذ فقط يؤدى التصنيع دوره الحقيقى فى دفع الفقر وزيادة الدخل ورفع قيمة العملة المحلية وتوفير وسائل القوة للبلاد فضلا عن « البركة » التى تصيب حياة الناس حين يرفعون من حياتهم لعنة الربا ، فيرفع الله عنهم المحن ، ويفتح عليهم بركات من السماء والأرض ..

* * *

يشكو « المصلحون » كما قلنا من روح الفوضى والارتجال وفقدان الروح العلمية والعملية فى تناول المشكلات ..

وهذا كله صحيح .. ولكن ما سببه ؟

ألم يحاول أولئك « المصلحون » خلال قرن كامل من الزمان أن يصلحوا كل هذه العيوب ؟

فلماذا خابوا ؟ !

إن المنطقة التى انتشر فيها الإسلام بقدر من الله ، يقع معظمها ـ كما أوضحنا فى كتاب « واقعنا المعاصر » ـ فى المنطقة الحارة والمنطقة المعتدلة الحارة (إلا ماندر منها) ، وهذه البيئة ـ بطبيعتها ـ بيئة فوضوية تكره النظام ، عفوية تكره التخطيط ، قصيرة النفس تشتعل حماسة ثم تنطفئ حماستها بعد قليل قبل أن تكمل إنجاز ماتحمست له !

ومن هناك التقطها الإسلام ، فأنشأ منها « خير أمة أخرجت للناس » .

وما أحب أن أكرر هنا ماقلته هناك ..

ولكن هذه الأمة تعلمت من دينها الانضباط والنظام وطول النفس والروح العملية والنظرة الموضوعية فى خط مضاد تماما لأثر البيئة الفوضوية الارتجالية المبعثرة .. وكان ذلك أثرا من آثار العمل بمقتضيات لا إله إلا الله الكثيرة المتنوعة الشاملة . فلما انحسر تأثير الإسلام ، حين أفرغت لا إله إلا الله من مضمونها الحقيقى ، وأصبح كل المطلوب منها هو التصديق والإقرار ، عاد أثر البيئة هو المسيطر على الناس ، وعاد الناس إلى فوضويتهم ، وعفويتهم ، وتبعثرهم ، وقصر نفسهم ..

ويشكو « المصلحون » من ذلك ، ولهم الحق ..

ولكن كيف السبيل إلى إصلاح هذا الأثر الطاغي للبيئة فى نفوس الناس ، فى غيبة العنصر الواحد الذى يمكن أن يتغلب على أثر البيئة ، وهو العقيدة بمفهومها الحقيقى ، كما أنزلها الله أول مرة ، وكما أدت أول مرة مهمتها كاملة فى حياة الأمة[٢٠٣] ؟ !

هل من سبيل ؟ !

* * *

حين نقول للناس : إن طريق الخلاص يبدأ بتصحيح مفاهيم الإسلام كلها بدءا بمفهوم لا إله إلا الله .. فنحن نعنى مانقول على وجه التحديد ..

إننا ندرك جيدا أن لنا مشكلات سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية وأخلاقية ضخمةً إلى حد يدعو كثيرا من الناس إلى اليأس من الإصلاح .

ولكنا ندرك كذلك أن أى محاولة للإصلاح لا تضع فى حسابها عودة الناس إلى حقيقة الإسلام ، هى محاولة فاشلة من أول الطريق ..

وتجربة قرن كامل كافية للإثبات ..

---

(٢٠٣) راجع إن شئت فصل « الصحوة الإسلامية » فى كتاب « واقعنا المعاصر » .

إن الذين يطمعون فى الإصلاح على الطريقة الغربية ـ الرأسمالية أو الشيوعية ـ بدعوى أن أوربا ـ بقسميها ـ تملك كل أسباب القوة والتمكين التى نحن محرومون منها ، فعلينا أن نتبع طريقهم لنصل إلى ذات النتائج التى وصلوا إليها من القوة والتمكين .. هؤلاء يغفلون عن مجرى السنن الربانية فى حياة البشر ، لأنهم محجوبون عن نور الله ، فيفكرون وهم محجوبون .

إن الذى يجرى فى أوربا الكافرة الجاحدة هو تحقيق لسنتين اثنتين على الأقل من سنن الله :

« فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ .. »[٢٠٤] .

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها . وهم فيها لا يبخسون »[٢٠٥] .

فقد كفرت أوربا ، وفى الوقت ذاته رغبت فى الحياة الدنيا وزينتها ، وبذلت فى سبيل ذلك جهدها ، فمكن الله لها فى الأرض حسب هاتين السنتين مجتمعتين .

ولكن يغفل « المصلحون » ذوو العقول المترجمة ، عن أمرين معاً هما كذلك من سنن الله .

الأمر الأول أن الله لا يمكّن للمسلمين بالطريقة ذاتها التى يمكّن بها

---

(٢٠٤) سورة الأنعام [٤٤] .
(٢٠٥) سورة هود [١٥] .

للكفار ! إنما يمكّن لهم فقط حين يستقيمون على طريقه .

« وعد الله **الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات** ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا »[(٢٠٦)] .

أما حين يبعدون عن طريقه فلا يمكّن لهم حتى يعودوا مرة أخرى إلى الطريق .

والأمر الثانى أن هذا التمكين ـ على الكفر ـ لا يستمر إلى الأبد .. إنما هو مرحلة زمنية محدودة يقدرها الله ـ سبحانه وتعالى ـ ثم تكتمل السنة بالتدمير على الكافرين :

« فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين »[(٢٠٧)] .

وقد بدأ اليوم يظهر للغرب ذاته أن حضارته آخذة فى الانهيار ، مهما بدا أن ذلك بعيد الحدوث !

« فهل ينظرون إلا سنة الأولين ؟ فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن

---

(٢٠٦) سورة النور [٥٥] .

(٢٠٧) سورة الأنعام [٤٤ـ٤٥].

تجد لسنة الله تحويلا »[٢٠٨] .

وذلك كله فضلا عن حقيقة ضخمة تغفل عنها أوربا الكافرة ـ لأنها كافرة ـ أما الذين يقولون إنهم مسلمون فلا ينبغى لهم أن يغفلوا عنها ، وإلا أصبحوا ـ مثل « إخوانهم » ـ كافرين !

إن الذى تستمتع به أوربا ـ على أنه محدود الأمد ، وخالٍ من البركة التى يخص بها الله المؤمنين وحدهم ـ هو متاع الحياة الدنيا وحدها ، وليس لهم فى الآخرة إلا النار :

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ، وحبط ماصنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون »[٢٠٩] .

« والذين كفروا يتمتعون ، ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم » .[٢١٠]

أما المسلمون فإنهم لا يسعون لهذا ! إنما وعدهم الله الاستخلاف والتمكين والتأمين فى الأرض ـ وهو أقصى مايطمع فيه الذين يريدون الحياة الدنيا ـ ووعدهم كذلك أن يفتح عليهم فى الحياة الدنيا بركات من السماء والأرض ، محجوبة عن الكفار مهما كثرت عندهم

---

(٢٠٨) سورة فاطر [٤٣] .
(٢٠٩) سورة هود [١٥ ـ ١٦].
(٢١٠) سورة القتال [١٢] .

الخيرات ، مع طمأنينة القلب التى يفتقدها الكفار لأن طريقها هو ذكر الله وهم لا يذكرونه .. ووعدهم فوق ذلك كله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ورضوان من الله أكبر :

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم **بركات** من السماء والأرض »[٢١١] .

« الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** »[٢١٢] .

« وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ومساكن طيبة فى جنات عدن . ورضوان من الله أكبر . ذلك هو الفوز العظيم »[٢١٣] .

فمنذا الذى يستبدل النار بالجنة ، ويزعم بعد ذلك أنه من المسلمين ؟ !

* * *

طريق الخلاص هو تصحيح المفاهيم الإسلامية كلها بدءا بمفهوم لا إله إلا الله ..

---

(٢١١) سورة الأعراف [٩٦] .

(٢١٢) سورة الرعد [٢٨] .

(٢١٣) سورة التوبة [٧٢] .

ولسنا نزعم للناس أن هناك عصا سحرية ستمتد إليهم فتحل لهم مشكلاتهم بمجرد أن يصححوا فى نفوسهم مفاهيم الإسلام ، ويعودوا إلى ممارسته فى عالم الواقع ..

بل نحن ننذرهم حربا ضروسا يشنها العالم كله عليهم ، كما يشن الكفر حربه على المسلمين اليوم فى أفغانستان .. فضلا عن الجهد « الموضوعى » الذى يجب أن يبذلوه لإيجاد الحلول العملية لمشكلاتهم ، مستمدة من شريعة الله ، ومنهجه الذى ينبغى أن يحكم الحياة ، سواء فى إزالة التخلف الاقتصادى أو العلمى أو الحضارى أو التكنولوجى أو الحربى أو الفكرى أو السياسى .. الخ .. الخ .. الخ ..

وهنا قد يقول قائل : إذا كنا سنبذل الجهد فى الحالتين ، فلماذا نتعب أنفسنا فوق الحد .. لماذا لا نأخذ الحلول الجاهزة من أوربا - غربها أو شرقها على مزاج كلٍّ منا - ونوفر على أنفسنا عداء العالم كله لنا ، والجهد الذى سنبذله فى مواجهة ذلك العداء ؟ !

والجواب على هذا التساؤل هو تجربة قرن كامل !

قرن كامل لم تحل فيه المشاكل الأساسية بل زادت تعقدا وحدّة ، فضلا عن المزيد من الهوان والذل والضياع والتيه ..

وإنها لحماقة مرة أن يستزيد الإنسان من السم ، ويتوهم فى كل مرّة أنه مقبل على الشفاء !

أما طريق الإسلام فهو طريق شاق نعم .. مجهد نعم .. محفوف بالمخاطر نعم .. ولكنه طريق الأحرار ..

أما طريق العبيد .. فهو طريق العبيد !

* * *

ولا إله إلا الله التى ندعو إليها ليست هى التى دعا إليها المرجئة القدامى أو المحدثون !

إن التى دعا إليها المرجئة ـ القدامى والمحدثون ـ وهى « التصديق والإقرار » ، لا تغير شيئا من الواقع المر الذى يعيشه الناس اليوم ، فضلا عن كونها هى التى تصد الشباب « المثقف » عن الإسلام ، وتبعده عن الطريق الأوحد الذى يتحقق فيه الخير الحقيقى .. خير الدنيا والآخرة على السواء ، لأننا حين نقول لذلك الشباب المفتون بالغرب إن المجتمعات القائمة اليوم إسلامية ، وإن هذا الغثاء الذى يعيش اليوم هو « المسلمون » .. فكيف نتوقع منه أن يتجه إلى الإسلام لحل مشكلة واحدة من مشكلاته ؟ ! وكيف نطمع فى أن يقيم وجهه[٢١٤] ، ويقيم رقبته الملوية نحو الغرب ؟ !

إنما لا إله إلا الله التى ندعو إليها هى التى أنزلها الله فى كتابه المنزل ،

---

(٢١٤) يقول تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا » [سورة الروم : ٣٠] .

وعلمها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه ، ومارسها السلف الصالح رضوان الله عليهم .

إنها لا إله إلا الله ذات المقتضيات ..

توحيد الاعتقاد . توحيد العبادة . توحيد الحاكمية . التخلق بأخلاق لا إله إلا الله . القيام بالتكاليف الربانية التى تشمل طلب العلم ، وعمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى ، وإعداد العدة لأعداء الله ، ونشر الدعوة فى الأرض ، والجهاد فى سبيل الله .

وحين تبرأ لا إله إلا الله فى قلوب الناس مما أصابها من الفكر الإرجائى ، خاصة فكر المرجئة المحدثين الذى أفرغها من كل مقتضياتها على الإطلاق ..

حين يصبح مقتضاها فى حياة الناطقين بها أن يعبدوا الله وحده بلا شريك ، وأن يقيموا حياتهم على شريعة الله ومنهجه ، وأن يجاهدوا فى الله حق جهاده ..

يومئذ ستتغير حياتهم كلها .. وينفضون عنهم الهوان والذل ، والضياع والتيه ، والفقر والجهل والمرض ، ويمكّن الله لهم مرة أخرى فى الأرض كما وعد الله سبحانه .. لا بعصا سحرية ، ولكن بالجهد والعرق والدماء والدموع .. ولكنه لن يكون كالجهد الذى يبذلونه اليوم فى التيه ، والعرق الذى يبذلونه فى الذل ، والدماء التى يبذلونها ضريبة

لذلك الذل ، والدموع التى يسكبونها حسرة على الضياع ..

إنما ستكون كلها فى سبيل الله .. فيبارك الله بها فى الحياة الدنيا .. ويجزى عليها فى الآخرة بالجنة والرضوان .

مفهوم العبادة

من أخطر الانحرافات التى وقعت فيها الأجيال المتأخرة من المسلمين ـ بعد انحرافهم فى فهم لا إله إلا الله ـ انحرافهم فى تصور مفهوم العبادة .

وحين يعقد الإنسان مقارنة بين المفهوم الشامل الواسع العميق الذى كانت الأجيال الأولى من المسلمين تفهمه من أمر العبادة ، والمفهوم الهزيل الضئيل الذى تفهمه الأجيال المعاصرة ، لايستغرب كيف هوت هذه الأمة من عليائها لتصبح فى هذا الحضيض الذى تعيشه اليوم ، وكيف هبطت من مقام القيادة والريادة للبشرية كلها ، لتصبح ذلك الغثاء الذى تتداعى عليه الأمم تنهشه من كل جانب ، كما تنهش الفريسةَ الذئابُ . ويعلم الإنسان فى الوقت ذاته الطريق الذى ينبغى أن تسلكه الصحوة الإسلامية وهى تجاهد لرفع هذا الغثاء من حضيضه الذى يعيش فيه ، ليعود كما أراده الله أن يكون : « خير أمة أخرجت للناس » [1]

كان المفهوم الصحيح للعبادة فى حس الأجيال الأولى أن عبادة الله

(١) سورة آل عمران [١١٠]

هى غاية الوجود الإنسانى كله ، كما فهموا من قوله تعالى : « وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »[2] .

إن هذه الآية الكريمة كانت تمثل فى حسهم معنى هائلا جدا ، وعميقا جدا ، وشاملا لكل حياة الإنسان . فالقرآن نازل بلغتهم ، وهم يفهمون إيحاءات تلك اللغة ، ويدركون أسرار بلاغتها . فيدركون من معنى الآية أن غاية الوجود الإنسانى كله محصورة فى العبادة لاتتعداها إلى شئ غيرها على الإطلاق . فالنفى والاستثناء هما أقوى صور الحصر والقصر فى اللسان العربى . ومعناهما النفى البات من جهة والحصر الكامل من الجهة الأخرى : نفى أى غاية للوجود البشرى غير عبادة الله ، وحصر غاية هذا الوجود كله فى عبادة الله ![3]

---

(٢) سورة الذاريات [٥٦]

(٣) يثير بعض الناس جدلا ذهنيا لا طائل وراءه ، مفاده أن الإنسان خلق للابتلاء لا للعبادة ، استنادا إلى قوله تعالى: «إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه» [سورة الإنسان: ٢] وقوله تعالى: «خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً» [سورة الملك : ٢] وقوله تعالى : « إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً» [سورة الكهف: ٧] والقرآن لايناقض بعضه بعضا إنما يفسر بعضه بعضا ويفصله . فلا تناقض بين هذه الآيات جميعا ، إذ أن الابتلاء الذى يتعرض له الإنسان فى حياته الدنيا هو جعل ما على الأرض زينة لها ثم اختبار الإنسان فى موقفه من هذه الزينة : هل يلتزم فيها بعبادة الله، أى يقف فى استمتاعه بها عند ماأحل الله ، أم يعبد الشيطان فيتجاوز حدود الله ؟ ومن ثم تصبح عبادة الله هى المطلب ، وهى غاية الوجود الإنسانى ولاشئ سواها .

وكانوا إلى جانب ذلك يحسون إحساسا صادقا بعظمة الله ـ جل جلاله ـ فيحسون تبعا لذلك بما ينبغي للعبد ـ فى مقام عبوديته ـ تجاه الله ـ فى مقام ألوهيته ـ من إخلاص العبودية له . وإخلاص العبادة .. سواء .

ومن ثم لم ينحصر مفهوم العبادة فى حسهم فى نطاق الشعائر التعبدية وحدها ، كما انحصر فى حس الأجيال المتأخرة التى جاءت بفهم للإسلام غريب عن الإسلام .

إن شعائر التعبد لا يمكن بداهة أن تكون هى كل « العبادة » المطلوبة من الإنسان . فمادامت غاية الوجود الإنسانى كما تنص الآية الكريمة محصورة فى عبادة الله ، فأنّى يستطيع الإنسان أن يوفى العبادة المطلوبة بالشعائر التعبدية فحسب ؟ !

كم تستغرق الشعائر من اليوم والليلة ؟ وكم تستغرق من عمر الإنسان ؟

وبقية العمر ؟ وبقية الطاقة ؟ وبقية الوقت ؟ أين تنفق وأين تذهب ؟ تنفق فى العبادة أم فى غير العبادة ؟ وإن كانت فى غير العبادة فكيف تتحقق غاية الوجود الإنسانى التى حصرتها الآية حصرا كاملا فى عبادة الله ؟ وكيف يجوز للإنسان ـ من عند نفسه ـ أن يجعل لوجوده ـ أو لجزء من وجوده ـ غاية لم يأذن بها الله ؟

* * *

إن الإنسان لايستطيع ـ مهما حاول ـ أن يقضى واجب العبادة المفروض عليه نحو الله من خلال الشعائر التعبدية وحدها ، من صلاة وصيام وزكاة وحج ..

ليس الإنسان مَلَكاً .. ولن يكون .

والملائكة ـ وحدهم فيما نعلم ـ هم ذلك الخلق النورانى الشفيف الذى يسبح الليل والنهار لايفتر : « ومن عنده لايستكبرون عن عبادته ولايستحسرون . يسبحون الليل والنهار لايفترون »[4] وهم ـ وحدهم ـ الذين لايعصون الله فى أمر من الأمور : « لايعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون مايؤمرون »[5] .

أما الإنسان ، ذلك الكائن المخلوق من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله ، المشتمل ـ إلى جانب روحه الشفيفة ـ على جسد يكدح وينزع ، ويأكل ويشرب ، ويتعب وينام ، وعقل يفكر فى تدبير مطالب الحياة الحسية والمعنوية ، ويسرح بخواطره فى شتى المجالات ، فإنه لايستطيع أن يعبد الله على طريقة الملائكة التى تسبح الليل والنهار لاتفتر ، ولاتنشغل عن التسبيح ..

ولو شاء الله أن يكلف الإنسان العبادة على طريقة الملائكة لمنحه طاقة الملائكة فى التسبيح الدائم بغير فتور ، ولركبه منذ البدء تركيبا

---

(٤) سورة الأنبياء [١٩ ـ ٢٠]

(٥) سورة التحريم [٦]

آخر ، لايفتر ولايكل ولايمل ، لأن الله من رحمته لايكلف نفسا إلا وسعها ، ويجعل العبادة المفروضة على كل كائن من خلقه متناسبة مع طبيعة ذلك الكائن ، ومع حدود طاقاته ..

والكون كله ـ بما فيه من كائنات ـ عابد لربه بأمر ربه(٦) .. وكلٌّ على طريقته الخاصة كما هيأه الله :

« وإن من شئ إلا يسبح بحمده ، ولكن لاتفقهون تسبيحهم »(٧) .

« ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض ، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، وكثير من الناس .. »(٨)

« ثم استوى إلى السماء وهى دخان ففال لها وللأرض ائتياطوعا أو كرها ، قالتا : أتينا طائعين »(٩) .

ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد شاء أن يخلق الإنسان على نمط متفرد بين جميع الكائنات ..

« ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، الذى أحسن كل شئ خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة

---

(٦) فيما عدا العصاة من الجن والإنس .
(٧) سورة الإسراء [٤٤]
(٨) سورة الحج [١٨]
(٩) سورة فصلت [١١]

من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ماتشكرون »[١٠] .

فعدّد مواهبه ، وعلمه من العلم مايناسب المهمة التى خلقه من أجلها :

« وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة »[١١] .

« وعلم آدم الأسماء كلها »[١٢]

وسخر له من الأدوات مايعينه على هذا الأمر :

« وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا منه »[١٣]

وهيأه من خلال ذلك كله لحمل الأمانة التى أشفقت من حملها السماوات والأرض :

« إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان .. »[١٤]

وهو فى ذلك كله ـ ومن ذلك كله ـ فى كبد دائم وفى كدح :

« لقد خلقنا الإنسان فى كبد »[١٥]

---

(١٠) سورة السجدة [٦ ـ ٩]
(١١) سورة البقرة [٣٠]
(١٢) سورة البقرة [٣١]
(١٣) سورة الجاثية [١٣]
(١٤) سورة الأحزاب [٧٢]
(١٥) سورة البلد [٤]

« يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه »[16]

ثم إن الله فرض عليه عبادة تناسب تكوينه وتناسب مهمته : تناسب طاقاته المتنوعة ، والكبد الذى يعانيه ، والكدح الذى يلازمه ، وتناسب فى الوقت ذاته مواهبه التى اختص بها بين الكائنات ، ومجالات نشاطه الواسعة ، والأمانة التى يحملها .. عبادة لاتعنته فى شئ ، ولا تكلفه مالايطيق ، وتتسع فى الوقت ذاته حتى تشمل وجوده كله وعمره كله من لحظة التكليف إلى لحظة الموت ، لا تند عنها لحظة واحدة من لحظات الوعى ، ولا لمحة ولا خاطر ولا لون من ألوان النشاط :

« قل : إن صلاتى ونسكى **ومحياى ومماتى** لله رب العالمين لاشريك له .. »[17]

تلك هى العبادة التى كلف بها الإنسان ، تشمل الصلاة والنسك ـ أى الشعائر التعبدية ـ وتشمل معها كل الحياة .. وكذلك فهم الجيل الأول ـ رضوان الله عليهم ـ معنى العبادة ..

لم يحصروها قط فى داخل الشعائر التعبدية ، بحيث تصبح اللحظات التى يقومون فيها بأداء الشعائر التعبدية هى وحدها لحظات العبادة ، وتكون بقية حياتهم « خارج العبادة » !

---

(١٦) سورة الانشقاق [٦]

(١٧) سورة الأنعام [١٦٢ ـ ١٦٣]

إنما كان فى حسهم أن حياتهم **كلها** عبادة ، وأن الشعائر إنما هى لحظات مركزة ، يتزود الإنسان فيها بالطاقة الروحية التى تعينه على أداء بقية العبادة المطلوبة منه ، ولذلك كانوا يحتفلون بها احتفالا خاصا ، كما يحتفل المسافر بالزاد الذى يعينه على الطريق ، وباللحظة التى يحصل فيها على الزاد .

كانوا كما وصفهم ربهم : « يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم »[١٨]

أى فى جميع أحوالهم ..

وكما قلنا فى أكثر من موضع فى أكثر من كتاب ، لم يكن ذكرهم مجرد الذكر باللسان ، ولا مجرد الذكر بالقلب ، إنما كان إلى جانب هذا وذاك **عملا** يؤدى بروح العبادة لله .

فأما الذكر على طريقة الطقطقة بالمسابح فلم يؤثر عنهم ـ رضوان الله عليهم ـ .

وأما الذكر على طريقة الخلوة التعبدية التى يغيب فيها الإنسان عن الواقع المحسوس ، وينقطع عن الدنيا من أجل أن يخلو إلى ربه ، فينقطع بذلك عن العمل فى واقع الأرض .. فهذا أيضا لم يؤثر عن ذلك الجيل الفريد ..

---

(١٨) سورة آل عمران [١٩١]

ولما همّ بذلك قوم من المسلمين نهاهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه الشيخان :

« ذهب ثلاثة رهط إلى بيت من بيوت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسألوا عن عبادته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما أخبروا كأنهم تقالّوها . فقالوا : أين نحن من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ؟ قال أحدهم : أما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر ، وقال الآخر : أما أنا فأقوم الليل ولا أنام . وقال الثالث : أما أنا فلا أتزوج النساء . فلما سمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأعبدكم له ولكنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

إنما كانوا يقومون بالعبادة وهم يمارسون الحياة فى شتى مجالاتها ، وكانت عبادتهم الكبرى هى **العمل** فى شتى مجالات الحياة . كانوا يذكرون الله فيسألون أنفسهم : هل هم فى الموضع الذى يرضى الله عنه أم فيما يسخط الله ؟ فإن كانوا فى موضع الرضى حمدوا الله ، وإن كانوا على غير ذلك استغفروا الله وتابوا إليه :

« **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم** ـ ومن يغفر الذنوب إلا الله ـ ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها

الأنهار خالدين فيها . ونعم أجر العاملين »[19]

وكانوا يذكرون الله فيسألون أنفسهم : ماذا يريد الله منا فى هذه اللحظة؟ أى : ما التكليف المفروض علينا فى هذه اللحظة؟ فإذا كان التكليف : «فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة » [20] كان ذكر الله مؤديا إلى القيام بالجهاد فى سبيل الله .

وإذا كان التكليف : « وعاشروهن بالمعروف »[21] كان ذكر الله مؤديا إلى القيام بهذا الواجب الذى أمر به الله تجاه الزوجات .

وإذا كان التكليف : « قوا أنفسكم وأهليكم نارا »[22] كان ذكر الله مؤديا إلى القيام بتربية الأهل والأولاد على النهج الربانى الذى يضبط سلوكهم بالضوابط الربانية ، ويوجه مشاعرهم وأفكارهم وأعمالهم إلى مايرضى الله .

وإذا كان التكليف : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور »[23] كان مقتضى ذكر الله هو المشى فى مناكب الأرض وابتغاء رزق الله فى حدود الحلال الذى أحله الله ، لأنه إليه النشور ، فيحاسب الناس على ما اجترحوا فى الحياة الدنيا .

وإذا كان التكليف : « طلب العلم فريضة »[24] كان مقتضى

(١٩) سورة آل عمران [١٣٥ـ ١٣٦]

(٢٠) سورة النساء [٧٤]

(٢١) سورة النساء [١٩]

(٢٢) سورة التحريم [٦]

(٢٣) سورة الملك [١٥]

(٢٤) أخرجه ابن ماجه

ذكر الله هو السعى إلى طلب العلم من أجل عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى ، سواء كان العلم هو العلم الشرعى الذى يعرف به الإنسان الحلال والحرام ، والمباح والمندوب المكروه ، أو العلم بما فى الكون من طاقات ، لتحقيق التسخير الربانى الذى سخر الله به مافى السماوات والأرض للإنسان : « وسخر لكم مافى السماوات ومافى الأرض جميعا منه »[٢٥] وهو تسخير لايتم إلا بجهد علمى يبذله الإنسان فى التعرف على خواص المادة ومدخرات الطاقة فى الكون ، وجهد بدنى يبذله فى تحويل الخامات والطاقات إلى عمران يحقق حاجات الناس فى الأرض ، كما يحقق لهم فوق ذلك الجمال والزينة التى أباحها الله .

وقد مرت بنا فى الفصل السابق تلك الآيات التى وصفهم فيها ربهم ، والدلالة الواضحة لتلك الآيات :

« إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ، ربنا ماخلقت هذا باطلا ! سبحانك ! فقنا عذاب النار. ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ، ومالظالمين من أنصار. ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفّر عنا سيئاتنا ،

---

(٢٥) سورة الجاثية [١٣]

وتوفنا مع الأبرار. ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ولاتخزنا يوم القيامة. إنك لاتخلف الميعاد. فاستجاب لهم ربهم: أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض. فالذين هاجروا، وأخرجوا من ديارهم، وأوذوا فى سبيلى، وقاتلوا وقتلوا، لأكفرن عنهم سيئاتهم، ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، ثوابا من عند الله. والله عنده حسن الثواب»[(٢٦)]

ودلالتها ـ كما أشرنا من قبل ـ أن الله سبحانه قد استجاب للتفكر والتدبر والدعاء والضراعة حين تحول هذا كله إلى عمل فى واقع الحياة.

ومن مثل هذه التوجيهات المبثوثة فى كتاب الله، ومن تعليم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهم المؤمنون من الجيل الأول والأجيال التالية له، أن العبادة المطلوبة لاتنحصر فى الشعائر التعبدية، وأنها أوسع من ذلك وأشمل..

وفهموا أن الصلاة والنسك ـ أى الشعائر ـ إنما هى المنطلق الذى ينطلق منه الإنسان ليقوم ببقية العبادة، التى تشمل الحياة كلها، بل الموت كذلك!

والموت فى حد ذاته لايمكن أن يكون عبادة بطبيعة الحال لأنه

---

(٢٦) سورة آل عمران [١٩٠ـ ١٩٥]

لاخيار للإنسان فيه . ولكن المقصود فى قوله تعالى : « ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لاشريك له » هو أن يموت الإنسان غير مشرك بالله ، وذلك هو الحد الأدنى الذى يكون به الإنسان ـ فى موته ـ عابداً لله . أما الحد الأعلى فهو أن يكون موته استشهادا فى سبيل الله .. وتلك قمة العبادة ..

وبهذا النهج وحده .. أى بأداء تلك العبادة الشاملة المتكاملة ، التى تشمل الحياة والموت ، تتحقق غاية الوجود الإنسانى ، ويكون الإنسان قد قام ـ قدر جهده ـ بالعبادة المطلوبة تجاه الله ..

ولقد يبدو هذا المعنى غريبا فى حس « المسلم المعاصر » ، أو معتسفا ، بعد إذ تعودنا منذ أجيال أن ننظر إلى الشعائر التعبدية على أنها هى كل العبادة المطلوبة من المسلم ، وأنه إذا أداها فقد أدى كل ماعليه من العبادة ، ولم يعد لأحد أن يطالبه بالمزيد !

ولكن مرجعنا فى تحديد المفاهيم الإسلامية ينبغى أن يكون هو الكتاب والسنة ، والصورة التطبيقية الصحيحة للكتاب والسنة كما مارسها الجيل الأول ـ رضوان الله عليهم ـ الذين شهد لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنهم خير القرون قاطبة :

« خيركم قرنى ، ثم الذى يليه »[٢٧]

---

(٢٧) أخرجه الشيخان

هذا هو المرجع .. وليس ماطرأ على المسلمين خلال مسيرتهم التاريخية الطويلة من قصور أو انحراف ..

ووقوع القصور أو الانحراف خلال تلك المسيرة الطويلة أمر قد لايستغرب من البشر من أبناء آدم :

« ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما »[(٢٨)]

ولكن العجب ـ فى الغربة التى يعيشها الإسلام اليوم ـ أن نتبدل بالصورة الصحيحة صورة خاطئة ، ثم نصر على أنها هى الصورة الصحيحة !.. فإذا جاء أحد يعرض علينا الصورة الصحيحة كما هى فى الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح ، اتهمناه بالغلو ، وامتنعنا عن التصحيح !

* * *

جاء فى الكتاب المنزل ـ كما بينا من قبل ـ أن الله قد خلق الجن والإنس لغير شئ إلا ليعبدوه :

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »[(٢٩)]

ثم إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ فرض على الناس تكاليف :

« واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، وبذى

---

(٢٨) سورة طه [١١٥]

(٢٩) سورة الذاريات [٥٦]

القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذى القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، وماملكت أيمانكم »[٣٠]

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها[٣١] ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . إن الله نعما يعظكم به . إن الله كان سميعا بصيرا . يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم . فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلا »[٣٢] .

« فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة . ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما »[٣٣] .

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لاتعلمونهم ، الله يعلمهم. وماتنفقوا من شئ فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لاتظلمون »[٣٤]

« وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا »[٣٥] .

---

(٣٠) سورة النساء [٣٦]

(٣١) وفى مقدمة الأمانات كلها الإقرار بالعبودية لله الواحد . ويشمل هذا الإقرار الاعتقاد الجازم بوحدانية الله . وأداء الشعائر التعبدية له وحده بلاشريك . وتحكيم شريعته فى كل أمر من الأمور .

(٣٢) سورة النساء [٥٨ـ ٥٩]

(٣٣) سورة النساء [٧٤]

(٣٤) سورة الأنفال [٦٠]

(٣٥) سورة النساء [١٩]

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه .. »[٣٦]

« وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان »[٣٧] .

وعشرات غيرها من التكاليف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والروحية والاعتقادية والأخلاقية ..

كما فرض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تكاليف :

« طلب العلم فريضة ... »[٣٨]

« إن الله كتب الإحسان على كل شئ . فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته »[٣٩]

« اجتنبوا السبع الموبقات . قيل : يارسول الله وماهن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات »[٤٠]

---

(٣٦) سورة الملك [١٥]

(٣٧) سورة الرحمن [٩]

(٣٨) أخرجه ابن ماجه

(٣٩) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه

(٤٠) أخرجه مسلم

« إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه ، وإذا شرب فليشرب بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله »[41]

« ياغلام : سَمِّ الله ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك »[42]

« أمرنا رسول الله بسبع ونهانا عن سبع . أمرنا بعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وتشميت العاطس ، وإبرار القسم أو المقسم ، ونصر المظلوم ، وإجابة الداعى ، وإفشاء السلام ، ونهانا عن خواتيم أو تختم بالذهب ، وعن شرب بالفضة وعن المياثر ، وعن القسى ، وعن لبس الحرير والإستبرق والديباج »[43]

« ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون مالا يؤمرون . فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن . ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن . ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »[44] .

وعشرات غيرها من التكاليف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والروحية والاعتقادية والأخلاقية ..

---

(٤١) أخرجه مسلم
(٤٢) أخرجه مسلم
(٤٣) أخرجه مسلم
(٤٤) أخرجه مسلم

فما موضع ذلك كله من العبادة التى بيّن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنها هى وحدها الغاية من خلق الجن والإنس ؟

هل تقع تلك التكاليف كلها فى داخل العبادة أم فى خارجها ؟

وإذا كانت فى خارجها فكيف يستقيم المعنى فى الآية الكريمة التى تحصر التكليف كله فى العبادة وحدها ، ولاشئ سواها ؟

لابد إذن ـ بداهة ـ ألا تنحصر العبادة فى الشعائر التعبدية وحدها كما ظنت الأجيال المتأخرة من المسلمين، وأن يكون معنى العبادة هو المعنى الشامل الواسع الذى تحمله الآيتان الكريمتان :

« قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين »[٤٥] .

وواضح أن الخطاب فى الآيتين موجه لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكنه موجه للأمة كلها من ورائه ، وأن الخصوصية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هى فى كونه أول المسلمين ، وليست فى التكليف ذاته ، الذى هو تكليف لكل مسلم يشهد أنه لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

وكذلك فهمت الأجيال الأول معنى العبادة كما فرضها الله ..

كان إحساس المسلم فى تلك الأجيال بواجبه فى الجهاد فى سبيل

---

(٤٥) سورة الأنعام [١٦٢ـ ١٦٣]

الله كإحساسه بواجبه فى الصلاة . هنا يعبد الله وهناك يعبد الله . ولاتغنى إحدى العبادتين عن الأخرى ، لأن كلا منهما ـ بمفردها ـ لاتحقق المعنى الكامل للعبادة التى يريدها الله .

وكان إحساسه بضرورة الزواج لكى يحصن نفسه من الفاحشة ، ولكى يتخذ السبيل إلى تكثير الأمة المسلمة التى تجاهد لاقتلاع الشرك من الأرض ، ونشر التوحيد وإقامة شريعة الله فى ربوعها ، هو إحساس العبادة . ولايتناقض فى حسه معنى العبادة مع الإحساس بمتعة الجسد مادامت فى حلال أباحه الله . ولما قال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « وفى بضع أحدكم صدقة » دهشوا بادئ الأمر ، وقالوا : يارسول الله إن أحدنا ليأتى زوجه شهوة منه ثم يكون له عليها أجر ؟! فبين لهم الرسول المعلم ـ صلى الله عليه وسلم ـ : قال : « أرأيت لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فإذ وضعها فى حلال فله عليها أجر »[٤٦] ومن ثم لم يعودوا بعد ذلك يدهشون . وعلموا أن نشاط الجسد الطبيعى هو فى الإسلام عبادة مادام يبتغى فيه وجه الله ، ويلتزم فيه بأوامر الله .

كذلك كان إحساس المسلم بسعيه فى طلب الرزق ، وطلبه للعلم ، وعمارته للأرض ، وكل نشاط جسده وعقله وروحه .. كلها عبادة .

---

(٤٦) أخرجه مسلم

عبادة على الحقيقة لا على المجاز. عبادة يقوم بها بذات الإخلاص الذى يؤدى به الصلاة .

ومن ثم حققت تلك الأمة ماحققته من منجزات فى كل اتجاه ، وما حققته من معجزات ..

وماكانت تلك الأمة لتقدر على دك حصون الشرك واقتلاعها بمثل هذه السهولة ، وبمثل هذه السرعة التى لامثيل لها فى التاريخ .

وماكانت لتقدر على إبراز تلك المثل الرفيعة التى أبرزتها فى عالم الواقع ، من إقامة العدل الربانى فى الأرض ، ونظافة التعامل ، والوفاء بالمواثيق ، وشجاعة النفس ، والبطولة الفذة فى ميدان القتال وميدان السلم سواء ..

وما كانت لتقدر على إنشاء حركتها العلمية الضخمه ، ولاحركتها الحضارية الفائقة ..

ما كانت لتقدر على ذلك كله ، ولا على شىء منه ، لولا هذا الإحساس العميق لديها بأنها فى ذلك كله تقوم بالعبادة التى خلق الله الإنسان من أجلها ، وتقوم به بذات الحس التى تؤدى به الصلاة ..

* * *

على أى صورة إذن ينبغى أن يعبد المسلم ربه ليحقق غاية وجوده التى خلقه الله من أجلها ، وحصر فيها غاية وجوده ؟

يعبده بادئ ذى بدء بتوحيده جل وعلا ..

أى بالإقرار بأنه لا إله إلا هو ـ سبحانه ـ المتفرد بالربوبية والألوهية ، المتفرد فى أسمائه وصفاته وأفعاله :

« فاعلم أنه لا إله إلا الله »[٤٧] .

« واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا »[٤٨]

وهذه العبادة الأولى ـ كما أسلفنا فى الفصل السابق ـ لها مقتضياتها التى لاتتم إلا بها ، وليست مجرد كلمة تنطق باللسان وينتهى الأمر و « تسدد الخانة » ، كما زعم الفكر الإرجائى للناس بغير سند من كتاب الله ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ومقتضياتها ـ كما مر بنا من قبل ـ هى الإسلام كله ! مع اختلاف فى درجة « الإلزام » .. فمن مقتضياتها مايتعلق بأصل الإيمان ـ كالاعتقاد بوحدانية الله بلا شريك ، والتوجه بالشعائر التعبدية إليه وحده بلاشريك ، وتحكيم شريعته وحدها بلا شريك ـ فهذا لايكون العبد مؤمنا إلا به ، ومنها مايتعلق بكمال الإيمان ـ وهو أخلاقيات لا إله إلا الله ، وبقية التكاليف التى فرضها الله ـ فلا يكون العبد كامل الإيمان إلا به[٤٩] .

---

(٤٧) سورة محمد [١٩]

(٤٨) سورة النساء [٣٦]

(٤٩) راجع الفصل السابق .

ثم تأتى الشعائر التعبدية فى موضعها **بعد الإقرار بلا إله إلا الله** ، الذى يعنى ـ كما أسلفنا القول ـ الإقرار بكل ماجاء من عند الله والالتزام به ..

وقد احتفى الإسلام حفاوة ظاهرة بالشعائر التعبدية لحكمة ظاهرة ، فهى التى تربط القلب ربطا دائما ومتجددا بالله ، وهى ـ كما بينا ـ محطات التزود التى يتزود فيها الإنسان بالزاد الذى يعينه على بقية الطريق .

وقد أحس المسلمون ـ دائما ـ بالأهمية الخاصة التى أولاها الإسلام لهذه الشعائر ، فاحتفلوا بها وركزوا عليها . ولكن الأجيال المتأخرة وقعت بشأن هذا التركيز فى مجموعة من أخطاء التصور وأخطاء السوك .

وكان الخطأ الأول ـ والأخطر ـ هو حصر العبادة المطلوبة كلها فى الشعائر التعبدية .

وقد ترتب على هذا التصور الخاطئ إخراج لا إله إلا الله بكل مقتضياتها الاعتقادية والسلوكية من دائرة العبادة ، فأصبحت العبادة تبدأ ـ فى حس الناس ـ بالصلاة ، ولا تبدأ بلا إله إلا الله !

ولقد كان مبدأ التفرقة فى أول الأمر قضية « اصطلاح » . فلا إله إلا الله « عقيدة » ، والشعائر « عبادات » ومع خطورة هذه التفرقة الاصطلاحية فى ذاتها ـ كخطورة التفرقة الاصطلاحية بين

« العبادات » و « المعاملات » ـ[٥٠] فإن الخطر كان محدود الأثر فى بادئ الأمر حين كانت « العقيدة » تؤخذ بمعناها الحقيقى الذى نزلت به من عند الله ، وفهمه السلف الصالح ، وهو توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات ، ومايقتضيه ذلك فى حياة الإنسان اعتقادا وفكرا وسلوكا .. فأما حين عمل الفكر الإرجائى على اختزال عقيدة التوحيد ، وإفراغها من مضمونها الحىّ كله ، وحصرها فى مجرد التصديق للنجاة فى الآخرة ، والإقرار اللفظى للنجاة فى الدنيا .. فقد تقلص جانب ضخم من « العبادة » الحقيقية التى افترضها الله على العباد ، وأصبح الباقى منها ـ حتى لو أُدِّىَ على أكمل صورة ـ قاصرا عن أن يوفى المعنى الحقيقى للعبادة التى خلق الله الخلق من أجلها ، وقال عنها سبحانه :

« وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »[٥١]

---

(٥٠) فرق علماء الإسلام تفريقا اصطلاحيا بين « العقيدة » و « العبادات » و « المعاملات » لمقتضيات « علمية » تخصصية . ولكن كان فى حسهم أن « الدين » يشملها كلها . ولايقتصر على أىٍّ منها . وأن أى واحدة منها ـ بمفردها ـ لاتمثل الدين سواء فى شموله وتكامله . أو فى كونه مفروضا على الناس للالتزام والتنفيذ .. ولكن حين حدث التخلخل خلال المسيرة التاريخية أثرت هذه التفرقة الاصطلاحية تأثيرا سيئا فى مفاهيم الناس . حين اقتصر مفهوم « العبادة » على أداء الشعائر التعبدية فحسب . وخرجت منها العقيدة والمعاملات .

(٥١) سورة الذاريات [٥٦]

وقد يبدو لأول وهلة أن الأمر ليس بهذه الخطورة ! وأن المسلمين ـ وإن اصطلحوا على أن مفهوم العبادة هو أداء الشعائر ـ لايمكن أن يكونوا فى دخيلة أنفسهم قد أغفلوا ركن الإسلام الأول وهو الإقرار بالشهادتين !

ولكن الحقيقة الواقعة فى حياة « المسلم المعاصر » تؤكد خطورة الأمر ..

فحين يوجد إدراك صحيح للعبادة ، وأنها تبدأ بالإقرار بالعبودية لله وحده دون شريك ، **قبل الصلاة والصيام والزكاة والحج** . لايمكن أن توجد الظاهرة القائمة اليوم فى حياة « المسلم المعاصر » وهى وجود ملايين من البشر يعتقدون أن الإنسان إذا أدى الشعائر التعبدية فهو مؤمن كامل الإيمان ، ولو تحاكم **راضيا** إلى شريعة غير شريعة الله ، وأن قضية التحاكم منفصلة تماما عن العبادة كما هى منفصلة تماما عن الإيمان .. لأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان »[٥٢] ! فذكر فى الحديث اعتياد المساجد ولم يذكر التحاكم إلى شريعة الله !!

وأقوال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الثابتة حق كلها .. ولكن الأجتزاء بحديث معين من أحاديث الإيمان منقطعا عن بقية

---

(٥٢) أخرجه الترمذى وابن ماجه وأحمد والدارمى . قال الألبانى : إن سنده ضعيف وكل طرقه كذلك . انظر كتابه « ضعيف الجامع الصغير » ١٨٤/١ .

الأحاديث التى تحدد حقيقة الإيمان أو تحدد نواقضه ، لايمكن أن يؤدى إلى إدراك صحيح .. وإلا فهل يعقل بداهة أن يطلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الشهادة لرجل بالإيمان (إن صح الحديث) لمجرد أنه يعتاد المساجد ، إذا كان الرجل واقعا فى شرك صريح ينقض لا إله إلا الله من أساسها ، وينقض أصل الإيمان ؟! أليس الإقرار بلا إله إلا الله ـ ومن مقتضياتها التحاكم إلى شريعة الله ـ شرطا لازما للإيمان قبل اعتياد المساجد وإقامة الصلاة وإن لم يذكر ذلك فى الحديث الآنف الذكر ، لأنه من المعلوم من الدين بالضرورة ، الذى بينته أحاديث أخرى للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما بينته الآيات المحكمات من كتاب الله ؟

ولقد كان المرتدون الذين قاتلهم أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ يقيمون الصلاة ويعتادون المساجد ، ومع ذلك لم يشهد لهم أحد بالإيمان ! بل قوتلوا وحوربوا لأنهم أعرضوا عن حكم واحد من أحكام الله ، مع إقرارهم ـ وتنفيذهم ـ لبقية الأحكام .. فكيف بمن يعرضون عن حكم الله كله ، ويُقْبِلُون راضين على حكم غير حكم الله ؟!

والناس اليوم قد يجهلون أن التحاكم إلى غير شريعة الله عن رضا وإرادة هو ارتداد عن الإسلام ينقض أصل الإيمان. ومانريد أن ندخل فى قضية الحكم على هذا الجيل من الناس ، وهل هم

معذورون بجهلهم أم غير معذورين ، فتلك قضية لا نخوض فيها أصلا للأسباب التى بيناها فى غير هذا الكتاب (٥٣) .

ولكنا الآن فى معرض البيان ..

إن إخراج لا إله إلا الله ـ ومقتضياتها ـ من دائرة العبادة ، وتوهم أن العبادة تبدأ بالشعائر ، وتنحصر فى الشعائر، قد أحدث اختلالات ضخمة فى حياة المسلم المعاصر لايستقيم معها إسلام . ولابد من تصحيحها فى التصور وفى السلوك معاً لتصحيح حياة المسلمين ، وإخراج الناس من الوهدة التى سقطوا فيها ، وأصبحوا ـ بسبب سقوطهم هذا ـ غثاء كغثاء السيل .

* * *

وكان من بين ماخرج من مفهوم العبادة حين انحصرت فى الشعائر التعبدية « العمل » بجميع أنواعه ، بدءا بالعمل السياسى المتمثل فى رقابة الأمة على الحاكم ، وتقديم النصح له ، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ليستقيم على أمر الله وشريعته ، ويطبق العدل الربانى كما أمره الله ، فيتمتع المجتمع بنعمة الإسلام التى منّ الله بها على عباده :

« اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا » (٥٤)

---

(٥٣) اقرأ إن شئت « قضية الحكم على الناس » ص ٤٣٩ ـ ٤٥٤ من كتاب « واقعنا المعاصر » .

(٥٤) سورة المائدة [٣]

يقول تعالى جل شأنه :

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم . فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول **إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر**. ذلك خير وأحسن تأويلا » (٥٥)

ويقول صلى الله عليه وسلم :

« مامن نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره . ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون مالا يؤمرون . فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » (٥٦)

فتحدد الآية الكريمة مصدر السلطة فى المجتمع المسلم : الله ورسوله . وتأمر بطاعة الله وطاعة الرسول طاعة مطلقة فى كل أمر أو نهى جاء فى كتاب الله أو فى سنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . ثم تأمر الآية بطاعة أولى الأمر لاقائمة بذاتها ، ولا مطلقة كطاعة الله ورسوله ، ولكن معطوفة على طاعة الله والرسول ، أى فيما أمروا به غير مخالف لما جاء من عند الله والرسول ، إذ أنه لاطاعة لمخلوق فى

---

(٥٥) سورة النساء [٥٩]

(٥٦) أخرجه مسلم

معصية الخالق : « إنما الطاعة فى المعروف »[٥٧]

ثم تبين الآية المرجع الذى يرجع إليه المسلمون فى أى نزاع يعرض لهم : الله والرسول . ولا أحد غير هذا المرجع . كما تربط الآية هذا الأمر ، وهو الرجوع إلى الله والرسول فى أى نزاع يعرض ، بالإيمان بالله واليوم الآخر ، أى بالعقيدة مباشرة. وهكذا تصبح القضية السياسية الكبرى وهى تحديد مصدر السلطة ، والمرجع الذى يرجع إليه فى حالة النزاع ، قضية عقيدية مرتبطة بالأصل الذى تقوم عليه العقيدة كلها ، وهو : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

أما الحديث الذى أوردناه فيحدد سلوك الأمة حين تقع مخالفة لحكم الله ، فيقرر أن تلك المخالفة تستوجب المجاهدة باليد أو باللسان أو بالقلب لرد الأمور إلى الأصل الذى تردّ إليه الأمور كلها ، وهو ماجاء من عند الله ومن عند رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . ويربط هذا السلوك ربطا مباشرا بقضية الإيمان ، وذلك بنفى الإيمان نفيا باتا عمن يرى المخالفة ولايقوم بمجاهدتها بدرجة من الدرجات الثلاث وأدناها الكراهية بالقلب ، إذ يقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » .

وهكذا يصبح « العمل السياسى » جزءا من العقيدة وجزءا من العبادة ، لاخارج هذه الدائرة ولاتلك . وهكذا فهمت الأمة وهى

---

(٥٧) أخرجه الشيخان

تراجع عمر ـ رضى الله عنه ـ فيقول له واحد من رعيته : لاسمع لك اليوم علينا ولاطاعة حتى تبين لنا من أين لك هذا البرد الذى ائتزت به ! وتقول له امرأة من رعيته حين أمر بعدم المغالاة فى المهور : لقد حجرت واسعا ! الله يقول : « وآتيتم إحداهن قنطارا » وأنت تضيق على الناس ؟! فيقول : أخطأ عمر وأصابت امرأة !

ولكن الاستبداد السياسى الذى بدأه الأمويون فى حياة الأمة الإسلامية منذ وقت مبكر ، مضافا إليه التفلت التدريجى من التكاليف ، والصوفية التى أنشأتها ظروف معينة فى حياة الأمة ، والفكر الإرجائى الذى حصر الإيمان ـ الذى يدخل به الناس الجنة ـ فى التصديق والإقرار .. كل هذه العوامل مجتمعة حصرت العبادة فى حس الناس فى الشعائر التعبدية فحسب ، وأصبح الإسلام فى حس الناس أقرب إلى أن يكون ممارسة فردية يقوم بها كل إنسان بمفرده ، حين بعد الناس عن ممارسة « العمل السياسى » الإسلامى ، وهو أبرز ماتقوم به الجماعة المسلمة من الأمور . وهو الذى استحقت من أجله وصف الله لها بأنها خير أمة أخرجت للناس .

« كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله »[٥٨]

وحين خرج العمل السياسى من دائرة العبادة تخلخلت أول

---

(٥٨) سورة آل عمران [١١٠]

عروة من عرى الإسلام ـ عروة الحكم ـ وإن كانت لم تنقض تماما فى مبدأ الأمر ، فقد بقى الناس فى المجتمع الإسلامى يتحاكمون إلى شريعة الله ، لايرون غيرها شريعة واجبة الطاعة ولا واجبة التنفيذ . ولكن صحب تحكيم شريعة الله جور من الحكام ومظالم تجعل التطبيق غير كامل كما أوجبه الله ونفذه السلف الصالح .. ومرت قرون من هذا التحكيم المصحوب بالجور والظلم حتى نقضت تلك العروة تماما فى العصر الحديث حين نحيت شريعة الله عن الحكم أصلا واستبدلت بها شرائع البشر ، فكانت أول عرى الإسلام نقضا كما قال الصادق الصدوق ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لتنقضن عرى هذا الدين عروة عروة ، فأولها نقضا الحكم ، وآخرها نقضا الصلاة »[٥٩]

* * *

ومع وجود العوامل التى أشرنا إليها ، والتى أخرجت العمل السياسى من دائرة العبادة ، لم يكن من المتوقع أن يقف الانحسار فى مفهوم العقيدة ومفهوم العبادة عند هذا الحد . إنما كان المتوقع أن يسرى الانحسار تدريجيا إلى بقية أنواع العمل ، فأُخرجت تدريجيا من دائرة الإيمان ودائرة العبادة ، لابمعنى أن الناس لم يعودوا يعملون ، فالإنسان لايمكن أن يكف عن العمل فى الحياة الدنيا ، وقد خلقه الله للكدح الدائم فيها :

« يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه »[٦٠]

---

(٥٩) أخرجه أحمد

(٦٠) سورة الانشقاق [٦]

إنما بمعنى أن العمل فى الحياة الدنيا انفصل فى حس الناس عن دائرة الإيمان حين انحصرت هذه فى التصديق والإقرار ، وعن دائرة العبادة حين انحصرت هذه فى الشعائر.. فصار للعمل ركيزة أخرى غير العبادة ، لتكن هى الكسب ، أو هى الاقتناء والملك ، أو هى الغلبة والسيطرة ، أو هى المتاع الحسى أو المتاع المعنوى.. أو أى دافع من الدوافع « الذاتية » التى تدفع الإنسان للإنتاج والعمل غير مرتبطة بالإيمان بالله أو التعبد إليه .. وصار فى حس الإنسان أنه حين « يعبد » ينقطع عن العمل ، وحين « يعمل » ينقطع عن العبادة ، وصارت له ساعتان منفصلتان تماما لايربط بينهما رابط : ساعة العمل وساعة العبادة ، فضلا عن ساعة ثالثة خارج العمل والعبادة جميعا ، هى ساعة اللهو أو الترويح ـ بريئا أو غير برىء ! ـ فصارت كل واحدة من هذه الدوائر الثلاث منفصلة عن الأخرى ، « مقفلة » على مافيها ، ولم يعد الإنسان يصل إلى أى واحدة منها إلا بالخروج من الدائرتين الأخريين !

* * *

لم يكن الجيل الأول الذى رباه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يفهم الأمر على هذا النحو الشائه الذى انحرفت إليه الأجيال المتأخرة . إنما كان ـ كما قدمنا ـ يفهم الحياة كلها على أنها عبادة ، تشمل الصلاة والنسك وتشمل العمل كله . وتشمل لحظة الترويح

كذلك . فلا شئ فى حياة الإنسان كلها خارج من دائرة العبادة التى تنحصر فيها غاية الوجود الإنسانى على هذه الأرض . وإنما هى ساعة بعد ساعة **فى أنواع مختلفة من العبادة** . كلها عبادة وإن اختلفت أنواعها ومجالاتها ونطاقاتها .

الصلاة والنسك عبادة .

والكدح عبادة ، سواء كان كدحا سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا أو فكريا أو علميا .. الخ .

والترويح عن القلوب لكى لاتكل ولاتمل عبادة .

فأما الصلاة والنسك فأمر العبادة فيها واضح لا يحتاج إلى بيان .

وأما الكدح فقد كان الأمر فيه واضحا تماما للجيل الذى رباه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على عينه . الذين كانوا يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، على النحو الذى أشرنا إليه من قبل .

كان الكدح ـ وهو العمل فى واقع الحياة ـ هو **العبادة الدائمة** التى يقوم بها المسلم ، والتى يتزود ـ من أجل القيام بها ـ بذلك الزاد الروحى العميق الذى تمنحه إياه الشعائر التعبدية ، حين يقوم بها على صورتها الحقة ، من الخلوص إلى الله ، والتجرد إليه ، والخشوع والخشية والإخبات .

وكانت العبادة فى ذلك الكدح تتمثل فى أمرين رئيسيين :

التوجه به إلى الله ، والالتزام فيه بما أنزل الله ، ومن ثم يتحول لتوه إلى عبادة يتقرب بها إلى الله ، ويستحق عليها الثواب من عند الله .

وأما الترويح فقد كانوا يرون أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يداعب أزواجه ويدخل السرور على أهله ، ويتبسط مع أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ ويصحبهم إلى جلسة فى بستان أو رياضة إلى خارج المدينة ، وتقام بين يديه مباريات فى الفروسية .. وكان يدعوهم ويوجههم إلى مايجلو الكلل والملل عن قلوبهم فى غير مأثم ولا استغراق يطغى على الواجبات ، فكانوا يستشعرون أن الترويح على هذه الصورة ـ حين تسمح به ظروفهم المكتظة بالأعباء ـ منشّط للعبادة ومعين عليها ، ومن ثم فهو داخل فى إطارها ..

وهكذا يقضون الحياة كلها فى عبادة .. عبادة تشمل نشاط الروح كله ، ونشاط العقل كله ، ونشاط الجسد كله ، مادام هذا كله متوَجِّهاً به إلى الله ، وملتَزَماً فيه بما أنزل الله .. وهى فى الوقت ذاته عبادة لاتعنت الإنسان ولا تكلفه مالا طاقة له به ، لأنها تأخذ **نشاطه الطبيعى** . الذى يمكن أن يصدر عنه بحكم تكوينه ذاته ، **فتحوله** إلى عبادة بتلك اللمسة البسيطة العميقة فى ذات الوقت ، التى توجهه إلى الله ، وتبتغى به مرضاة الله .

وهذا هو المفهوم الصحيح للعبادة كما أنزله الله .. المفهوم الشامل الواسع العميق :

« قل : إن صلاتى ونسكى ، ومحياى ومماتى ، لله رب العالمين لاشريك له .. »[٦١]

* * *

وحين كان الأمر على هذا الفهم الذى فهمه الجيل الأول من كتاب الله ومن تعليم رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم تكن هناك دوائر مغلقة فى حياة المسلم ينتقل من واحدة إلى الأخرى ساعة بعد ساعة .. ولم تكن « العبادة » مجرد ساعة من الساعات ، يخرج المسلم منها إلى غيرها .. إنما كانت هناك دائرة واسعة شاملة ، ينتقل الإنسان فى مختلف جوانبها من نشاط إلى نشاط ، وهو فى جميع الأحوال قائم أو متحرك فى داخلها يعبد الله :

« يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم .. »[٦٢]

ولم يكن ذلك تطوعا منهم يتفردون به ، ويعفى غيرهم منه .. إنما كان هو الفهم الصحيح للعبادة ، والممارسة الصحيحة لها ، ثم يتفاضلون فيما بينهم لافى هذا الجوهر المشترك ، وهو شمول العبادة لكل ألوان نشاطهم ، إنما يتفاضلون فى القدر الذى يجتهد كل منهم فى تحقيقه فى شتى مجالات العبادة ، بمقدار مايوفقهم الله .

وكانت الشعائر تلقى منهم حفاوة بالغة كما قلنا ، لاباعتبارها هى

---

(٦١) سورة الأنعام [١٦٢ـ ١٦٣]

(٦٢) سورة آل عمران [١٩١]

مجال العبادة الأوحد فيصبّوا فيها كل وجداناتهم ، وكل مشاعرهم ، وكل حضورهم الروحى ، وكل خشوعهم وإخباتهم لله .. إنما لأنها فى حسهم ــ كما هى فى الحقيقة ــ محطات التزود ، التى يتزود فيها الإنسان بالزاد لبقية الطريق .. أو النبع الذى يجدد الطاقة للقيام ببقية العبادة المفروضة على الإنسان .. وكلما نفد الزاد أو كاد يكون المسافر قد أتى إلى المحطة التالية يتزود فيها للمشوار الجديد ..

الصلاة زاد يومى يتكرر خمس مرات فى اليوم والليلة . والصيام زاد سنوى مركّز مجمّع يستغرق شهرا كاملا يتقلب فيه الإنسان من عبادة إلى عبادة إلى عبادة . والزكاة موسم أو مواسم سنوية يتطهر فيها الإنسان من الشح ، ويمارس العطاء الروحى والمادى . والحج موسم فى العمر يتجرد فيه الإنسان من متاع الأرض الزائل كله ، ويقبل على الله .. وكلها زاد .. لبقية الطريق .. والعبادة تشمل كل الطريق ..

ولننظر فى بعض النماذج من سلوك الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ لندرك هذه الحقيقة العميقة الدقيقة ، وهى شمول العبادة فى حسهم لكل عمل وكل فكر وكل شعور ، وكل لحظة من لحظات العمر ، وعدم اقتصارها على لحظات معينة هى التى تؤدى فيها الشعائر التعبدية ..

خذ هذا الأعرابى الذى أعطاه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قسمه من الغنائم فقال : ماعلى هذا اتبعتك ! ولكنى اتبعتك على أن

أرمى إلى هاهنا ــ وأشار إلى حلقه ــ بسهم فأموت فأدخل الجنة فقال : إن تصدق الله يصدقك[٦٣] .

ألم يكن فى قمة العبادة وهو يفعل ذلك ؟ ! وماكان فى لحظتها يؤدى شعيرة من الشعائر ! إنما كان يؤدى عبادة اللحظة القائمة ، فى المناسبة القائمة ، ويؤديها على مستوى القمة فى الأداء !

وخذ هذه المرأة التى كانت تصرع فتتكشف ، فسألت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يدعو لها بالشفاء . فقال لها : إن شئت صبرت ولك الجنة ، وإن شئت دعوت الله ــ عز وجل ــ أن يعافيك . قالت : أصبر ! قالت : فإنى أتكشف ، فادع الله ألا أتكشف ، فدعا لها ..

ألم تكن فى قمة العبادة وهى تقول ذلك ؟! وماكانت فى لحظتها تؤدى شعيرة من الشعائر ! إنما كانت تؤدى عبادة اللحظة القائمة ، فى المناسبة القائمة ، وتؤديها على مستوى القمة فى الأداء !

وخذ سلمان الفارسى حين قام عمر ــ رضى الله عنه ــ على المنبر يقول : أيها الناس ، اسمعوا وأطيعوا ، فقال له سلمان : لاسمع لك اليوم علينا ولاطاعة ! فقال عمر ــ ولم يغضب ــ ولمه؟ قال : حتى تبين لنا من أين لك هذا البرد الذى ائتزرت به ! فلم يغضب عمر ، ونادى ابنه عبد الله بن عمر فقال له : نشدتك الله ! هذا البرد الذى ائتزرت

---

(٦٣) أخرجه النسائى

به أهو بردك؟ قال : نعم ! .. قال سلمان : الآن مر ! نسمع ونطع !

هل كان أيهما يؤدى شعيرة من الشعائر؟ إنما كان يؤدى كل منهما عبادة ! سلمان يتعبد الله بالرقابة على أعمال الحاكم للتأكد من جريان العدل الربانى مجراه ، وعمر ـ بروح العبادة فى قمتها ـ لايغضب من مساءلة الرعية له على متر زائد من القماش !

وخذ هذا الرجل الفقير وامرأته ، إذ همّ الرجل أن يشكو فقره إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليعطيه مايذهب عنه فاقته ، فتقول له امرأته : أتشكو الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ؟ ! فيحجم الرجل ويصبر !

ألم تكن هذه لحظة عبادة ؟ وفى القمة من العبادة ؟!

وخذ هذا الرجل الذى خرج للقتال وفى يده تمرات ، فأعجلته ريح الجنة فلم يصبر ، فرمى التمرات من يده وهو يقول : لئن بقيت حتى أنتهى من هذه إنه لأمر يطول ! !

كيف تُسَمَّى هذه اللحظات الفائقة .. إن لم تكن لحظات عبادة فى أعلى القمة من العبادة ؟ !

* * *

كذلك كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يعبدون ربهم ..

يعبدونه بالصلاة والنسك ..

ويعبدونه بالعمل ..

ويعبدونه بالترويح النظيف الطاهر الذى يمنع العمى عن القلوب ..

وفرق كبير بين أن تقتصر العبادة على الصلاة والنسك والشعائر ، ويخرج منها العمل والترويح ، وبين أن تكون كلها عبادة ، يتنقل الإنسان فيما بينها ساعة بعد ساعة ، ولكنه لايخرج فى أى ساعة من دائرة العبادة التى يتوجه فيها القلب إلى الله ، ويلتزم فيها بأوامر الله ..

فارق فى النظافة النفسية والسلوكية ..

وفارق فى نوع « الإنجاز » الذى يقوم به الإنسان فى الأرض ، فردا كان أو جماعة ..

أما فارق النظافة فواضح .

فحين يكون العمل عبادة فلن يدخله الغش ، ولا الخيانة ، ولا الكذب ، ولا الخديعة ، ولا الافتئات على حقوق الناس بالجور والظلم ، ولا ارتكاب المحرمات من أجل الكسب أو التسلط أو المتاع ..

وحين يكون الترويح عبادة فلا يمكن أن يسفل ، وأن يتفه ، وأن يسفّ ، ولا أن يهبط بإنسانية الإنسان كما هو حادث فى الجاهلية المعاصرة فى ألوان « اللهو » المبذول فى كل مكان ، والذى يزين كل

فاحشة سوية أو شاذة للناس .

وأما الإنجاز فقد يخيل لبعض الناس اليوم أن أضخم إنجاز فى التاريخ هو الإنجاز الذى قامت به أوربا فى عصرها الحاضر .. وقد قامت به وهى بعيدة تماما عن « الدين » وعن عبادة الله ..

وهنا لابد من التنبه إلى مجموعة من الحقائق ..

فقد أنجزت الحضارة المادية المعاصرة إنجازا ضخما لاشك فيه فى بعض جوانب الحياة ، أبرزها التقدم العلمى الهائل ، والتقدم التكنولوجى الذى استخدم ثمار العلم فى تيسير الحياة وتخفيف الجهد عن الإنسان ، وعبقرية التنظيم التى تسهم بدورها فى تيسير الحياة وتخفيف الجهد وتوفير كثير من الوقت ، وبعض الجوانب « الإنسانية » الأخرى المتمثلة فى « الحقوق » و « الضمانات » التى يتمتع بها الناس هناك .

ولكن الحصيلة النهائية لهذه الحضارة المادية بعيدة كل البعد عن أن تكون صورة مشرقة « للإنسان » أو صورة مشرّفة له ، رغم كل الجوانب المضيئة فيها ، بسبب ماتحمله من جور سياسى واقتصادى واجتماعى ، واستعمار ، وانتهاك للحرمات ، وقذارة حسية ومعنوية ، وتحلل أخلاقى ، وانطماس روحى ، وانتكاس نفسى ، وهبوط بالإنسان من مكانه اللائق الذى خلقه الله له ، وكرمه به ، لكى

يصبح فى النهاية عبدا ذليلا لكل شئ .. إلا الله ! [٦٤]

وهذا هو مفرق الطريق بين الإنجاز الأوربى المعاصر وإنجاز الأمة الإسلامية حين كانت حياتها قائمة على التطبيق الصحيح للإسلام ..

إن ماتقوم به أوربا اليوم ليس هو الذى قامت به الأمة الإسلامية الأولى ، ولاقريبا منه ، وإن اختلطت بعض أجزاء الصورة فى بعض الأذهان .

إن الذى قامت به الأمة الإسلامية الأولى لم يكن مجرد التوسع والفتح ، والغلبة والسلطان ، ولا مجرد إقامة حركة علمية أو حركة حضارية أو عمارة مادية للأرض .. فهذا كله من العطاء الربانى الذى يمنحه الله للكفار وللمؤمنين سواء :

« كُلاًّ نمد ، هؤلاء وهؤلاء ، من عطاء ربك ، وماكان عطاء ربك محظورا » [٦٥]

وقد كان لكثير من الجاهليات التاريخية نصيب منه :

« أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ **كانوا أشد منهم قوة ، وأثاروا الأرض ، وعمروها أكثر مما عمروها** ، وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا

---

(٦٤) اقرأ إن شئت فصل « الديمقراطية » من كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » .
(٦٥) سورة الإسراء [٢٠]

أنفسهم يظلمون . ثم كان عاقبة الذين أساءوا السُّوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون » [٦٦]

« فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » [٦٧]

إنما الذى صنعته الأمة الإسلامية هو إقامة هذه العمارة وهذه الحضارة وهذه القوة الغالبة الساحقة على أساس من القيم والمثل لم تتحقق فى صورة واقع عملى سلوكى إلا فى تاريخ هذه الأمة الفريدة فى التاريخ .

ومن شاء فليعقد مقارنة بين حركة الفتح الإسلامى وبين الغزو الاستعمارى ، وبين العدل الربانى كما طبقه المسلمون فى الأرض و « عدالة » الجاهلية المعاصرة بين البيض والسود فى أمريكا وفى جنوب أفريقيا ، وبين الصليبية الصهيونية وبين المسلمين فى فلسطين أو الحبشة أو أرتيريا أو تشاد أو الفلبين أو العالم الشيوعى ، أو أى صقع من الأرض كان فيه مسلمون تحت سيطرة غير المسلمين ! وليعقد المقارنة بين وفاء المسلمين بمواثيقهم وبين مواثيق الدول التى تبرمها وهى تتحين الفرصة المناسبة لنقضها ! وبين تمحض الحركة العلمية الإسلامية للخير ، وبين استخدام العلم فى الجاهلية المعاصرة لفتنة

---

(٦٦) سورة الروم [٩ـ ١٠]

(٦٧) سورة غافر [٨٣]

الناس عن عقيدتهم فى الله ، واستخدامه فى التدمير الوحشى ، واستخدامه فى إفساد الأخلاق[٦٨] ، وبين شمول الحضارة الإسلامية « للإنسان » من كل جوانبه ، الروحى منها والمادى ، وتركيز هذه الحضارة على جوانب الحياة الحسية وإهمال جانب الروح .

إن هذا بالضبط هو الفارق بين ممارسة الحياة بحس العبادة ، أى عبادة الله ، وممارستها ـ بوعى أو بغير وعى ـ عبادةً للشيطان ، على تعدد الصور التى تمارس بها عبادة الشيطان !

ولقد كانت الأمة الإسلامية فى ذروتها حين كانت تمارس « العمل » بحس العبادة ، فأما حين خرج العمل تدريجيا من مفهوم العبادة فقد بدأت تهبط من ذروتها درجات مختلفة من الهبوط ..

* * *

ولم يكن العمل وحده ـ بجميع مجالاته ـ هو الذى خرج من مفهوم العبادة حين انحصرت فى الشعائر التعبدية .. إنما كانت الطامة فى خروج « الأخلاق » من دائرة العبادة ..

إن من المزايا الكبرى لهذا الدين قاعدته الأخلاقية العريضة الشاملة ، التى تشمل **كل** أعمال الإنسان .

---

(٦٨) كما تستخدم حبوب منع الحمل لإشاعة الفاحشة فى الأرض ويستخدم التلقيح الصناعى فى حل روابط الأسرة وإفساد الأنساب .

لاشئ فى حياة الإنسان يخرج من دائرة الأخلاق . لاسلوكه ولافكره ولامشاعره ولا أى لون من ألوان نشاطه ، سياسيا كان أم اجتماعيا أم اقتصاديا أم فنيا .. الخ . بل كل نشاطه مرتبط بالأخلاق وقائم على قاعدة أخلاقية نابعة من الميثاق الذى يقر فيه الإنسان بعبوديته لله :

« أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ! إنما يتذكر أولو الألباب ، الذين يوفون بعهد الله ولاينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار »(٦٩)

والميثاق قد يكون هو ميثاق الفطرة الذى أخذ عليها فى عالم الذر ، أو يكون هو العهد الذى يأخذه كل رسول على الناس أن يعبدوا الله وحده بلا شريك :

« وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ! شهدنا »(٧٠)

---

(٦٩) سورة الرعد [١٩ـ ٢٢]

(٧٠) سورة الإعراف [١٧٢]

« ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت »[71]

ولكن المهم فى السياق أن « الميثاق » تفصل بعض مقتضياته فإذا هى مقتضيات « أخلاقية » فى أساسها ، وإن كانت تشمل أمورا اعتقادية ، وأمورا سلوكية ، وأمورا نفسية : « الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة .. »

فيتبين لنا من ذلك منشأ الالتزام الأخلاقى فى الإسلام . إنه عبادة الله ، بعد اليقين بألوهيته ، وبأن ما أنزله على رسوله ــ صلى الله وعليه وسلم ــ هو الحق . أى أنه مقتضى : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

ثم يتبين لنا من هذه الآيات ومن آيات أخرى فى كتاب الله أن الميثاق مع الله ، الذى تنشأ منه القاعدة الأخلاقية فى الإسلام ، يتسع حتى يشمل الأعمال كلها :

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ، إن عذابها كان غراما . إنها

(٧١) سورة النحل [٣٦]

ساءت مستقرا ومقاما . والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما. والذين لايدعون مع الله إلها آخر ، ولايقتلون النفس التى حرّم الله إلا بالحق ، ولايزنون . ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات . وكان الله غفورا رحيما . ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا . والذين لايشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كراما ، والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا . والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما . أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ، ويلقون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما »(٧٢)

« قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس ، هم فيها خالدون .. »(٧٣) .

---

(٧٢) سورة الفرقان [٦٣ ـ ٧٦]   (٧٣) سورة المؤمنون [١ ـ ١١]

وتجيء أحاديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تربط الأخلاق ربطا وثيقا بالإيمان ، وجودا وعدما :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت »[٧٤]

« ما آمن بي من بات شبعان وجاره جوعان وهو يعلم .. »[٧٥]

« والذى نفسى بيده ، لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه »[٧٦] .

« الإيمان بضع وسبعون (أو بضع وستون) شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . والحياء شعبة من الإيمان »[٧٧]

« أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كان فيه خلة منهن كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر »[٧٨]

سئلت عائشة ـ رضى الله عنها ـ عن خلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت : كان خلقه القرآن .[٧٩]

---

(٧٤) أخرجه مسلم
(٧٥) أخرجه الطبرانى
(٧٦) متفق عليه
(٧٧) متفق عليه
(٧٨) متفق عليه
(٧٩) أخرجه مسلم .

عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت يارسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك ؟ (أو قال غيرك) قال : « قل آمنت بالله ثم استقم »[80] .. الخ .. الخ .. الخ .

ويتبين من هذا كله أن الأخلاق جزء أصيل من هذا الدين ، ينبع نبعا مباشرا من الإيمان بالله ، ويمارسها المؤمن **عبادة** لله ، فلا هى أمور هامشية فى حياة المؤمن ، ولا هى ـ فى حسه ـ خارجة عن نطاق العبادة التى يتقدم بها إلى الله .

ولكن انحسار مفهوم العبادة ، وانحصارها فى الشعائر ، أخرج الأخلاق من العبادة تدريجيا .. فماذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة أنه أصبح أمراً مألوفا فى العالم الإسلامى أن تجد الرجل يصلى فى المسجد ـ ويعتاد المساجد ـ ثم يكذب ! بينما سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أيكون المؤمن جبانا قال : نعم . ثم سئل : أيكون المؤمن كذابا قال : لا ![81]

وأصبح أمرا مألوفا أن يخرج الرجل من الصلاة بالمسجد ثم يغش المسلمين . بينما يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من غشنا فليس منا »[82]

---

(٨٠) أخرجه مسلم
(٨١) أخرجه مالك فى الموطأ
(٨٢) أخرجه مسلم

وأصبح مألوفا أن يخرج الرجل من الصلاة وقد خان الأمانة التى اؤتمن عليها ، أو أخلف الوعد الذى أعطاه ، بينما جعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك من علامات النفاق !

وليس الغريب أن يتفلت الناس من قيود الأخلاق . فهى قيود ثقيلة إلا على الذين هدى الله !

ولكن الغريب أن هذا التفلت ـ بكل آثاره المدمرة فى حياة الأمة ـ غير موصول فى حس الناس بأمر العبادة ! فالعبادة هى الشعائر .. ومن أدى الشعائر فقد أدى العبادة المطلوبة .. وأما هذه السقطات الأخلاقية فهى معيبة نعم ، والوعاظ يتكلمون عنها فى كل خطبة ، نعم ، ولكنها فى دائرة أخرى غير دائرة العبادة .. فهذه « مقفلة » على الشعائر فحسب !

وأصبح من الخزى لهذه الأمة أن الجاهلية المعاصرة تصدق فى الوعد فى معاملاتها اليومية (وتحتجز الكذب للأمور السياسية !) وتؤدى الأمانة ، ولاتغش ، ولاتخون .. بينما الأمة « الإسلامية ! » غارقة إلى قمة رأسها فى الكذب والغش والخيانة وخلف الوعد .. إلا من رحم الله !

إن أوربا ـ فى اعتقادنا ـ ليست أمة ذات أخلاق حقيقية أصيلة ..

وما يوجد من أخلاقيات فى معاملاتها اليومية فهو أخلاق نفعية

هدفها تحقيق المنفعة فى الحياة الدنيا فحسب . ولقد تعلمت أوربا من التاجر اليهودى الذكى ، الذى سيطر على مقدرات أوربا فى القرنين الأخيرين ، والأخير بصفة خاصة ، أن التودد اللطيف إلى « الزبون » والصدق معه ، والتعامل الأمين ، أدوم لكسبه ، وأدوم للانتفاع منه ، من الغش والكذب وخلف الوعد .. فراضوا أنفسهم على تلك الأخلاقيات النافعة ، وربوا عليها أولادهم تربية جادة ، يُبْذَل فيها جهد حقيقى مدروس منظم ، وتؤدى بالفعل إلى صورة طيبة المظهر فى واقع حياة الناس .

وهم يقولون ـ ويعتقدون ـ أنها « قيم حضارية » ..

ونحن نشك فى ذلك كثيرا لأن الرأسمالية كلها التى تحكم الغرب وتدير شئون قائمة على ألوان كثيرة من الغش والكذب والخداع من أجل الحصول على أكبر قسط من الربح . فالربح ـ من أى سبيل ـ هو هدفها الأول ، وليس الصدق ولا الأمانة ولاغيرهما من الفضائل ، إنما تجىء هذه ـ فى الطريق ـ بوصفها وسائل نافعة للحصول على أكبر قدر من الربح ، كما قدمنا من خصال التاجر اليهودى الذكى ، الذى هو عماد تلك الرأسمالية . وفى الوقت الذى لاتؤدى فيه هذه الفضائل إلى الربح ، أو يتحقق النفع بأضدادها يتخلى الأوربى بسهولة عن كثير من « أخلاقياته » كما يحدث دائما فى عالمهم السياسى المخادع ، وكما يحدث فى الاستعمار ، وفى العلاقات الدولية ، وفى

تعامل البيض مع الملونين .. الخ .. الخ .

أما فى الإسلام ـ فى صورته الصحيحة ـ فقد كانت الأخلاق قيما حقيقية أصيلة لأن هدفها لم يكن الربح المادى ، ولا كانت قائمة عليه ، إنما هدفها الوفاء « بالميثاق » المعقود مع الله ، وقائمة على قاعدة « العبادة » لله . كما كانت كذلك قيما حضارية أصيلة لأنها ذات صبغة « إنسانية » غير محصورة فى جنس ولا لون ، إنما هى صادرة من « الإنسان » بوصفه إنسانا ـ مؤمنا ـ وموجهة إلى « الإنسان » حتى ولو لم يكن مؤمنا بما يؤمن به المسلمون .

وحين كانت الأمة تمارس إيمانها الحق ، وعبادتها الحقة ، وكانت « الأخلاق » فى حسها جزءا من العبادة المفروضة على المسلم المؤمن حدثت معجزات كثيرة لم تتكرر فى التاريخ .

ففى أقل من نصف قرن امتد الفتح الإسلامى من الهند شرقا إلى المحيط غربا ، وهى سرعة مذهلة لامثيل لها فى التاريخ كله . ولم يكن الكسب هو « الأرض » التى فتحت ، فما خرج المسلمون من الجزيرة يريدون التوسع فى الأرض ! إنما كان هدفهم ، كما قال ربعى بن عامر لرستم قائد الفرس : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن جور الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة » .

كان الكسب الأعظم هو « القلوب » التى اهتدت بنور الله فدخلت فى دين الله .

ولم يكن ذلك عن رهبة من سطوة الفاتحين ، ولا قهرا قهرهم عليه الفاتحون ! فقد أمنوهم على أنفسهم وعلى عقائدهم ، وشهد الناس بأعينهم حقيقة الأمان الذى منحه المسلمون لمن بقى على دينه ولم يشأ أن يدخل فى الإسلام .

إنما كانت « أخلاق » الفاتحين من أكبر الأسباب التى فتحت قلوب الناس لهذا الدين . ولا عجب فقد كانت أخلاق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قبل من أكبر الأسباب فى هداية من اهتدى من الناس كما شهد له ربه :

« وإنك لعلى خلق عظيم »(٨٣)

«فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك »(٨٤)

ولم تقف المعجزة عند السرعة المذهلة التى تم بها الفتح ، ولا عند دخول ملايين من البشر طواعية وحبا فى الدين الذى أتى به الفاتحون ، ولا فى تحول المهتدين إلى جنود مخلصين للعقيدة التى اعتنقوها يجاهدون لنشرها فى الأرض مختارين متطوعين لايدفعهم أحد ولا يضغط عليهم أحد .. إنما امتدت المعجزة إلى ظاهرة لم تتكرر قبل ولابعد ، هى دخول هذه الملايين فى اللسان العربى ، حتى من بقى منهم على دينه ولم يعتنق الإسلام ، ونسى النصارى فى مصر

---

(٨٣) سورة القلم [٤]

(٨٤) سورة آل عمران [١٥٩]

والشام وغيرها من البلاد المفتوحة لغاتهم التى كانوا يتكلمون بها ، ويؤدون بها عبادتهم وصاروا يتكلمون العربية ، ويكتبون بالعربية ، ويؤدون عباداتهم ـ على دينهم ـ بالعربية !

بل امتد الإسلام إلى رقاع واسعة من آسيا وأفريقيا ـ سلما ـ على يد تجار جاءوا للتجارة لا للدعوة ! ولكن أخلاقهم الإسلامية حببت الناس فيهم ، وفى دينهم الذى رباهم على أخلاقياته ، فدخلوا فى هذا الدين !

ضَعْ فى مقابل ذلك مايحدث اليوم من صدٍّ عن سبيل الله يقوم به « المسلمون » بسبب سوء أخلاقهم !

إن أوربا ، بامتدادها الغربي كله حتى أمريكا ، قد وقعت اليوم فى الضنك الذى أنذر به الله من أعرض عن ذكره : « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى »(٨٥)

وهو ضنك نفسى لايخفف من آثاره كل التقدم المادى والعلمى والتكنولوجى والاقتصادى والعمرانى الذى يعيشون فيه ، بل إن « مجتمع الوفرة » الذى وصلت إليه بعض الشعوب متجاوزة به « مجتمع الرفاهية »(٨٦) قد وصل فيه الضنك النفسى إلى الذروة ،

---

(٨٥) سورة طه [١٢٤]

(٨٦) كانت الشعوب « المتقدمة » تبحث أولا عن رفع مستوى المعيشة . فلما رفعته سعت إلى الرفاهية ، فلما بلغتها صارت تبحث عن الوفرة ، وهى مرحلة اقتصادية أبعد .

متمثلا فى القلق والجنون والانتحار والأمراض النفسية والعصبية وإدمان الخمر وإدمان المخدرات والجنوح والجريمة والشذوذ وفساد الفطرة ...

والناس هناك يبحثون عن طريق الخلاص .. ومنهم من يعتنق البوذية ، ومنهم من يدخل فى عبادة كرشنا ، ومنهم من يتخبط هنا وهناك ..

والإسلام هو طريق الخلاص .. أنزله الله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ..

ومئات من الناس فى الغرب يدخلون فى الإسلام كل عام ..

ولكن هذه المئات كان يمكن أن تكون ألوفا وملايين لولا عوامل كثيرة تصد الأوربيين عن الإسلام ، منها الحاجز الصليبى ولاشك ، ومنها النفور من « الدين » عامة بسبب مافعلته الكنيسة الأوربية فى تشويه صورة الدين وتنفير الناس منه بفظاظتها وطغيانها .. ومنها كذلك واقع المسلمين !

إن كثيرا من الناس فى الغرب يستمعون إلى الدعاة المسلمين يحدثونهم عن الإسلام ، ثم يقولون لهم بلسان الحال أو بلسان المقال : إذا كان الإسلام بهذه الصورة الجميلة التى تعرضونها ، فلماذا أنتم هكذا ؟! لماذا أنتم كذابون غشاشون مخادعون مخلفون للوعد غير مستقيمين فى تعاملكم .. فضلا عن كونكم – فيما بينكم وبين

أنفسكم ـ متعادين متباغضين لاتجتمعون على شئ ؟! [٨٧]

وهكذا يقف واقع المسلمين فى وجه الدعوة إلى الإسلام ، يصد الملايين الحائرة عن طريق الخلاص !

ومع ذلك يمر كثير من الناس على هذا الأمر الخطير مرورا عابرا ، لايثير عندهم أكثر من أسفٍ عابر ، ثم يهزون أكتافهم ويمضون .. ولاشك أن من أكبر أسباب ذلك خروج الأخلاق ـ فى حسهم ـ من دائرة العقيدة ودائرة العبادة ، اللتين هما ـ فى حسهم ـ دائرتان مغلقتان ، لاتوابع لها ولامقتضيات !

ومازلت أذكر داعية مرموقا له فى الدعوة جهود مشكورة يجزيه الله عنها خيراً إن شاء الله، قال محتدا على أحد الطلاب فى مناقشة لرسالة جامعية : ماعلاقة الأخلاق بلا إله إلا الله ؟! العقيدة ـ كما تعلمناها ـ إلهيات ونبوات وسمعيات ، ولاشئ وراء ذلك ! فمن أين جئت بهذه العلاقة التى تريد أن تقيمها بين لا إله إلا الله وبين الأخلاق ؟!

وهكذا يُنْظَرُ إلى الأخلاق ـ بعد إخراجها من دائرة العقيدة ودائرة العبادة ـ على أنها أمر « إضافى » إن وجد فنعمّا هو ! وإن لم

---

(٨٧) ينفر الغرب كذلك من التخلف الحضارى والمادى والعلمى عند المسلمين . ولكن الذى ينفره أكثر هو السوء الأخلاق الذى يرونه فى حياة المسلمين من الكذب والغش وخلف الوعد والطرق الملتوية فى التعامل .

يوجد فلا بأس ! فالإيمان مستقر بقول لا إله إلا الله ، والعبادة مؤداة بالشعائر . أماهذه « النافلة » الأخلاقية فلا علينا إن أسقطناها من الحساب ! ونحن طبعا لانسقطها من الحساب ! فنحن « نتحدث » عنها دائما فى خطب الوعظ الأسبوعية ، والدورية ، والموسمية . وقد نعلم قبل أن نتحدث ، وبعد أن نتحدث ، أنه كلام ذاهب فى الهواء . ومع ذلك لا نكف عن الوعظ الدائم طمعا فى هداية الناس ! (٨٨)

ترى كم شعبة من شعب الإيمان المنصوص عليها فى حديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد هدمت حين هدمت الأخلاق ؟! (٨٩)

* * *

وحين ضاق مفهوم العبادة فى الأجيال المتأخرة فانحصر فى الشعائر ، وخرج من دائرة العبادة النشاط اليومى العملى ، سواء منه النشاط السياسى أو الاجتماعى أو الاقتصادى .. وخرجت منها أخلاقيات لا إله إلا الله كذلك ، كثرت المعاصى بالطبع وكثر العصاة ، واضطرب سير المجتمع ، وكثرت فيه الانحرافات والمظالم ،

---

(٨٨) فى النية إصدار كتيب بعنوان « كيف ندعو الناس » نتعرض فيه لقضية الوعظ ومدى جدواه .

(٨٩) « الإيمان بضع وسبعون شعبة .. »

وسقط أكثر من مرة فى اضطرابات عنيفة ونكبات ..

ومع ذلك فلم يكن هذا القدر هو كل السوء الذى حل بمفهوم العبادة .. إنما كان مرحلة فى طريق الهبوط !

لقد كان الذى مر بنا حتى الآن هو انحسار مفهوم العبادة حتى ينحصر فى الشعائر التعبدية وحدها دون سائر الأعمال . ولكن هذا الأمر ذاته قد أدى ـ بالطبيعة ـ إلى مزيد من الانحسار .. على درجات !

فأما الدرجة الأولى فهى انحسار الشعائر ذاتها إلى أعمال مقصودة لذاتها ، بغير مقتضيات لها ! بحيث يصبح أداؤها فى ذاتها هو كل « العبادة » المطلوبة من الإنسان !

ولاشك أن الجيل الأول ـ الذى تلقى علمه من الكتاب والسنة ـ لم يكن يفهم الأمر على هذه الصورة !

فالكتاب والسنة قد أعطيا لكل شعيرة من الشعائر التعبدية بعدا نفسيا وسلوكيا لا يقتصر على أدائها .. بل الأصح أن تقول إنه يبدأ بأدائها .. ثم يمتد ليشمل مساحة واسعة من حياة الإنسان !

يقول الله تعالى فى محكم التنزيل : « وأقم الصلاة ، **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** »[90]

---

(٩٠) سورة العنكبوت [٤٥]

وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »[٩١]

ويقول عليه الصلاة والسلام : « من لم يدع قول الزور والعمل به فلا حاجة لله بتركه طعامه وشرابه »[٩٢] ويقول : « رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش »[٩٣] .

وقال تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها »[٩٤]

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : « ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ، إنى بما تعملون عليم » وقال : « ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم » ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يارب ! يارب ! ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام . فأنى يستجاب لذلك ؟ ! »[٩٥] .

وقال تعالى : « الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولافسوق ولاجدال فى الحج ، وماتفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى . واتقون يا أولى الألباب »[٩٦] .

---

(٩١) سورة البقرة [١٨٣]
(٩٢) أخرجه البخارى
(٩٣) أخرجه أحمد وابن ماجه
(٩٤) سورة التوبة [١٠٣]
(٩٥) أخرجه مسلم
(٩٦) سورة البقرة [١٩٧]

وقال : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، **ليشهدوا منافع لهم** ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام . فكلوا منها **وأطعموا البائس الفقير**. ثم ليقضوا تفثهم ، وليوفوا نذورهم ، وليطوّفوا بالبيت العتيق . **ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه** . وأحلت لكم الأنعام إلا مايتلى عليكم ، **فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ، حنفاء لله غير مشركين به** ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق . **ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب** . لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق . ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام ، **فإلهكم إله واحد فله أسلموا** ، وبشر المخبتين ، **الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، والصابرين على ما أصابهم ، والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون**. والبدن جعلناها لكم من شعائر الله ، لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صوافّ ، فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها **وأطعموا القانع والمعتر**. كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون . لن ينال الله لحومها ولادماؤها ، **ولكنه يناله التقوى منكم . كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ماهداكم** ، وبشر المحسنين » (٩٧)

(٩٧) سورة الحج [٢٧ــ ٣٧]

ويقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « .. والحج المبرور[٩٨] ليس له جزاء إلا الجنة »[٩٩] .

ويقول : « من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق ، رجع كما ولدته أمه »[١٠٠]

وخلاصة هذه الآيات والأحاديث أن الشعائر التعبدية **ذات مقتضيات** ، وأنها لاتنتهى بذات نفسها ، أى بمجرد أدائها ، إنما تصحبها وتتبعها مقتضيات ، هى التى تعطيها معناها الحقيقى ، ومهمتها الحقيقية فى حياة الأمة المسلمة .

صحيح أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ تعبد هذه الأمة بهذه العبادات بالذات . والله يقضى بمايشاء لامعقب لحكمه ، وهو سبحانه يتعبد من يشاء بما يشاء « لايسأل عما يفعل وهم يسألون »[١٠١] وليس لأحد أن يتعبد إلا بما فرضه الله عليه من ألوان العبادة أو بما استحبه منه سبحانه . ومن هذه الوجهة نقول : إن هذه العبادات **مقصودة بذاتها** لايغنى شىء عنها ، مهما اجتهد العبد من عند نفسه ، ومهما زعم أنه يترضى الله بما ابتدعه من عند نفسه من ألوان العبادة .. ولكن الواضح من الآيات والأحاديث أن هذه العبادات لها غاية أبعد منها ، منصوص عليها نصا صريحا بحيث لاتحتاج إلى استنباط أو

---

(٩٨) أى الذى لا إثم فيه
(٩٩) متفق عليه
(١٠٠) متفق عليه
(١٠١) سورة الأنبياء [٢٣]

اجتهاد[١٠٢] ، مما يقطع بأنها ليست غاية فى حد ذاتها ، وأن القيام بها دون أداء مقتضياتها يضيّع الحكمة منها ، والغاية من افتراضها ..

والقول بأن الله افترضها ليتعبد بها عباده فحسب ، ولينظر من يطيعه بالغيب ومن يعصيه ، وأنه ليس من الضرورى أن تكون هناك حكمة معلومة للبشر من وراء افتراضها ، لأن حكمتها عند الله ..

هذا القول لايوفى العبادات قدرها ، ولايغطى كل مجالها ، مع أنه صحيح فى ذاته ..

فما دام الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد بين الحكمة ـ أو بعض الحكمة ـ من افتراض هذه العبادات ، فليس لنا نحن أن نلغى مانص الله ورسوله عليه من الحكمة ، ونقول : إن العبادات **مفروضة لذاتها** ، ولا شيء مطلوب وراءها !

مقصودة بذاتها نعم ، ولكن **لا لذاتها فحسب** ، وإنما لذاتها ولما وراءها من المقتضيات .. فإذا قمنا بها لذاتها فحسب وأغفلنا مقتضياتها **المنصوص عليها** فهل نكون قد أدينا العبادة التى فرضها الله ؟!

تلك هى القضية التى غفلت عنها الأجيال المتأخرة حين حصرت العبادة فى الشعائر ، ثم حصرت الشعائر فى مجرد الأداء ..

---

(١٠٢) قد يحتاج الإنسان إلى الاستنباط والاجتهاد للتعرف على الحكم غير المنصوص عليها بشأن العبادات . أما المنصوص عليها فلا تحتاج إلى استنباط ولا اجتهاد ..

وصحيح أن الناس استنكروا ماحدث من نتائج هذا الانحسار ، حين رأوا قوما يؤدون الشعائر ثم لايعملون بمقتضاها بل يعملون بعكس مقتضاها ، فيصلون ولاتنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر ، ويصومون ولايؤدى بهم الصوم إلى التقوى ، ويزكون وأموالهم حرام أو مختلطة بالحرام ، ويحجون فلا يزودهم الحج بالتقوى والإخبات إلى الله ، ولايمنعهم عن شهادة الزور !

استنكروا لأن النفس تستنكر ذلك بفطرتها ..

ولكنه استنكار قاصر لايصل إلى تغيير ذلك المنكر الضخم ، لأنه قد وقر حتى فى حس المنكرين أنفسهم أن أولئك قد أدوا العبادة على أى حال ! !

كلا ! لم يؤدوا العبادة ! لقد قاموا بالشعيرة نعم ! ولكنْ فرق شاسع بين أداء الشعيرة وأداء العبادة !

إنه لاتوجد عبادة واحدة فى الإسلام يقتصر المطلوب فيها على أدائها ـ مجرد الأداء ـ فحسب ..

إنما الأصح ـ كما بينا من قبل ـ أن نقول : إن العبادة تبدأ بالأداء ، ولاتتم إلا بوقوع المقتضى المطلوب من أدائها .

أو نقول بعبارة أخرى : إن أداء الشعيرة ـ أو العبادة ـ قائما بمفرده يمكن أن يعطى « مظهرية الإسلام » فى الحياة الدنيا ، فتجرى

الأحكام على صاحبها أنه مسلم .. ولكنه ـ وحده ـ غير مقبول عند الله .

لا إله إلا الله تبدأ بنطقها .. ولكن نطقها وحده لايحقق التوحيد ، الذى هو حقيقة الإسلام ، إلا أن يلتزم الإنسان التزاما سلوكيا واقعيا بما لابد من الالتزام به ، وهو عدم الشرك فى الاعتقاد ، وتقديم الشعائر التعبدية لله وحده بلاشريك ، وتحكيم شريعة الله فى كل أمر من الأمور .

والصلاة تبدأ بأدائها ـ على الصورة التى بينها الله ورسوله ـ وتعطى مظهرية الإسلام بالأداء ، ولكنها لاتقبل عند الله حتى تؤدى مقتضاها من الانتهاء عن الفحشاء والمنكر . ومن هنا يقول سبحانه وتعالى : « فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون ويمنعون الماعون »(١٠٣)

وكذلك بقية العبادات ..

* * *

وحين وصل الفساد فى مفهوم العبادة إلى الحد الذى بيناه ، من حصرها فى الشعائر ، ثم حصر الشعائر فى مجرد الأداء دون تحقيق مايتعلق بها من المقتضيات .. فقد كان هذا فسادا ضخما ولاشك .

---

(١٠٣) سورة الماعون [٤ ـ ٧]

ومع ذلك فلم يكن الأمر ليتوقف عند هذا الحد ، فمن طبيعة الانحسار أن يزداد مادام الناس لايحسون أنه انحسار ، وأنهم مقصرون فى أداء الواجب ، ومنحرفون عن الطريق الصحيح ..

لقد كانت الأجيال الأولى تحتفل احتفالا ضخما بالشعائر التعبدية ـ وإن كانت لاتحصر العبادة فيها ـ لأنها تحس ـ كما أسلفنا ـ أنها محطات التزود بالزاد ، وتحس بحاجة المسافر إلى ذلك الزاد .(١٠٤)

لقد كانت الصلاة فى حسهم ـ كما ينبغى أن تكون ـ وقوفا بين يدى الله ، وخشوعا وإخباتا يناسب ذلك الموقف بين يدى الله . كان الله حاضرا فى قلوبهم ـ وكان هذا الحضور يحكم الموقف كله . فالله قريب منهم مطلّع عليهم . يراهم وهم يتهيأون للصلاة ، ويراهم وهم يؤدونها ، وهم يتلون القرآن ، وهم يركعون ويسجدون ويقومون . ويحسون فى كل لحظة أنه قريب منهم ، يرقب حركاتهم وسكناتهم ، ويطلع على خفقات قلوبهم ، ويتقبل إخباتهم ، ويستجيب دعاءهم .. فيكون لهذا كله أثره فى نفوسهم ، فتؤدى الصلاة ـ من ثم ـ وظيفتها فى حياتهم . تزيدهم قربا من الله . وتنهاهم عن الفحشاء والمنكر . وتزيدهم رغبة فى طاعة الله ورسوله ، لأنهم بهذه

---

(١٠٤) ورد ذكر « الزاد » صريحا فى شأن الحج فى قوله تعالى : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى . واتقون يا أولى الألباب [سورة البقرة : ١٩٧] .

الطاعة ينالون رضوان الله فى الحياة الدنيا وفى يوم الموقف العظيم ..

وكان الصيام فى حسهم ـ كما ينبغى أن يكون ـ مهرجانا هائلا للعبادة ، والتقرب إلى الله بالطاعات ..

لم يكن مجرد جوع فى النهار وشبع فى الليل !

كان موسما يستعدون له نفسيا وروحيا كمن يتهيأ لدخول حرم قدسى ، يهيئ نفسه إليه بالخشوع والإخبات قبل أن تخطو إليه قدماه ، ومن ثم تتأثر نفسه بكل خطوة يخطوها فى محيطة ، كأنما يتلقى منه إشعاعات تنفذ منه إلى الأعماق ..

كان عبادة شاملة تطهر النفس من أدران كثيرة تترسب فى النفس فى معتاد حياة الإنسان ، فيخرج عنها حين يغير نظام حياته ، ويدخل فى نظام جديد للحياة ..

فكما أن تغيير نظام الطعام يعيد النشاط إلى خلايا الجسم فيجدد حيويتها ، فكذلك التغيير النفسى الذى يحدث فى الصوم ، يجدد حياة الروح ، فتنطلق شفيفة رفافة إلى آفاق لم تكن ترتادها من قبل ، أو كانت ترتادها فهجرتها تحت وطأة المشاغل اليومية التى تتعامل مع عالم الحس أكثر مما تتعامل مع عالم الروح ، فيعيد ذلك الشهر المبارك إلى النفس طاقتها الروحية الشفيفة ، فيتجدد بناء الإنسان ، وتتوازن فى نفسه المشاعر ، وتتوازن الرغبات ..

ثم إن الصيام تجنيد للنفس وتدريب على الاستعلاء على

الشهوات ، ينمى فى القلوب تقواها وإخباتها إلى الله .

إن التقوى لاتكون مع غلبة الشهوات .. إنما تكون مع الانضباط الذى يلزم النفس بالحدود التى حددها الله ، وقال عنها : « تلك حدود الله فلا تقربوها »[١٠٥] أو « تلك حدود الله فلا تعتدوها »[١٠٦]

والانضباط يحتاج إلى تدريب لكى يصبح عادة ، حتى تستسلم شهوات النفس والجسد لإرادة الإنسان ، ويصبح قيادها فى يديه ، يطلقها ـ بقدر ـ حين يشاء ، ويحبسها ـ بقدر ـ حين يشاء .

والصيام هو ذلك التدريب ! وهو يتناول من الجسد والنفس أقوى دفعاتها : الطعام والشراب والجنس . ومن ثم فهو تدريب معين على التقوى :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »[١٠٧]

وكانت الزكاة فى حسهم ـ كما ينبغى أن تكون ـ زكاة للنفس والمال معاً ، وطهرا للحياة كلها حِسِّيِّهَا ومعنوِيّها سواء .

---

(١٠٥) سورة البقرة [١٨٧]

(١٠٦) سورة البقرة [٢٢٩]

(١٠٧) سورة البقرة [١٨٣]

لم تكن « ضريبة » تؤدى للدولة.. ولكنها قربة تقدم إلى الله .

وفرق كبير بين أن تكون ضريبة مالية أو عينية ، تمتزج فى حس دافعيها بسطوة الدولة وقهرها ، وبين أن يشعر من يؤديها بأنه يتطهر بأدائها .. يغسل أدرانه ، ثم يبدأ صفحة جديدة من الكدح خالية مما يشوب بياضها. فيمشى فى مناكب الأرض ليأكل من رزق الله ، متطلعا لرضوان الله يوم يلقاه :

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » (١٠٨)

والتطهر الذى تشير إليه الآية الكريمة : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » (١٠٩) ليس هو التطهر من الشح وحده ، وهو المعنى القريب الذى يتبادر إلى الذهن حين تذكر زكاة المال . ولكنه تطهير السعى كله فى مناكب الأرض من أن يدخله الحرام أو يُتَوَجَّه فيه بالحرام .

والإنسان الصالح الذى يهدف الإسلام إلى تنشئته ليقوم بدور الخلافة فى الأرض ، لابد أن يستعلى على شهوة المال من ناحية ، ولابد أن يشعر برابطة الأخوة بينه وبين المؤمنين من ناحية أخرى . أخوة توجب عليه كفالة العاجزين منهم وإعانتهم على توفير الحياة

---

(١٠٨) سورة الملك [١٥]

(١٠٩) سورة التوبة [١٠٣]

الكريمة التي يكفلها الإسلام لجميع الناس .

وحين يتحرى الإنسان الطيب الحلال وهو يسعى إلى الرزق ، ويتحرى هذه الأخوة بينه وبين المؤمنين فلاشك تسمو نفسه وترتفع فتزكو كما يريدها الله : « قد أفلح من زكاها »(١١٠)

والسعي وراء الرزق من أكبر المزالق التي يتعرض لها الإنسان ، لأن هناك شهوات محببة إلى النفوس :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ..»(١١١)

والنفوس عرضة للاستغراق في تلك الشهوات مالم تلتزم بالطيب الحلال من ناحية ، ومالم تنشغل من ناحية أخرى بالقيم العليا التي تستوعب مشاعر النفس وترتفع بها عن المتاع الحسّي الغليظ :

« قل : أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد ، الذين يقولون : ربنا إننا آمنا ، فاغفر لنا ذنوبنا ، وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار »(١١٢)

---

(١١٠) سورة الشمس [٩]

(١١١) سورة آل عمران [١٤] .

(١١٢) سورة آل عمران [١٥ـ ١٧]

والحرص على التطهر فى السعى وراء الرزق ، مع الإنفاق من حصيلة ذلك السعى فى سبيل الله ــ وهما حقيقة الزكاة ــ من أكبر المعينات للنفس البشرية لكى تستقيم على الأفق الأعلى ، ولاتسقط فى حمأة الشهوات .

ومن ثم كان اشتراط الطهارة فى المال الذى تؤدى زكاته :

« إن الله طيب لايقبل إلا طيبا »[113]

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ماكسبتم ، ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولاتيمموا الخبيث منه تنفقون »[114]

ومن ثم كذلك كانت الزكاة تؤدى مقتضاها فى حياة المسلم على اتساعها ، لا فى جانب المال فحسب :

« الذين يؤتون ماآتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون »[115]

أما الحج ــ على كونه مرة فى العمر لمن استطاع إليه سبيلا ، وعلى كونه « أياما معدودات » ــ فهو عبادة عميقة الأثر فى حياة المسلم حين يعيشه كما كانت تعيشه الأجيال الأولى ، التى مارست العبادة بمعناها الشامل العميق .

---

(١١٣) سبق ذكره .

(١١٤) سورة البقرة [٢٦٧]

(١١٥) سورة المؤمنون [٦٠]

إنه عبادة تشمل فى طياتها كل العبادات .. بتركيز واضح على عبادة التوحيد بالذات ..

إنه خلوص وتجرد إلى الله .. تجرد من كل ماتتعلق به النفس فى الحياة الدنيا من أهل ومسكن وموطن ومتاع .. حتى الملبس الذى تعود الإنسان أن « يتزين » به ويتأنق بخياطته على قده ..

تجرد من ذلك كله إلى الله .. وحده .. تلبية وذكرا وتوجها وصلاة ونسكا وعبادة ..

وفى حشر يذكّر بيوم الحشر ..

وفى شئ من الجهد والمشقة ، ولكن فى غير المعتاد من « الكدح » الذى ينفق فيه معتاد حياته .. فى كدح من نوع آخر ، يشد النفس إلى اليوم الآخر بقدر ماينتزعها من متاع الأرض ..

« أياما معدودات » .. ولكنها فى حساب النفس حدث هائل عميق .. تغيير كامل شامل يتوغل فى النفس حتى أعماقها ويلقى عنها خبثها كله .. لتعود كأنما هى خلق آخر .. ولد اللحظة ، ليبدأ رحلة حياة جديدة غير التى كانت من قبل ..

ومن هنا كان الحج يؤدى مقتضاه فى حياة المسلم ، مصداقا لقولَ الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم

يفسق ، رجع كما ولدته أمه »[116]

* * *

كل هذا تغيّر تغيرا عنيفا حين تغيّر مفهوم العبادة ..

فحين غفل الناس عن « مقتضيات » العبادة ، من التوجه المخلص لله ، والإخبات له والخشوع فى حضرته سبحانه ، وحين انقطعت العبادة عن لوازمها المتعلقة بها ، ونتائجها التى ينبغى أن تترتب عليها ..

حين انحسرت مساحتها فى نفوس الذين يؤدونها ..

حين صار المطلوب كله هو أداء الشعيرة ، وانحصرت « العبادة » كلها فى هذا الأمر ، كان حريا بهذا اللون من العبادة أن ينحسر أكثر فأكثر ، حتى يصبح المطلوب هو أداء الشعيرة **بأى صورة كانت** .. ولو كان أداء آليا بغير روح ، أو أداء تقليديا يحركه الحرص على التقاليد أكثر مما يحركه الدافع إلى عبادة الله ..

وتلك هى الصورة التى انتهت إليها العبادة فى الجيل الذى شهد الانهيار ..

وصلت الصلاة أن تكون مجرد حركات تؤدى بلا خشوع ولا إخبات ، ولا التفات إلى معنى مايتلى فيها من الآيات والذكر ،

---

(١١٦) سبق ذكره

وينصرف منها المصلى لاتكاد تحس أنها قد تركت أثرا فى نفسه ، أو انعكست على تصرف من تصرفاته ، هذا إن لم يكن قد انشغل عنها تماما ــ وهو فيها ــ بحساب خسائره وأرباحه ، أو شئ من سائر مشاغله اليومية !

وأصبح الصيام مجرد امتناع عن الطعام والشراب ساعات النهار ، مع نهم ضخم إلى الطعام بعد الإفطار يصل إلى حد الإسراف ، كأنما هو شهر الطعام لاشهر الصوم ! فضلا عن البحث عن « المسليات » فى ليل الصوم ، من عكوف على المذياع أو التلفاز ، أو ماهو أعجب من ذلك وأسوأ ، مما تنشره صحف « محترمة » فى البلاد « الإسلامية » « المتقدمة » من إعلانات تقول : إن الراقصة الفلانية « تحيي ليالى رمضان ! ! » فى المسرح الفلانى إلى مابعد منتصف الليل ، ويعج المسرح « بالصائمين » الذى صاموا من قبل الرقص ومن بعده ، بلا حرج فى صدورهم ولاتأثم ، ولا إحساس بالتناقض بين مايجرى فى الليل ومايجرى فى النهار ، فإنما هى ــ حفظك الله ــ ساعة بعد ساعة ! .. « ساعة لربك وساعة لقلبك » كما يقول التعبير الجاهلى المعاصر !

والزكاة ــ إن أداها صاحب المال ــ لاتمنعه من أكل الربا ولاتحرج صدره منه ! فهذه عبادة وهذا عمل ! ولاعلاقة ولا تداخل بين العبادة وبين العمل ! فضلا عن الألاعيب والحيل التى

يسترد بها « المزكى » جزءا من المال الذى تصدق به بالتحايل على من أداه إليهم من الفقراء والمساكين !

والحج فرصة هائلة للحصول على لقب « الحاج » .. ولاحرج على « الحاج » بعد ذلك أن يحلف اليمين الغموس إذا اقتضت ذلك « مصلحة » التجارة أو أى نوع من التعامل يقوم به ! فضلا عما يقع فى الحج ذاته من أمور يذهل لها العاقل ، فضلا عن المسلم المؤمن ، من تدافع ـ مقصود ـ بالمناكب ، ومن « حجاج » يدوسون فوق إخوان لهم فى الإسلام وإخوان لهم فى الحج حتى يزهقوا أرواحهم غير مبالين ، من أجل الانتهاء من الرجم بأية صورة أو الانتهاء من الطواف ! وفضلا عن جهالة الجاهلين الذين يتركون أركانا لايصح الحج إلا بها ، أو يرتكبون مخالفات صريحة دون فدية ولانسك .. لأنهم لايعلمون !

* * *

يقول علماؤنا : سقط الواجب بالأداء ، أيّاً كانت صورة الأداء .. حتى وإن لم يكن له ثواب !

أو ـ بلغة أخرى ـ سددت الخانة وانتهى الأمر !

ويقول علماؤنا : مادام قد قام بالواجب على أى نحو فهو مؤمن لايخلد فى النار .. بل قال المرجئة : يدخل الجنة ولو لم يعمل عملا واحدا من أعمال الإسلام !

ونسلم بما يقوله علماؤنا توفيراً للجدل ! بصرف النظر عن كون الآيات والأحاديث التى يستدلون بها تنطبق على واقعنا المعاصر أم لاتنطبق عليه !

ثم .. إذا بنا أمام أمة لاتبالى ـ إلا من رحم ربك ـ أن تدخل النار مادامت لاتخلّد فيها .. وحسبها النجاة من الخلود فى النار !

ومايقول أحد إن البقاء فى النار خمسين ألف سنة ثم الخروج منها برحمة من الله ، مثل الخلود فيها بلا انقطاع ..

ولكن الأمة التى لاتبالى أن تدخل النار مادامت لا تخلّد فيها .. لاتبالى أن ترسب فى الامتحان على أمل أن تلتقطها « لجان الرأفة » .. لا جرم تكون كما أسلفنا غثاء كغثاء السيل ، تتداعى عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، لا يقام لها وزن ولا اعتبار ، كتلك القبيلة التى هجاها الشاعر العربى القديم :

ويقضى الأمر حين تغيب تَيْمٌ ولا يستأذنون وهم شهود !

* * *

فرق شاسع بين مفهوم العبادة كما نزل من عند الله ، وعلمه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووعاه الجيل الأول ومارسه ، وبين المفهوم الشائه الهزيل الضامر الذى فهمته الأجيال المتأخرة .. مارسته أم لم تمارسه !

المفهوم الأول هو الذى أخرج « خير أمة أخرجت للناس » ..
والمفهوم الأخير هو الذى أخرج « غثاء السيل » ..
ولابد من تصحيح المفاهيم ..
« إن الله لايغيّر مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »[١١٧]

« قل : لايستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث »[١١٨] .

إن المسألة ليست هامشية ولاثانوية .. ولاهى مسألة هينة يكفى لحلها شئ من الوعظ والإرشاد .. أو حتى سيل من الوعظ والإرشاد ..

إنها مسألة تحتاج إلى بناء من جديد ..

إن العبادة على هذا النحو الشائه الهزيل الضامر ، ولو قام بها الألف مليون كلهم الذين يعيشون اليوم من المحيط إلى المحيط ، لن تنقذهم مما هم فيه ، ولن ترفعهم من وهدة الهوان والذل التى تحيطهم من كل مكان .

لأمر بسيط .. لأنها ليست هى العبادة التى كتبها الله ، وكتب

---

(١١٧) سورة الرعد [١١]
(١١٨) سورة المائدة [١٠٠]

معها العزة لمن يقومون بها فى صورتها الصحيحة .. وكتب لهم التمكين والاستخلاف فى الأرض ..

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، **يعبدوننى** لايشركون بى شيئا » (١١٩)

والمعّول كله كما هو واضح من الآية هو على تلك « العبادة » حين تؤدى على النحو الذى كتبه الله ..

أما العبادة التى يقوم بها الغثاء الموجود اليوم من المحيط إلى المحيط ـ إلا من رحم ربك ـ العبادة التى تفرغ لا إله إلا الله من مقتضياتها ، وتجعلها مجرد كلمة تنطق باللسان ، وتخرج التكاليف كلها من دائرة العبادة ، وتفرغ الشعائر من شحنتها الحية الدافعة ، وتتركها أداء شائها هزيلا لاروح فيه ، فإنها لاتحقق إلا هذا الخسران الذى يمارسه ذلك الغثاء فى واقع الأرض ..

والغثاء ـ بهذه العبادة الهزيلة الشائهة الضامرة ـ لايعجز عن إنقاذ نفسه فحسب ، بل هو كذلك يصد عن السبيل !

والذين يدافعون عنه ويقولون : مؤمن وسيدخل الجنة ، ولو لم

---

(١١٩) سورة النور [٥٥]

يعمل عملا واحدا من أعمال الإسلام ، يغفلون فى حرارة دفاعهم ـ ونعتقد فيهم الإخلاص ـ يغفلون عن الأثر السيئ الذى يتركه ذلك الدفاع !

الأثر السيئ فى الغثاء نفسه ، إذ يملى له فى الخدر الذى يعيش فيه ، ولايجعله يغير مابنفسه فيغيّر الله له ، والأثر السيئ فى الشباب « المثقف » الذى ندعوه إلى الإسلام !

فحين نقول لذلك الشباب « المثقف » : إن الإسلام هو الحل ، وإن لا إله إلا الله هى الحل ، وإن العبادة الصحيحة لله هى الحل .. يهز كتفيه ساخرا ويقول : هاهو ذا الإسلام موجوداً ، وهاهى ذى لا إله إلا الله موجودة ، وهاهى ذى العبادة قائمة ، ومع ذلك فأكثر الناس تأخرا هم المسلمون . وأكثر الناس مشاكل اقتصادية وسياسية واجتماعية هم المسلمون ، وأسوأ الناس خلقا هم المسلمون ! فلنبحث عن الحل إذن خارج الإسلام ، لأنه ـ وهو قائم ـ عديم الأثر فى حياة الناس ! غير قادر على حل مشاكل الناس !

ولابد لنا أن نكون صرحاء مع أنفسنا ومع الناس ، ونقول لهم ـ بعيدا عن قضية إصدار الحكم على هذا الجيل من الناس [١٢٠] ـ : إن الموجود اليوم فى حياة الناس ليس هو الدين الذى أنزله الله ، ولا

(١٢٠) سبق أن أشرنا إلى هذه القضية فى الفصل الأول : « مفهوم لا إله إلا الله » وفى كتاب « واقعنا المعاصر » فصل : « الصحوة الإسلامية »

العبادة التى أمر بها الله . وإنه لابد لنا من تصحيح المفاهيم أولا ، ثم إقامة بناء جديد على المفاهيم الصحيحة للإسلام .

ثم نقول لهم : إن ماحل بالمسلمين من تأخر حضارى وعلمى وعسكرى وسياسى ومادى واقتصادى واجتماعى وفكرى وروحى .. الخ لم يكن سببه أنهم مسلمون[١٢١] !، ولم يكن سببه حتميات تاريخية ولا أطواراً اقتصادية ![١٢٢] إنما سببه الأصيل هو فساد سلوك المسلمين أولا ، ثم فساد تصورهم ثانيا ، وإفراغ الإسلام أخيرا من كل محتواه .

فيوم كانت « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » عبادة لم يجرؤ أحد على احتلال أرض المسلمين واستلاب خيراتهم !

ويوم كان « طلب العلم فريضة » لم يكن هناك تخلف علمى ، بل كانت الأمة المسلمة هى أمة العلم ، التى تعلمت أوربا فى مدارسها وجامعاتها !

ويوم كانت « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » عبادة ، كانت المجتمعات الإسلامية أغنى مجتمعات الأرض !

---

(١٢١) تلك قولة الغرب التى استخدمها فى الغزو الفكرى لسلخ المسلمين مما بقى لهم من إسلام !

(١٢٢) تلك قولة الشيوعيين التى يستخدمونها فى الغزو الفكرى لإقناع الناس أنه لاحل لهم إلا الشيوعية !

ويوم كانت « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » عبادة ، وكان ولى الأمر يستشعر أنه راع ومسئول عن رعيته ، لم يكن للفقراء فى المجتمع الإسلامى قضية ، لأن العلاج الربانى لمشكلة الفقر كان يطبق فى المجتمع الإسلامى عبادة لله ! (١٢٣) .

ويوم كانت « وعاشروهن بالمعروف » عبادة ، لم تكن للمرأة المسلمة قضية ! لأن كل الحقوق والضمانات التى أمر الله لها بها كانت تؤدى إليها ، طاعة لله ، وعبادة لله !

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ..

تصحيح المفاهيم أولا ، ثم إقامة بناء جديد على المفاهيم

---

(١٢٣) يقول يحيى بن سعيد: بعثنى عمر على صدقات إفريقية فاقتضيتها ، فبحثت عن فقراء أعطيها لهم فلم أجد ، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشتريت بها عبيدا فأعتقتهم . وجاء فى كتاب « الأموال » للإمام الحافظ أبى عبيد القاسم بن سلام المتوفى عام ٢٢٤هـ (ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨) : وحدثنى سعيد بن أبى مريم .. قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن وهو بالعراق : « أن أخرج للناس أعطياتهم » فكتب إليه عبد الحميد : إننى أخرجت للناس أعطياتهم وقد بقى فى بيت مال المسلمين مال «فكتب إليه : «أن انظر كل بكر ليس له مال فشاء أن تزوجه فزوجه وأصدق عنه » فكتب إليه « إنى قد زوجت كل من وجدت وقد بقى فى بيت مال المسلمين مال » فكتب إليه بعد مخرج هذا : « أن انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه مايقوى به على أرضه ، فإنا لانريدهم لعام أو لعامين » !

الصحيحة للإسلام ..[١٢٤]

ولن يكون هناك سحر يمحو الضعف والتخلف فى لحظات ويبدلها تقدما وقوة ..

إنما هناك سنن ربانية تقوم عليها حياة الناس فى الأرض ..

وحين نعمل حسب السنن الصحيحة يأتينا الحل الصحيح ..

وليس من السنن الصحيحة أن نفسد ديننا ثم نقول : يارب ! يارب !

إنما قال تعالى عن الحياة الدنيا : « **وعد الله الذين آمنوا منكم**

---

(١٢٤) يقول الشيوعيون عنا إننا نختزل القضايا اختزالا مخلاً ، ونجرد العامل الأخلاقى (ويقصدون به العقيدة !) ، ونرد إليه الأمور كلها.. مجردا عن الإطار المادى والاقتصادى والطبقى والتاريخى ، سذاجة منا ، وجهلا بالمادية الجدلية والتفسير المادى للتاريخ ! وقد ناقشت الفكر المادى وسائر مقولات الشيوعيين مناقشة مستفيضة فى كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » (ص ٢٥٨ ـ ص ٤٤٤ من الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م) ولا مجال هنا للإعادة . ولكنا نقول فقط : إن الذى ندعو إليه ليس عاملا أخلاقيا مجردا كما يتوهمون من كلا منا بسبب جهلهم بحقيقة الإسلام . فالإسلام عقيدة ينبثق منها نظام سياسى اجتماعى اقتصادى فكرى حضارى مادى ، ثابت الأسس متغير الصورة بما يناسب أوضاع البشرية خلال مسيرتها التاريخية ، وهو فى تغيره الدائم محكوم أبدا بالأسس الثابتة **التى لا يجوز أن تتغير** ، لأن تغيرها يفسد الحياة البشرية . وإذا كنا « نبرز » العامل الأخلاقى ـ دون أن نجرده ـ فإننا نفعل ذلك لأن الشيوعيين يغفلونه إغفالا متعمدا ، متأثرين بالفكر اليهودى الذى صاغ لهم الشيوعية .

وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا »[125] .

وقال عن الحياة الآخرة : « **ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب** . من يعمل سوءا يجز به ولايجد له من دون الله وليا ولا نصيرا . **ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن** ، فأولئك يدخلون الجنة ولايظلمون نقيرا »[126] .

وواضح من الآيات أن طريق الفوز فى الدنيا هو ذاته طريق الفوز فى الآخرة بلا افتراق .

فالمستخلفون الممكّنون فى الدنيا هم : « **الذين آمنوا** منكم **وعملوا الصالحات** »

« **ومن يعمل من الصالحات** من ذكر أو أنثى **وهو مؤمن** » فأولئك هم الفائزون فى الآخرة .

ولاغرابة فى ذلك فى الدين الذى يجعل الدنيا مزرعة الآخرة ، ويجعل إقامة حكم الله فى الأرض ، وتحقيق العدل الربانى ، وطلب العلم ، والمشى فى مناكب الأرض سعيا وراء الرزق ، ومعاشرة الأهل

---

(١٢٥) سورة النور [٥٥]

(١٢٦) سورة النساء [١٢٣ــ ١٢٤]

بالمعروف ، وإعداد العدة لأعداء الله ، والتخلق بالأخلاق الفاضلة .. جزءا من العبادة ، مطلوبا كالصلاة والزكاة والصيام والحج (١٢٧)

أما طريق المرجئة ، الذى يخرج العمل من مسمى الإيمان ، ويخرجه من مفهوم العبادة ، فهو الطريق الخاسر فى الدنيا والآخرة على السواء .

« قل : كُلٌّ يعمل على شاكلته » (١٢٨)

« ولكلٍّ درجات مما عملوا » (١٢٩)

---

(١٢٧) سنعود إلى تفصيل هذا المعنى فى فصل تال بعنوان « مفهوم الدنيا والآخرة » .

(١٢٨) سورة الإسراء [٨٤]

(١٢٩) سورة الأنعام [١٣٢]

مفهوم القضاء والقدر

الإيمان بالقضاء والقدر جزء رئيسى من عقيدة المسلم ، كما بينها حديث جبريل عليه السلام : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره »[1] .

وهو من مميزات هذه الأمة فى تاريخها الطويل .

ولكنه كان فى حس الأجيال الأولى من هذه الأمة قوة دافعة بناءة محركة ، بقدر ما صار فى حس الأجيال المتأخرة منها قوة سلبية هدامة مخذّلة ، حين انحرف مفهوم القضاء والقدر فى حسها عن صورته الصحيحة التى عاشت بها الأجيال الأولى وبنت وعمرت وتحركت .

والصورة الظاهرة واحدة فى الحالين ، ولكن شتان ما بين هذه وتلك فى حقيقة الأمر .. كما حدث فى كل شىء فى حياة هذه الأمة !

إن ألفاظ الشهادة التى كانت تنطقها الأجيال الأولى من المسلمين هى ذات الألفاظ التى جرت على لسان الأجيال المتأخرة « أشهد ألا إله

---

(١) أخرجه الشيخان

إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » ولكن الأولى كانت تهز الأرض كلها وتحركها لأنها كانت تعمل فى واقع الأرض برصيدها الكامل وشحنتها الكاملة ، والأخيرة لم تعد تصنع شيئا فى الأرض ، بل لم تعد تستطيع حتى أن تحافظ على الوجود الإسلامى أمام الغزو العسكرى والسياسى والاقتصادى ، وأمام الغزو الفكرى الذى هو أخطر من هؤلاء جميعا ، لأنها صارت كلمة بغير شحنة ولا رصيد ! .

وحركات الصلاة من قيام وقعود وركوع وسجود ، وقرآن يتلى ، وألفاظ تردد ، هى هى منذ كانت إلى اليوم لم يتغير فيها شىء . ولكنها كانت تقام فتعلن عن وجود أمة حية قوية مهيبة ، لأنها كانت تؤدَّى على حقيقتها ، وتؤدِّى مقتضاها ، فتعلن عن وجود الأمة التى حققت فى عالم الواقع غاية الوجود الإنسانى ، فكان لها من ثم الغلبة على أية أمة أخرى لا تحقق هذا الوجود على صورته الصحيحة ، تحقيقا لسنة الله فى الأرض :

« ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون »[٢] .

وتحقيقاً لوعد الله لهذه الأمة خاصة :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى

---

(٢) سورة الأنبياء [١٠٥] .

ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا » [٣] .

وكذلك عقيدة القضاء والقدر .. صورتها الظاهرة هى الإيمان بأن كل ما يحدث فى هذا الكون وفى حياة الإنسان يتم بقضاء من الله وقدر ، وأنه لا يحدث فى هذا الكون العريض كله ولا فى حياة الإنسان إلا ما قدره الله .

« إنا كل شىء خلقناه بقدر » [٤] .

« ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير » [٥]

« ماأصاب من مصيبة إلا بإذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، والله بكل شىء عليم » [٦] .

« قل : لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا ، هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » [٧] .

ولكن الفارق الضخم فى حقيقة هذه العقيدة بين الأجيال الأولى والأجيال المتأخرة هو الفارق بين **التوكل** على الله كما مارسته الأجيال الأولى **والتواكل** الذى حدث فى عصر الانحسار ، ثم عصر الانحدار ،

---

(٣) سورة النور [٥٥] .
(٤) سورة القمر [٤٩] .
(٥) سورة الحديد [٢٢]
(٦) سورة التغابن [١١] .
(٧) سورة التوبة [٥١] .

وهو فارق لا يقل ضخامة عن فارق لا إله إلا الله ، وفارق الصلاة وسائر العبادات ما بين هذه الأجيال وتلك الأجيال !

كان المسلم الأول يؤمن بأن كل ما يحدث له أو يحدث فى الكون هو بقضاء الله وقدره ، وأن شيئا لن يغيّر ما قدره الله منذ الأزل فى اللوح المحفوظ .

ثم كانت نتيجة إيمانه بذلك أن يقول لنفسه : أإذا ذهبت إلى ميدان القتال أُقْتَلُ بسبب ذهابى إلى هناك ؟ أم إنه يجرى علىّ ما قدره الله لى ، فإن كان كتب لى الشهادة هناك فسأقتل ـ بقضاء من الله وقدر ـ وإن كان كتب لى العودة فسأعود ؟ ثم إننى إن كان الله قد كتب علىّ الموت فسأموت ولو كنت فى مكانى هذا ولم أذهب إلى القتال .. إذن فما الذى يقعدنى عن القتال ؟ خوف الموت وهو مقدر على أى حال ؟ أم خوف الأذى ولن ينالنى منه إلا ما قدره الله فى كل حال ؟ كلا فلنذهب إلى أداء فريضة ربنا ، ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون . ثم يذهب إلى القتال بنفس شجاعة فيستبسل ، فيُمضى الله به قدره فى الأرض ، وينصر به هذا الدين ويمكن له ، ثم يكون من أمره ما قدره الله له ، إما الشهادة وإما النصر .

«قل : هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ؟»[8] .

---

(٨) سورة التوبة [٥٢] .

ولما اضطربت نفوس المنافقين وضعاف الإيمان بعد هزيمة أحد نزلت آيات بينات تقرر هذه الحقيقة وتؤكدها وترسخها فى نفوس المؤمنين .

« ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمر من شيء ؟ قل : إن الأمر كله لله . يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك ، يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا ! قل : لوكنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم . وليبتلى الله ما فى صدوركم ، وليمحص ما فى قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور »[(٩)] ..

« يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزًّى لوكانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم . والله يحيى ويميت ، والله بما تعملون بصير . ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون . ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون »[(١٠)] .

كذلك كان المسلم الأول يفعل وهو يكشف مجاهيل الأرض لنشر الدعوة ، ولطلب العلم ، وللسعى وراء الرزق ، ويمشى فى مناكب

---

(٩) سورة آل عمران [١٥٤] .

(١٠) سورة آل عمران [١٥٦ ـ ١٥٨] .

الأرض ويتعرض للأخطار والمشقات .

كانت القاعدة فى حسه أن أقدم .. وتوكل على الله .

كيف تحول هذا الإقدام إلى تقاعس وقعود فى انتظار ما قدره الله ؟ !

* * *

كذلك كان فى حس المسلم الأول أن إيمانه بالقضاء والقدر لا ينفى مسئوليته عن عمله حين يرتكب خطأ يعرّضه للجزاء .

وفى وقعة أحد كان الدرس هائلا وعميقا فى نفوس المؤمنين .

لقد خالف الرماة أمر قائدهم ورسولهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ أمرهم ألا يبرحوا أماكنهم ولو رأوا المسلمين تتخطفهم الطير . ولكنهم حين رأوا النصر ، وظنوا أن المعركة قد انتهت إلى غايتها ، شغلتهم الغنائم عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغادروا أماكنهم ونزلوا مخافة ألا يحسب لهم نصيب من الغنائم ! ومن هنا كرّ المشركون بخيلهم على جيش المسلمين مطمئنين إلى انصراف القوة الضاربة من فوق جبل الرماة . وكانت الهزيمة والاضطراب العنيف فى صفوف الجيش ، وإصابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أشاع الكفار من قتله عليه الصلاة والسلام ، وأثر ذلك فى تفريق وحدة الجيش ..

ونزل القرآن بعتاب شديد للمؤمنين على ما فعلوا . ونزل كذلك بالشرح والبيان . وكان من هذا الشرح تلك الآيات :

« **أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا ؟ ! قل : هو من عند أنفسكم** . إن الله على كل شيء قدير . **وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله** ، وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا .. »(١١)

إنه من عند أنفسكم .. وفى ذات الوقت هو بإذن الله .

المسئولية عن الخطأ قائمة ، والإيمان بأنه من قضاء الله وقدره قائم .. لا يتعارضان .

ولقد كان هذا من أعظم ما تعلمته هذه الأمة ومن أعظم ما تميزت به : إزالة التعارض بين إيمان الإنسان **بمسئوليته عن عمله** ، وإيمانه بقضاء الله وقدره ، وإقرار الأمرين معا فى القلب البشرى ليتوازن بينهما ، ويتوازن بهما فى مسيرته فى هذه الأرض ، فلا يزايله الإحساس الدائم بقدر الله والتطلع إليه فى الكبيرة والصغيرة ، ولا يزايله كذلك مراقبته لأعمال نفسه ووزنها بميزان الخطأ والصواب .

كيف تحول هذا التوازن البديع إلى تنصل من كل مسئولية بدعوى الإيمان بقضاء الله وقدره ؟

* * *

(١١) سورة آل عمران [١٦٥ ـ ١٦٧] .

كذلك كان فى حس الأمة الأولى أن إيمانها بالقضاء والقدر لا يتعارض مع اتخاذ الأسباب .

لقد كانوا يدركون من جانب أن لله سننا فى هذا الكون وفى حياة البشر غير قابلة للتغيير . ومع أن لله ـ سبحانه وتعالى ـ سنة خارقة تملك أن تصنع كل شىء ، ولا يعجزها ولا يقيدها شىء ، لأن مشيئة الله طليقة من كل قيد ، إلا أن الله جلت قدرته قد قضى بأن تكون سنته الجّارية ثابتة فى الحياة الدنيا ، وأن تكون سنته الخارقة استثناء لها ، وكلتاهما معلقة بمشيئة الله .

لذلك كان فى حسهم أنه لابد لهم من مجاراة السنن الجارية إذا رغبوا فى الوصول إلى نتيجة معينة فى واقع حياتهم ، أى أنه لابد من اتخاذ الأسباب المؤدية إلى النتائج بحسب تلك السنن الجارية .

وبيّن الله لهم ذلك بيانا صريحا فى كتابه المنزل .

فلقد قدر الله لدينه أن ينتصر ويمكّن فى الأرض ، وقدر لكيد الكفار أن يحبط :

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون »[١٢] .

« ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا . إنهم لا يعجزون »[١٣] .

---

(١٢) سورة الصف [٩]

(١٣) سورة الأنفال [٥٩] .

لا يعجزون الله الذى كتب لدينه النصر ، ولا يسبقون قدره . فقدره هو السابق وإرادته هى النافذة .

ومع ذلك فهل قال لهم : مادمت قدرت لديني النصر والتمكين فاقعدوا وانتظروا نفاذ قدرى ، وهو لابد نافذ ؟ كلا ! إنما قال لهم ـ فى نفس الوقت الذى عرفهم فيه بقدره المكتوب لهذا الدين ، وبأنه نافذ لا محالة ـ إنه لابد لهم أن يجاهدوا ويعدوا :

« ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا ، إنهم لا يعجزون . وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم . وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون »[١٤] .

« إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »[١٥] .

فلابد من اتخاذ الأسباب للنصر ، وإن كان النصر قدرا مقدورا من عند الله .

وهكذا تجاور فى حس المسلم إيمانه بقدر الله ، وإيمانه بأنه لابد أن يتخذ الأسباب المؤدية إلى النتائج بحسب السنة الجارية ، وإن كانت هذه الأمة لم تترك لتفتن بالأسباب ، تظنها مؤدية ـ بذاتها ـ إلى النتائج بمعزل عن قدر الله كما تصنع الجاهلية المعاصرة ، فقد كان درس حنين

---

(١٤) سورة الأنفال [٥٩ ـ ٦٠] . (١٥) سورة محمد [٧] .

لتثبيت هذا المعنى فى نفوس المؤمنين .

« .. **ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا** ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا . وذلك جزاء الكافرين »[١٦] .

وكان هذا كذلك من أبدع ما تعلمته هذه الأمة وتربّتْ عليه ، لتتوازن فى مسيرتها الأرضية بين التواكل بغير اتخاذ الأسباب ، وبين الاتكال على الأسباب .

كيف تحول هذا التوازن الرائع إلى سلبية كاملة ، وقعود عن اتخاذ الأسباب بدعوى الاتكال على الله ؟

* * *

ثم إنه لم يكن فى حس الأمة الأولى تعارض بين التسليم لقدر الله ، والعمل على تغيير الواقع السيئ حين يكون .

إن كل شئ فى هذا الوجود وفى حياة البشر واقع بقضاء الله وقدره . لاجدال فى ذلك ولاشك فيه فى نفوس المؤمنين .

وحين يوجد واقع سيئ فى حياة الناس فهو واقع بقضاء الله وقدره ،

---

(١٦) سورة التوبة [٢٥ ـ ٢٦] .

سواء بسبب من عند الناس كما حدث للمؤمنين يوم أحد بسبب مخالفتهم لأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو لأمر لا مسئولية لهم فيه كما كان الحال فى طاعون عمواس أيام الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ (ولم تكن أسباب الطاعون معروفة يومئذ ولا وسائل علاجه . فلا مسئولية على أحد فى ذلك الحين) أو ابتلاء من عند الله للمؤمنين ليمحصهم كما يحدث فى فترات الإبتلاء التى تجرى بسنة من سنن الله :

«أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناوهم لا يفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين» (١٧) .

هذا وغيره مما يصيب الناس فى الأرض يحدث كله بقضاء الله وقدره ..

ولكن الله لم يأمر الناس أن يستسلموا لقدر الله بمعنى عدم العمل على تغيير الواقع السيئ الذى هم فيه . إنما أمرهم بالتسليم (أو الاستسلام) لقدر الله بمعنى الرضى بما وقع بالفعل على أنه قدر محتوم لم يكن يمكن تلافيه . أما القعود عنده ، وعدم تغييره أو محاولة تغييره فأمر آخر لم يأمر الله به ولا حث عليه ، ولا علاقة له بالرضى بما وقع على أنه قدر محتوم من عند الله .

---

(١٧) سورة العنكبوت [٢ ـ ٣] .

ولنأخذ النماذج الثلاثة التى أشرنا إليها على سبيل المثال .

فحين وقعت هزيمة أحد ، بسبب من عند المؤمنين وبقدر من عند الله فى الوقت ذاته :

« قل : هو من عند أنفسكم ، إن الله على كل شىء قدير . وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله »[18] .

طلب الله من المؤمنين أن يسلموا لهذا القدر المقدور :

« فأثابكم غما بغم **لكيلا تحزنوا على مافاتكم ولا ما أصابكم** ، والله خبير بما تعملون . ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم .. »[19] .

ولكن هل طلب منهم أن يستسلموا للهزيمة ويقعدوا ، ولا يحاولوا تغيير الموقف السيئ الذى وجدوا أنفسهم فيه ، بحجة أنه قدر مقدور لم يكونوا ليفلتوا منه مهما حاولوا ؟ ! .

كلا ! إن الرسول صلى الله عليه وسلم ، القائد والصاحب والمربى ، تصرف فى ذلك الموقف تصرفا يدل على اتجاه مغاير تماما لهذا الظن . فقد جمع المسلمين ـ بجراحاتهم ـ للقاء العدو مرة أخرى ، والهزيمة لما تنته آثارها من الأجساد ولا من النفوس ! وامتدح الله موقف

---

(١٨) سورة آل عمران [١٦٥ ـ ١٦٦] .

(١٩) سورة آل عمران [١٥٣ ـ ١٥٤] .

المؤمنين «الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح» :

« الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا ، وقالوا : **حسبنا الله ونعم الوكيل** . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم » [٢٠] .

فهؤلاءهم الذين هزموا بقدر من الله (وإن كان بسبب من عند أنفسهم فى الوقت ذاته) يقولون : «حسبنا الله ونعم الوكيل» . فهم يتوكلون على الله ليخرجوا من الواقع السيئ إلى واقع جديد ! ولا يمنعهم قدر الله السابق من التطلع إلى قدر جديد ! وإذا كان قدر الله الأول قد أصابهم بخطأ ارتكبوه ، فهم يتطلعون إلى قدر الله الآخر **بعمل** يقدمونه بين يدى ذلك التطلع ، وهو الاستجابة لله والرسول ، أى بسلوك صحيح بعد السلوك الذى وقعت فيه الأخطاء . وهو اتخاذ الأسباب مع التوكل على الله . وهكذا لم يتعارض فى حسهم التسليم بقدر الله الواقع مع العمل على التغيير .

وفى طاعون عمواس ، علم الخليفة رضى الله عنه بخبر الطاعون فأمر الجند بالانصراف ، فقال له أبو عبيدة بن الجراح رضى الله

---

(٢٠) سورة آل عمران [١٧٢ – ١٧٤] .

عنه : « **أتفر من قدر الله ؟ !** » قال : « **أفر من قدر الله إلى قدر الله !** » وهى عبارة بليغة تدل على عمق فهم الخليفة ـ رضى الله عنه ـ لقضية القضاء والقدر . إن الطاعون قدر واقع على الناس بالفعل ؛ ولكنه لم يقع بعد على عمر وجيشه . فالعمل على تحاشيه أمر واجب . وهو يتم ـ حين يتم ـ بقدر من الله كذلك . فقدر الله بالطاعون لا يمنع قدر الله بالنجاة من الطاعون ! ولقد اتخذ عمر الأسباب التى ظنها مؤدية إلى النجاة ، فتمت النجاة بقدر من الله .

وفى الابتلاء الذى أصاب المؤمنين على يد قريش ـ وهو سنة من سنن الله لم تتخلف مع أى جماعة من المؤمنين تواجه الجاهلية فى بدء الدعوة قبل التمكين ـ كان الابتلاء واقعا بقدر من الله ، ولحكمة كذلك يعلمها الله ويريدها :

«فليعلمن الله الذين صدقوا ، وليعلمن الكاذبين»[٢١] .

فهل منع ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين من محاولة التغيير؟ بطلب الجوار من بعض المشركين حينا ، وبالهجرة إلى الحبشة حينا ، حتى جاء الإذن بالهجرة إلى المدينة آخر الأمر؟

كلا ! إن وقوع الابتلاء بقدر من الله ، وبمقتضى سنة من سنن الله الحتمية ، لا يمنع الاجتهاد فى تحاشى الابتلاء أو التخلص منه ، وحين

---

(٢١) سورة العنكبوت [٣] .

يتم شيء من ذلك فإنه يتم بقدر من الله ، وحين يخفق الجهد فسيكون ذلك أيضا بقدر من الله !

لذلك لم يتعارض فى حس الأمة الأولى واجب التسليم لقدر الله مع محاولة التغيير تطلعا إلى قدر جديد من عند الله . وكان هذا من روائع ما تربّتْ عليه الأمة لتتوازن به بين سلبية الاستسلام التى تحطم الإرادة وبين الرغبة الجامحة التى لا تعرف التسليم .

كيف تحول هذا التوازن إلى قعود عن التغيير بدعوى الاستسلام لقدر الله ؟

* * *

إن عقيدة القضاء والقدر فى صورتها الصحيحة تمثل نقط توازن هائلة ورائعة فى حس الإنسان المسلم الذى يسيّر حياته بمقتضى هذه العقيدة .

ففضلا عن كونها حقيقة متعلقة بذات الله ـ سبحانه وتعالى ـ وبأسمائه وصفاته وأفعاله ، فهى على ذلك من أصل العقيدة ، ومن جوهر لا إله إلا الله ، لأن أى تصور بأنه يمكن أن يقع فى ملك الله شيء لم يقدره الله هو شرك لا شك فيه ..

فضلا عن ذلك فإنها عقيدة ذات مقتضى ضخم جدا فى حياة الإنسان المؤمن ..

إنها نقطة توازن بين اتجاهات شتى يتعرض لها الإنسان حين لا ينضبط سلوكه وفكره وتصوره بالمنهج الربانى الصحيح ..

فشعور الإنسان بعظمة الله التى لا تحدها حدود ، وهيمنته سبحانه على كل شىء ، وجريان الأمر كله بمشيئته ، عرضة أن ينتهى بالإنسان إلى سلبية منحسرة لا تعمل شيئا ولا تتطلع إلى إنجاز أى شىء !

وشعور الإنسان بذاتيته ، ومقدرته على العمل والتصرف ، ورؤيته لإنتاجه الذى ينتجه بفكره وجسمه ، عرضة أن ينتهى بالإنسان إلى التأله والجحود والطغيان ، إعجابا منه بإيجابيته وفاعليته !

ومن ناحية أخرى فإن شعور الإنسان بعظمة الله وهيمنته ، وجريان الأمر كل بمشيئته ، عرضة أن ينتهى بالإنسان إلى نسيان الأسباب جملة ، ونسيان السنن الربانية الجارية التى أودعها الله فى بنية الكون وفى حياة الإنسان ، تطلعا إلى تلك المشيئة التى لا يحدها حد ولا يقيدها قيد !

كما أن شعور الإنسان بانتظام السنن التى يجرى بها الكون وتجرى بها حياة الناس ، عرضة أن ينتهى بالإنسان إلى نسيان قدر الله جملة أو إغفاله ، والتعلق بالأسباب على أنها قوانين حتمية لابد أن يؤدى السبب فيها حتما إلى النتيجة .

ومن ناحية ثالثة فإن شعور الإنسان بجريان الأمر كله بمشيئة الله ، عمل هو أم لم يعمل ، وأراد أم لم يرد ، عرضة أن ينتهى بالإنسان إلى

ترك العمل جملة ، يأسا من أن يؤثر عمله فى مجرى الأحداث ، أو ضنا بجهد لا يوصل ـ بذاته ـ إلى نتيجة !

كما أن شعور الإنسان بتأثير عمله فى مجرى الأحداث ، وبأن الأحداث مترتبة على مقدار ما يعمل ونوع ما يعمل ، عرضة أن ينتهى بالإنسان إلى الفتنة بعمله ، والظن بأنه هو الذى يصنع قدره بنفسه ، ويتحكم فيه كما يشاء !

وإذا كانت الهندوكية والرهبانية نموذجا للنوع الأول من الانحراف : السلبية ، ونسيان الأسباب جملة ، والزهد فى العمل والإنتاج ، فإن الجاهلية المعاصرة عنوان حاد على النوع الثانى من الانحراف : شعور الإنسان المضخم بذاتيته ، وفتنته بالأسباب . وفتنته بعمله ، وتوهمه أنه يصنع قدره بنفسه .

* * *

لقد بدأت أوربا « نهضتها » على عداء مع الكنيسة والدين . أى أنها فى الحقيقة خرجت من جاهلية المسيحية الكنسية المحرفة إلى الجاهلية المعاصرة التى وصلت ذروتها فى القرن الأخير.

كان « الإنسان » مسحوقا فى جاهلية القرون الوسطى ، المظلمة عندهم ، تحت ضغوط كثيرة متنوعة ، منها ضغط الكنيسة بطغيانها الروحى والفكرى والمالى والسياسى[٢٢] ، ومنها ضغط الإقطاع بطغيانه

---

(٢٢) راجع إن شئت فصل « الدين والكنيسة » فى كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » .

السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، ومنها الجهالة المتفشية ، وضحالة التصورات ، وضيق الآفاق ، وتفاهة الاهتمامات ..

ثم انفتحت أوربا على علوم المسلمين من ناحية ، واحتكت بهم فى حروبها الصليبية معهم من جهة أخرى ، فتغير الحال ، وبدأ « الإنسان » هناك يحس بوجوده ، ولكن على غير استقامة الإسلام وانضباطه ، فقد أخذوا من المسلمين علومهم وأسس حضارتهم المادية ، ولكنهم رفضوا أن يأخذوا الإسلام .

ومن ثم انقلبوا من النقيض إلى النقيض دون التوقف عند نقطة الوسط الموزون .

فعلى قدر انسحاق الوجود الإنسانى فى جاهلية العصور الوسطى كان شعور الإنسان بذاتيته فى الجاهلية المعاصرة. وعلى قدر الجهل بالأسباب عامة ، وجدت فتنة بالأسباب .

وعلى قدر تفاهة العمل ، وتفاهة آثاره فى الحياة الواقعة ، وجدت فتنة بالعمل ، وفتنة بآثاره فى حياة الناس .

وجاء التقدم العلمى والمادى الذى ولد مع « النهضة » ، والذى استمدت أوربا أصوله من المسلمين ، فنفخ فى هذه الفتنة الطامة ، وَخَيَّلَ للناس فى جاهليتهم المعاصرة أن العلم هو الإله ، وهو القدر ، وهو الذى ينشئ كل شىء ويحكم كل شىء .

والأوربى الجاهلى المعاصر قد نبذ الدين بكل مضمونه وإيحاءاته ،

ولم يعد لله صلة فى حسه بحياته الواقعة على الأرض. إنما صار فى حسه أنه هو ـ الإنسان ـ هو الذى يصوغ حياته كما يحلو له ، وهو الذى يكتب قدره بنفسه ، وهو الذى يصنع التاريخ ويصنع الأحداث [٢٣] .

وإلى جانب فتنته بنفسه إلى هذا الحد كانت فتنته فى الوقت ذاته بالأسباب الظاهرة . فلقد قال له «العلم» إن هنالك قوانين حتمية سموها فى أوربا «قوانين الطبيعة» ، لأنهم ـ وقد نبذوا إله الكنيسة ـ رفضوا أن ينسبوا السنن الكونية إلى الله ، ونسبوها إلى إله جديد لا كنيسة له ولا تكاليف ، سموه «الطبيعة» ونسبوا إليه الخلق والتدبير.

ومادامت القوانين فى حسهم حتمية فلا مجال للقدر إذن فى تصورهم ! فماذا يصنع القدر إذا كان لا يملك أن يغير ما هو حتمى الوقوع ؟ ! ونسوا ـ فى غفلتهم ـ أن ثبات السنن الجارية فى الكون هو ذاته قدر مقدر من عند الله الخالق يوم خلق سبحانه السماوات والأرض ! ونفوا من حسهم ـ فى غفلتهم كذلك ـ إمكان تغيير هذه السنن بإرادة من الله حين يشاء ، فنفوا المعجزات والخوارق من جهة ، ونفوا إمكان تغير نظام الكون كله حين يشاء الله !

---

(٢٣) صدر ذات يوم كتاب أوربى ـ باللغة الإنجليزية ـ عنوانه «الإنسان يصنع نفسه Man makes Himself» وكتاب آخر عنوانه الإنسان يقوم وحده Man Stands Alone أى بدون إله ! .

ثم بدا لهم حين اتسع « علمهم » ـ أو اتسعت غفلتهم ـ أن الحياة البشرية ـ بل النفس البشرية ـ تحكمها قوانين حتمية كتلك التى تحكم الكون المادى . وسرت هذه الحتمية فى التفسير المادى للتاريخ[٢٤] ، والتفسير الجثمانى للمشاعر[٢٥] ، والتفسير الجنسى للسلوك البشرى[٢٦] ، وفى كثير من النظريات الاجتماعية والاقتصادية ، وكلها تضع الإنسان تحت رحمة هذه الحتميات .... بل تحت طغيانها الجائر .

ثم أغفلوا ـ فى عناد جاهلى ـ كل فترات الهدى فى حياة البشرية ، التى كانت كلها بقدر من الله ، ولم تكن « حتمية » بأى تفسير من تلك التفسيرات الجاهلية التى تحاول أن تفسر الحياة والتاريخ بمعزل عن قدر الله ، كما أغفلوا ـ عن عمد ـ كل أثر لفترات الهداية تلك فى حياة البشرية ، وخاصة فترة الهداية الكبرى على يد الإسلام !

* * *

ومن الجانب الآخر وجدت ـ كما أشرنا من قبل ـ جاهليات كثيرة فى التاريخ تمثل الانحراف الآخر : انحراف السلبية والانكماش والتقوقع ، انتظارا لما تصنعه « الآلهة » ، وما تحدثه فى حياة الأفراد والجماعات من أقدار ..

---

(٢٤) عند الماركسيين .

(٢٥) عند التجريبيين .

(٢٦) عند فرويد .

فى البوذية والهندوكية والرهبانية ألوان من تلك السلبية والقعود وعدم إيمان الإنسان بنفسه على أنه قوة فاعلة فى الأرض ، أو أن لعمله أثرا فى الحياة ..

كلها تطلعت إلى « فناء » الإنسان .. سواء كان الفناء فى « الكائن الأعظم » الذى يمثل الإله فى حسهم ، أو فى تناسخ الأرواح المؤدى فى النهاية إلى الفناء الأكبر فى ذلك الكائن الأعظم ، أو فناء الجسد بكبته وقمعه لتنطلق الروح من إساره ، أو فناء السلبية فى داخل الدير .. أو أى نوع من أنواع الفناء ! (وليس بعيدا عن ذلك مسعى الصوفية إلى « الفناء » فى الذات الإلهية ليحدث من ذلك « الوجود » !) .

والطابع الغالب على هذه الانحرافات كلها هو الأسى والكآبة والانحسار إلى داخل النفس ، بقدر ما كان الطابع الغالب على الانحراف الآخر هو المرح المجنون ، والبحث عن لذائذ الحس ، والبعد عن إصلاح النفس من الداخل ، والانطلاق إلى خارج الذات .

* * *

بين هذين الطرفين المتناقضين تجىء عقيدة القضاء والقدر فى صورتها الصحيحة فى الإسلام ، تقرر هيمنة الله الشاملة على كل ما يجرى فى الكون وفى حياة الإنسان ، ولا تلغى فى الوقت ذاته فاعلية الإنسان ، ولا تلغى العمل ، ولا تلغى اتخاذ الأسباب .

فى توازن كامل يؤمن المسلم بأن كل ما يحدث فى الكون وفى حياته

هو قدر مقدور عند الله من قبل أن يحدث ذلك بالفعل فى الواقع البشرى :

« ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب **من قبل أن نبرأها** ، إن ذلك على الله يسير » (٢٧)

وفى الوقت ذاته يؤمن بأن عليه أن يعمل ، وأن يتخذ الأسباب ، وبأن ما يجرى من المقادير فى الأرض مرتبط بالأسباب التى يتخذها (أو يدع الأخذ بها) ، وبنوع العمل الذى يقوم به :

« ظهر الفساد فى البر والبحر **بما كسبت أيدى الناس** » (٢٨)

« **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا** لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » (٢٩)

« وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ، **ففسقوا فيها** ، **فحق عليها القول** ، **فدمرناها تدميرا** » (٣٠) .

ومن ثم يحس بوجوده الذاتى ، ويعمل ، ويتخذ الأسباب ، دون أن يفتن بنفسه ولا بعمله ودون أن يفتن بالأسباب .

وفى الوقت ذاته يؤمن بأن كل ما يحدث له مقدر من عند الله دون أن يقعده ذلك عن الإيجابية والعمل واتخاذ الأسباب .

---

(٢٧) سورة الحديد [٢٢] .
(٢٨) سورة الروم [٤١] .
(٢٩) سورة الأعراف [٩٦] .
(٣٠) سورة الإسراء [١٦] .

وحين يبدو هذا فى حس بعض الناس تناقضا ، فإنه يُحدث فى حس المؤمن توازنا جميلا رائعا يعينه على القيام بدور الخلافة الراشدة فى الأرض ، ويجعله يعمل فى الأرض وقلبه متطلع إلى الله فى السماء .

إنه يتخذ الأسباب عبادة لله ، وانطلاقا مع سنة الله الجارية ، ويحس فى الوقت ذاته أن النتيجة التى وصل إليها هى قدر قدره الله ، وليست حصيلة أسبابه التى اتخذها ، وأن الأسباب لا تؤدى بذاتها أداء حتميا إلى النتيجة . إنما تؤدى إلى النتيجة بقدر من الله ، ولو شاء الله ألا يوصل السبب إلى النتيجة فإن الذى ينفذ بالفعل هو إرادة الله وليس حتمية الأسباب !

وهذا هو الفارق الأصيل بين المسلم وبين نظيريه من الجاهليين من هنا ومن هناك . أحدهما يقعد عن العمل ، ولا يحس بقيمة وجوده الإنسانى ، والثانى يعمل مفتونا بالأسباب ، كأنها فى حسه أرباب !

إن المسلم الحق لا يقل إيمانا بقدر الله عن أى مؤمن به فى هذا الوجود ، ولكنه لا يغفل عن عظم دوره فى الأرض ، لأن قدر الله قد شاء أن يجعل الإنسان خليفة فى الأرض ، وأن يسخر له ما فى السماوات ومافى الأرض جميعا منه ، وأن يكرمه ويفضله على كثير ممن خلق ، وأن يجعله ستاراً لقدره فى الأرض .

وهو من جانب آخر لا يقل اتخاذاً للأسباب ، ولا إدراكا لقانون السبب والنتيجة عن أشد البشر اتخاذا للأسباب . ولكنها فى حسه

ليست حتمية ، وليست نهائية مالم يقررها قدر من عند الله .

والجاهلى الأوربى المعاصر ينظر بسذاجة إلى العقلية الإسلامية فيقول إنها عقلية غيبية لا تؤمن بقانون السببية . وهو فى قولته هذه يكشف عن جهله بأمر لا يستطيع حسه الضيق أن يلم به . فالعقلية الإسلامية ـ الصحيحة ـ غيبية نعم ، لأنها تؤمن بالغيب ، وتؤمن بقدر الله . ولكنها فى الوقت ذاته عقلية علمية أصيلة ، بدليل أنها هى التى اهتدت إلى المنهج التجريبى فى البحث العلمى ، وأهدته إلى أوربا ، وهو منهج قائم كله على الملاحظة والتجربة وعلاقة السبب بالنتيجة ! ولكنها ـ وهى تتعامل مع سنة الله الجارية ـ لا تغلق قلبها عن مشيئة الله الطليقة التى لا يحدّها قيد على الإطلاق[٣١] .

ومزية هذه العقلية العلمية الغيبية فى آن واحد ، أنها لا تفاجأ حين تجد نتيجة لا تفسرها الأسباب الظاهرة ، لأنها تعلم أنها تمت بقدر من الله . ولا يصيبها ما أصاب هتلر ، حين إتخذ كل الأسباب التى كان فى

---

(٣١) من عجائب الجاهلية المعاصرة التى تعجز أو تزعم أنها تعجز عن فهم عقيدة القضاء والقدر -فى وضعها الصحيح عند المسلمين ، أنها هى ذاتها واقعة فى تناقض بين إيمانها بفاعلية الإنسان وإيجابيته ، وإيمانها بالحتميات التى لا تجعل للإنسان وجودا حقيقيا ولا إرادة . وهى إما أن تكون غير فاطنة إلى وجود هذا التناقض وإما أنها لا ترى مانعا من وجوده ! بينما تشير هذه الجاهلية إلى وجود التناقض فى عقيدة المسلم ! والأمر فى حقيقته فى حس المسلم توازن مريح . يجعله يبدع ما يبدع فى الأرض وهو مطمئن إلى قدر الله .

طوق بشر أن يتخذها ، فلما خاب مسعاه انتحر ، ولم يطق النتيجة التى قدرها الله من وراء كل الأسباب !

* * *

هذه العقيدة الرائعة التى أنشأت فى حياة الأجيال الأولى من هذه الأمة ما أنشأت من منجزات تشبه المعجزات .. ماذا أصابها خلال القرون ، فانحدرت إلى مثل ما انحدرت إليه البوذية والهندوكية والرهبانية ؟

كيف صارت إلى تقاعس وقعود وتنصل من المسئولية وانصراف عن التغيير ، أدى كله فى النهاية إلى هذا الضعف الفكرى والعلمى والمادى ، وهذا التخلف الحضارى ، الذى اجتذب قوى الشر من كل صوب تحاول اقتلاع جذور الإسلام من الأرض ، وتندد بواقع المسلمين السيئ لتنفر من الإسلام ذاته ، بزعم أن هذا الواقع هو الإسلام !

إن شكل العقيدة كما قلنا لم يتغير .. ولكن جوهرها تغير تغيرا هائلا بكل تأكيد .

لقد أصابه ما أصاب لا إله إلا الله وبقية العبادات .. أفرغ من محتواه الحقيق ، وأصبح صورة بلا رصيد .

وفى أثناء ذلك كانت عقيدة القضاء والقدر قد تحولت إلى مباحث كلامية تختلف الفرق من حولها ، ولم تعد منهجا للتربية الإسلامية !

قضايا فلسفية يجهد الذهن فى إيجاد حلول لها ، والأمة لا تُرَبَّى ، ولا يلتفت أحد إلى القيمة التربوية الهائلة لعقيدة القضاء والقدر فى صورتها الإسلامية الصحيحة ! على نفس النحو الذى تحولت به عقيدة التوحيد إلى مباحث كلامية ذهنية تجريدية باردة ، لا تحرك الوجدان الدينى ، ولا تؤدى إلى سلوك عملى ، وتزرع فى القلب الشبهات أكثر مما ترسخ الإيمان ! ويتناولها الدارسون على أنها «العقيدة» ، فينعزل الدارسون عن واقع الناس الحىّ ، وعن مقتضيات الدعوة ومقتضيات التربية ، ويدورون مع «الكلام» حيث دار !

ثم يجىء طور على «المسلمين المعاصرين» ينسلخون فيه من عقيدة القضاء والقدر كما انسلخ سادتهم الأوربيون من قبل ، ويقولون : نريد أن نترك العقلية الغيبية التى كانت سبب تأخرنا ، وتكون لنا عقلية علمية تقدمية ! إن القضاء والقدر لا وجود له إلا حيث توجد الفوضى والجهل والانحطاط والتأخر . أما حيث يوجد النظام والعلم والتقدم والتخطيط العلمى والعقول الإلكترونية فأنّى للقدر أن يتدخل ، وكل شئ محسوب له ألف حساب ؟ !

ويَغْفُلُ هؤلاء عن معنى قوله تعالى : «فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ ، **حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون**»[٣٢] .

---

(٣٢) سورة الأنعام [٤٤] .

بل يَغْفُلُون عما هو أقرب إلى المشاهدة الحسية من ذلك الغيب الذى يوشك أن يتحقق . يغفلون عن الأمراض التى تفاجئ أولئك الحاسبين المخططين الذين يحسبون أنهم أغلقوا بحساباتهم كل فرصة لقدر الله أن ينفذ إلى واقع الأمور ! أمراض من كل نوع : نفسية وعصبية وعقلية وجثمانية وأخلاقية واجتماعية وفكرية وسياسية واقتصادية .. كلها لم تكن فى الحسبان !

وهل كانت أمراض الحساسية فى الحسبان ؟

وهل كان مرض انعدام المناعة (الإيدز) فى الحسبان ؟

وهل كان جنوح الأحداث الإجرامى فى الحسبان ؟

وهل كان انتشار الشذوذ والمخدرات فى غرب أوربا وأمريكا فى الحسبان ؟

وكل هذه ـ وغيرها ـ بوادر لغيب يوشك أن يتحقق بقدر من الله : «حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين»[٣٣] .

* * *

والمسلمون اليوم فى حاجة إلى تصحيح مفهوم القضاء والقدر الذى اختل فى حسهم خلال القرون . فلا هو بالسلبية التى غشت القرون

---

(٣٣) سورة الأنعام [٤٤ ـ ٤٥] .

الأخيرة ، ولا هو الفتنة بالأسباب التى توشك أن تعم العالم الإسلامى اليوم مع الغزو الفكرى القادم من جاهلية الغرب ..

يحتاج المسلمون إلى إعادة ذلك التوازن البديع الذى تمثله تلك العقيدة فى صورتها الصحيحة فى حياة الإنسان . ويحتاجون أن يكفوا عن دراستها فى صورة مذاهب كلامية يحشون بها رءوس طلاب الشريعة والدراسات الإسلامية ، لتصبح ـ ككل شئ غيرها فى هذا الدين ـ جزءا من منهج التربية الإسلامية ، الذى يهدف إلى إخراج « الإنسان الصالح » الذى يحقق المنهج الربانى فى واقع الأرض ، والذى يُنْفِذُ الله به قدره :

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق **ليظهره على الدين كله** ، وكفى بالله شهيدا » (٣٤) .

---

(٣٤) سورة الفتح [٢٨] .

مفهوم الدنيا والآخرة

لم يكن فى حس الأجيال الأولى من المسلمين ذلك الفاصل الحاد بين الدنيا والآخرة الذى أحسته الأجيال المتأخرة .

لم يكن فى حسهم أن هناك أعمالا معينة هى للدنيا وحدها منقطعة عن الآخرة ، وأعمالا أخرى هى للآخرة وحدها منقطعة عن الدنيا .

صحيح أن هناك أعمالا ـ بطبيعتها ـ يغلب عليها الطابع الروحى ، كالصلاة والدعاء والذكر ، والشعائر التعبدية عامة ، وأعمالا أخرى يغلب عليها الطابع الفكرى ، كطلب العلم والتبحر فيه ، وتدبير شئون الحياة من سياسة واقتصاد وحرب وسلم .. الخ ، وأعمالا يغلب عليها الطابع الحسى ، كالطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس .. الخ .. ولكن ذلك لا يفصل بين بعضها وبعض من جهة ، لأنها صادرة عن الكيان الإنسانى الموحد المترابط ، ومن جهة أخرى لا يجعل بعضها للآخرة خالصة من دون الدنيا ، وبعضها للدنيا خالصة من دون الآخرة .

كان المفهوم الصحيح للعبادة هو الذى يحكم حياتهم ، ويحكم تصورهم :

«قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له .. » [1]

«وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» [2] .

وفى هذا المفهوم لا يمكن أن تنفصل الشعائر التعبدية عن العمل ، ولا الدنيا عن الآخرة . لذلك كانت الحياة فى حسهم حلقة متصلة لاانفصام فيها بين جزء وجزء . الصلاة فيها والنسك ، والطعام والشراب والجنس ، والقتال فى سبيل الله ، والسعى وراء الرزق ، وطلب العلم ، وعمارة الأرض .. كلها عبادة ، وكلها للدنيا والآخرة فى آن . وكل لحظة واعية تمر بالإنسان فى نهاره أو ليله ، وكل عمل يقوم به ــ متوجها فيه إلى الله ، وملتزما فيه بما أنزل الله ــ فهو لون من ألوان العبادة ، متصل بعضها ببعض ، وهو على الدوام يتنقل من عبادة إلى عبادة ، تحقيقا لغاية الوجود الإنسانى ، التى تشمل وجوده كله ، وتوجهه إلى الله .

وإذا كانت الشعائر التعبدية من صلاة وزكاة وصيام وحج ذات صبغة روحية غالبة ، فليس معنى ذلك أنها هى وحدها العبادة ، ولا أنها للآخرة منقطعة عن الدنيا ، فلكل منها مقتضىً لابد أن تحققه فى الحياة الدنيا . الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والزكاة تطهر النفس

---

(١) سورة الأنعام [١٦٢ ــ ١٦٣] .
(٢) سورة الذاريات [٥٦] .

والمال ، والصيام يدرب على التقوى ، والحج يدعو إلى البر .. وهكذا تصبح كلها للدنيا والآخرة فى آن .

وإذا كانت الأعمال الأخرى التى يقوم بها الإنسان فى حياته ذات صبغة عقلية أو حسية غالبة ، فليس معنى ذلك أنها خارجة من نطاق العبادة بمعناها الواسع الشامل ، مادام يتوجه فيها إلى الله ، ويلتزم فيها بأوامر الله . ومن ثم فهى ليست للدنيا وحدها منقطعة عن الآخرة .

ومن مجموع حياة الإنسان ، ومن مجموع نشاطه على الأرض ، تتكامل العبادة التى يحقق بها غاية وجوده ، وتتصل فى حسه الدنيا والآخرة بلا افتراق [٣] .

* * *

هكذا كانت الأمور فى حس الأجيال الأولى من المسلمين .

كان الذى يجمّع حياتهم كلها ، ويؤلف بينها ، ويوحد وجهتها ، هو لا إله إلا الله ، بمفهومها الهائل العميق .

فحين تكون لا إله إلا الله هى الاعتقاد اليقينى الجازم بوحدانية الله جل جلاله ، وتكون من ثم هى الالتزام الجاد بمنهج الحياة الشامل المنزل من عند الله ليصحح مسيرة الإنسان فى الحياة الدنيا ليصل به إلى مستقره الآمن فى الآخرة .. فعندئذ لا يمكن الفصل بين أمر فى هذا

---

(٣) راجع فصل «مفهوم العبادة» .

الدين وأمر ، ولا يمكن الفصل بين جزء من هذا المنهج وجزء[4] !

وحين كانت الجاهلية تعبد آلهة شتى – حتى مع قولهم بألسنتهم إن الله هو رب الأرباب ، وإنهم لا يعبدون الآلهة الأخرى إلا لتقربهم إلى الله زلفى ! – كانت حياتهم شتاتا لا يتجمع .

كانوا لا يؤمنون بالآخرة ، ومن ثم فلاصلة فى حسهم بين الدنيا والآخرة .

وكانت الأرباب المعبودة شتى ، ومن ثم كانت العبادة مفرقة موزعة .

فالأصنام تعبد ساعة . والقبيلة تعبد ساعة . وعرف الآباء والأجداد يعبد ساعة . والهوى والشهوات تعبد ساعة . أو هى تعبد كلها جميعا ولكن بغير اتصال فى الحس ولا ترابط . فالحياة تعاش ساعة بساعة بغير هدف حقيقى ولا غاية :

« وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر »[5] .

ومادامت على هذا النحو فهى تعاش بمقتضى هوى اللحظة القائمة بغير حساب لما عداها : « اليوم خمر وغدا أمر » ! !

ومن ثم كان الشتات هو الطابع المميز لتلك الجاهلية ككل جاهلية

---

(٤) راجع فصل « مفهوم لا إله إلا الله » .

(٥) سورة الجاثية [٢٤] .

فى التاريخ ، وإن اختلفت درجات التشتت ومظاهره بين جاهلية وجاهلية على مدار التاريخ ![6] .

ثم آمنت تلك الجاهلية بلا إله إلا الله فأصبحت خلقا آخر..

تجمع الشتات المتناثر ليلتقى فى وحدة شاملة .

تجمعت القبائل المتناحرة لتكوّن «أمة» لأول مرة فى تاريخها ، وكان قد مضى عليها من الزمن مالا يحصيه إلا الله ، ولا تقدر على هذه الوحدة لأنها تفتقد عنصر التجميع ! .

وتجمعت أجناس وألوان ولغات وثقافات متباينة ، فانصهرت كلها فى بوتقة تلك الأمة الواحدة ، على نمط غير مسبوق ولا ملحوق فى التاريخ !

وتجمعت «النفس» فى وحدة موحدة الاتجاه .

لم تعد لحظة الجسد تسير فى اتجاه ، ولحظة العقل فى اتجاه ، ولحظة الروح فى اتجاه .

فالإنسان كما فطره الله وحدة مترابطة متكاملة ، لا ينفصل فيها جانب عن جانب ، ولا يمارس الحياة تفاريق ! وإنما فقد ترابطه

---

(٦) الجاهلية المعاصرة هى أشد الجاهليات تمزيقاً لوحدة الإنسان وتشتيتا لاتجاهات حياته . ومن ثم يكثر فيها الانتحار والجنون والقلق والأمراض النفسية والعصبية . ويشتد فيها الشعور بالضياع .

الفطرى حين تفرقت آلهته وتفرقت عبادته . فلما توحد معبوده ، وتوحدت عبادته ، تجمع الشتات المتناثر ، وعاد كما خلقه الله ، تلك الوحدة الشاملة التى يتألف منها « الإنسان » .

وتوحد سلوك الإنسان على منهج موحد ..

لم يعد إنسان يقول : اليوم خمر وغداً أمر . فما الفرق بين اليوم والغد ؟ هل اليوم لإله والغد لإله ؟ أم هو إله واحد له اليوم والغد وجميع الحياة ؟ ! .

ومن ثم تجمعت ألوان النشاط المختلفة لينتظمها منهج واحد ، مستمد من عند الله الواحد ، وموجه إليه .

صارت حياة المسلم كلها : طعامه وشرابه ، وكيله وميزانه ، وبيعه وشراؤه ، وصلاته وعمله ، وحربه وسلمه .. محكومة كلها بدستور واحد هو شريعة الله . حرامه ما حرّم الله ، وحلاله ما أحله الله ، ومباحه ما أباحه الله . والمستحب عنده ما أحبه الله . والمكروه عنده ما كرهه الله . ومن ثم صار المتجه واحدا مهما اختلفت الأمور . واصطبغ السلوك كله بصبغة واحدة على اختلاف مفرداته : صبغة الالتزام بما جاء من عند الله . وصار هذا هو السمت العام لذلك « الإنسان » .

وتوحد ـ تبعاً لذلك كله ـ طريق الدنيا وطريق الآخرة ..

كيف يكونان طريقين منفصلين ؟

هل هذه لإله وتلك لإله آخر ؟

هل الإله الذى يحكم الحياة الدنيا بشريعته ، غير الإله الذى يحاسب الناس يوم القيامة ويجازيهم ؟

وعلى أى أساس يحاسبهم ويجازيهم ؟

هل ميزان الحياة الآخرة غير ميزان الحياة الدنيا ؟ هل يكون العمل حَسَناً فى ميزان الدنيا وقبيحا فى ميزان الآخرة ؟ أو قبيحا فى ميزان الدنيا وحسنا فى ميزان الآخرة ؟

أليس هو ذات الميزان وذات المعيار : ماكان حسنا فى الدنيا فجزاؤه الحسنى فى الآخرة ، وماكان شرا فى الدنيا فجزاؤه العذاب فى الآخرة ؟

« للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة . أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، وترهقهم ذلة . مالهم من الله من عاصم . كأنما أغشيت وجوهم قطعا من الليل مظلما . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » [٧] .

---

(٧) سورة يونس [٢٦ - ٢٧] .

«فمن يعمل مثقال ذرة خيرا ، يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا ، يره »[8] .

«تلك حدود الله . ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها ، وله عذاب مهين»[9] .

«أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولوا الألباب . الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار . جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار . والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض ، أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار »[10] .

بلى ! فكيف إذن تنفصل الدنيا عن الآخرة ، ويصبحان طريقين منفصلين ؟ !

---

(٨) سورة الزلزلة [٧ ـ ٨] .
(٩) سورة النساء [١٣ ـ ١٤] .
(١٠) سورة الرعد [١٩ ـ ٢٥] .

كلا ! إنه طريق واحد ، أوله فى الدنيا وآخره فى الآخرة .. وهو طريق ذو جانبين ولكنه موحد الاتجاه نحو الآخرة .. جانب منه يسلكه أصحاب العمل الصالح فيصل بهم إلى الجنة ، والجانب الآخر يسلكه أهل السوء فيفضى بهم إلى العذاب . ولكنه واحد غير منقطع ما بين الدنيا والآخرة .

«كما بدأكم تعودون . فريقاً هدى وفريقا حق عليهم الضلالة . إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله»[11] .

* * *

بل وصل من اتصال الدنيا بالآخرة فى حس المسلمين الأوائل أنهم كانوا يعيشون بواقعهم فى الحياة الدنيا ، ولكن مشاعرهم وأفكارهم متعلقة بالآخرة ، يعيشونها كأنها حاضر أمامهم مشهود .

لقد كان من شدة التركيز فى القرآن على البعث والحساب والجزاء ، ومن الحيوية الفياضة فى عرض مشاهد القيامة فى القرآن ، أن عاش المسلمون بحسهم وخيالهم فى اليوم الآخر كأنما يرونه أمامهم اللحظة ويعيشون أحداثه ، بل كأنما الدنيا بكل واقعها ماضٍ قد كان ، والآخرة بأحداثها هى الحاضر الآن !

« وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا : إنا كنا قبل فى أهلنا

---

(١١) سورة الأعراف [٢٩ ـ ٣٠] .

مشفقين . فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا **من قبل** ندعوه ، إنه هو البر الرحيم »[١٢] .

وبهذا الإيمان الراسخ باليوم الآخر إلى درجة اليقين ، وبهذه الحيوية فى العرض ، التى تهز الوجدان من أعماقه ، كان الواحد منهم يعيش لحظته الحاضرة ، ثم يعيش ـ فى التوّ ـ جزاءها فى الآخرة ! ها هو ذا يعمل العمل فى هذه اللحظة فى الحياة الدنيا ، ثم يتصور موقعه من الجنة حين يكون عمله فى طاعة الله . ثم ها هو ذا يعمل العمل فى هذه اللحظة فى الحياة الدنيا ـ أو يهم به ـ ثم ينظر ـ فى خوف وإشفاق ـ ليرى موقعه من النار إذا كان العمل فى معصية الله .

ومن ثم صلحت أعمالهم فى الحياة الدنيا ـ فى غالبيتها العظمى ـ بل ارتفعت إلى تلك الآفاق العالية التى تشبه المعجزات ..

لم يكونوا ملائكة ، ولا كان مطلوبا منهم أم يخرجوا عن بشرتيهم .. والبشر كلهم عرضة للخطأ إلا المعصومين عليهم صلوات الله وسلامه . ولكنهم ـ إذا أخطأوا ـ سرعان ما يتوبون .

« والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ـ ومن يغفر الذنوب إلا الله ـ ولم يصروا على ما فعلواوهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها

---

(١٢) سورة الطور [٢٥ ـ ٢٨] .

الأنهار خالدين فيها . ونعم أجر العاملين»[13] .

«كل بنى آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون»[14] .

ومن ثم كذلك كانت الدنيا والآخرة فى حسهم حسبة واحدة متصلة ، لا حسبتين منفصلتين !

* * *

حقا إن الدنيا ذمت فى القرآن ، ولعنت على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونصح الناس بالتخلى عن حبها والتعلق بها .. ولكن فى أى مجال جاءت هذه التوجيهات فى القرآن والحديث ؟

لقد جاءت فى مجالين اثنين : حين تكون الدنيا ـ أى حبها والتعلق بها ـ حاجزا بين الناس وبين الإيمان بالله واليوم الآخر ، أو حاجزا بينهم وبين الجهاد فى سبيل الله .

«وفرحوا بالحياة الدنيا ، وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع»[15] .

«إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ،

---

(١٣) سورة آل عمران [١٢٥ ـ ١٢٦] .

(١٤) سبق ذكره .

(١٥) سورة الرعد [٢٦] .

والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون »[١٦] .

« وويل للكافرين من عذاب شديد ، الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، أولئك فى ضلال بعيد »[١٧] .

« ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم . ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وأن الله لا يهدى القوم الكافرين »[١٨] .

وهذه وأمثالها واردة فى حب الدنيا الذى يصرف الناس عن الإيمان بالله واليوم الآخر .

أما حب الدنيا الذى يصرف عن الجهاد فى سبيل الله بالأنفس والأموال فقد جاء فيه أمثال هذه الآيات :

« قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين »[١٩] .

---

(١٦) سورة يونس [٨] .
(١٧) سورة إبراهيم [٢ - ٣] .
(١٨) سورة النحل [١٠٦ - ١٠٧] .
(١٩) سورة التوبة [٢٤] .

« وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم ، وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين. رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون »[٢٠] .

« فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وقالوا لا تنفروا فى الحر. قل : نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون »[٢١] .

والمتحدث عنهم فى تلك الآيات جميعا هم إما من الكفار الخلص ، وإما من المنافقين ، الذين يتظاهرون بالإسلام نفاقا ورياء ولكنهم فى دخيلة أنفسهم غير مؤمنين ، وهم فى الدرك الأسفل من النار ، وهم فى حكم الله كافرون :

« إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجدلهم نصيرا »[٢٢]

« وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ، ولا يأتون الصلاة إلاوهم كسالى ، ولا ينفقون إلا وهم كارهون . فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ، إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا ، وتزهق أنفسهم وهم كافرون »[٢٣] .

---

(٢٠) سورة التوبة [٨٦ــ ٨٧] .

(٢١) سورة التوبة [٨١] .

(٢٢) سورة النساء [١٤٥] .

(٢٣) سورة التوبة [٥٤ ــ ٥٥] .

وفى هذين المجالين تذم الدنيا للأسباب الواضحة المبينة فى الآيات ..

ولكن ما حقيقة الموقف فى هذين المجالين ؟

حقيقة الموقف أن الدنيا هنا منفصلة فى حس صاحبها عن الآخرة ، إما لأنه لا يؤمن بها أصلا ، وإما لأن اعتقاده بها ضعيف مبهم متداخل ، لا يكوّن فى حسه صورة واضحة ، ولا يؤثر ـ من ثم ـ فى فكره ولا مشاعره ولا سلوكه الواقعى .

والقضية فى حسه على هذا النحو : جنة يوعد بها ـ على غير إيمان منه ، أو إيمان يستوى وجوده وعدمه ـ ذات تكاليف فى النفس والمال ، وقعها فى حسه أنها حرمان من المتاع ، لأنه لا يريد أن يكتفى بالقدر الذى أباحه الله ، إنما يريد أن يسترسل مع شهواته ، ولا يستخدم جهاز « الضبط » الذى وهبه الله إياه ليتحكم فى هذه الشهوات . وفى مقابل ذلك متاع قائم بالفعل ، هو مسترسل فيه إلى أقصى المدى ، ويقال له إن استمتاعه به على النحو الذى يزاوله سيحرمه من الجنة .

وحين صارت القضية على هذا النحو ، وصار الخيار بين الجنة الموعودة مع الحرمان من المتاع الزائد عن الحد ، وبين المتاع الطاغى مع الحرمان من الجنة فى الآخرة الموعودة ، فقد آثر الحياة الدنيا .

« فأما من طغى ، وآثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هى المأوى »[24] .

« بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى »[25] .

« والذين كفروا يتمتعون ، ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم »[26] .

وقد آثر أن يستمتع بما بين يديه من المتاع الزائد عن الحد ، لأن الحرمان منه أشد لذعا فى حسه من العذاب الذى توعده الله به ، إما لأنه لا يؤمن بالآخرة أصلا ، فالعذاب المتوعد به فى حسه وهم لا حقيقة له ، وإما لأنه ضعيف الإيمان بالآخرة ، ومن ثم فإن ذلك العذاب ، المنبهم فى خياله ، أخف وزنا فى حسه من العذاب القريب الذى يحدثه حرمانه من المتاع .

وفى الحالين هى حالة غير سوية ، تختل الموازين فيها فى حس صاحبها ، لأنه لا يؤمن إلا بما تدركه حواسه ![27] ويغفل عن الدلالة المعنوية لما تدركه حواسه :

---

(٢٤) سورة النازعات [٣٧ – ٣٩] .

(٢٥) سورة الأعلى [١٦ – ١٧] .

(٢٦) سورة محمد [١٢] .

(٢٧) هذه هى السمة البارزة للجاهلية المعاصرة بصفة خاصة ، وإن كانت تنسب هذا الخلل فى الفطرة إلى « العلم » ومقتضياته ! كأنما كتب على العلم أن يمسخ كيان الإنسان !

«لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون » (٢٨) .

أو هو كالأعشى الذى لا تتضح فى نظره إلا المشاهد القريبة ، فتكون وحدها هى ذات الوقع الواضح على جهاز التلقى عنده ، أما المشاهد البعيدة فهى مختلطة مبهمة متداخلة غير ذات وقع واضح على ذلك الجهاز :

« ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون » (٢٩)

* * *

أما فى حس الإنسان السوى فالقضية مختلفة تماما ..

إن الإنسان السوى ـ بادئ ذى بدء ـ لا يغلق روحه دون عالم الغيب ، ولا يحصر نفسه فى محيط ما تدركه حواسه فحسب ، فقد زوده خالقه سبحانه ـ لكى يعينه على القيام بمهمة الخلافة التى خلقه من أجلها ـ بقدرتين متقابلتين ، يؤدى بكل منهما جانبا من مهمة الخلافة ، ويتوازن بهما معاً فلا يفقد توازنه من هنا ولا من هناك .

---

(٢٨) سورة الأعراف [١٧٩] . (٢٩) سورة الزخرف [٣٦ ـ ٣٧] .

إحداهما هى الإيمان بما تدركه الحواس والثانية هى الإيمان بالغيب . وبالقدرة الأولى يتعامل مع واقع الحس القريب ، ومع الكون المادى من حوله ، فيتعرف على خواص المادة ، ويستثمر علمه فى تحقيق ما سخر الله له من طاقات السماوات والأرض من أجل تحسين أحواله على الأرض . وبالقدرة الثانية يتعامل مع الحقائق التى لا يدركها حسه ـ وإن كان يدرك آثار وجودها ـ والتى هو مفطور على الإيمان بها ، والتعامل معها ، والارتباط بها ، كحقيقة الألوهية ، وحقيقة النبوة والوحى الإلهى ، وحقيقة البعث والجزاء ، ليقوم بالجانب الآخر ـ الأهم فى الحقيقة ـ وهو إقامة العمارة المادية للأرض على مقتضى المنهج الربانى ، فلا تكون مجرد عمارة مادية ، ولا تكون محصورة فى مطالب الجسد وملذاته ، إنما ترتفع لتكون «حضارة» بالمعنى الحقيقى للحضارة . أى عمارة تحيط بها قيم عليا ، توجهها الوجهة اللائقة «بالإنسان» ، الذى خلقه الله من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله ، ولا يتحقق مقتضى النفخة الروحية فيه إلا بهذه القيم المستمدة من الوحى الربانى ، والتى يبقى الإنسان بدونها غارقا فى الطين ، لا يقدر على الارتفاع عنه ، لأنه يعطل فى نفسه جهاز الارتفاع والتحليق ..

وهذا الإنسان السوى ـ المتوازن فى تركيبه بين قبضة الطين ونفخة الروح ، المستمد نظام حياته من المنهج الربانى ـ ترتسم القضية فى حسه بصورة مختلفة ..

فى الحياة الدنيا قدر من المتاع أباحه الله .. أباحه منذ هبط آدم وزوجه إلى الأرض :

« وقلنا اهبطوا ، بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين »[٣٠] .

هذا القدر الذى حدده الله بعلمه وحكمته ، يعلم سبحانه أنه هو القدر المناسب للكيان البشرى ، الذى يعينه على القيام بدور الخلافة فى الأرض دون أن يدمر هذا الكيان أو يعطبه . وفى الوقت ذاته يتمثل فيه الابتلاء الذى خلق الإنسان له . فقد خلق الله الكيان البشرى محببة إليه الشهوات :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا .. »[٣١] .

وفى الوقت ذاته حدد الله الحدود :

« تلك حدود الله فلا تقربوها »[٣٢] .

« تلك حدود الله فلا تعتدوها »[٣٣] .

ومن رحمته حدد له تلك الحدود التى علم سبحانه أنها تحقق القدر المعقول من المتاع دون أن تعطب كيان الإنسان ، ولكن نقطة الابتلاء

---

(٣٠) سورة البقرة [٣٦] .

(٣١) سورة آل عمران [١٤] .

(٣٢) سورة البقرة [١٨٧] .

(٣٣) سورة البقرة [٢٢٩] .

هى تزيين الشهوات له بحيث يرغب فى الاستزادة منها ، وتقييده ـ فى الوقت ذاته ـ بهذا القدر المباح له ، وعدم السماح له بتجاوزه ولو هفت نفسه إلى المزيد ..

ولكن الله وقد حدد للإنسان هذا القدر من المتاع لمصلحة الإنسان ذاته ـ والله هو الغنى ـ لم يترك الإنسان ليتعذب بالحرمان ، بين حب الشهوات المزين له ، وبين القيود المفوضة عليه ـ ولو أنها لمصلحته ـ وإنما وهب له أداة عظيمة النفع ، عظيمة التأثير ، يستطيع بها أن « يضبط » منطلق شهواته دون أن يحس بلذع الحرمان ، بل يحس ـ عن طريقها ـ بالرفعة والاقتدار .. الرفعة عن مباذل الشهوة ، والاقتدار على الضبط ، فيعوضه هذا الإحساس العظيم عما **قد** يحسه فى مبدإ الأمر من الحرمان ، حتى يتعود فلا يعود يحس به ..

تلك الأداة العظيمة هى « القلب » أو « العقل » أو « الفؤاد » [(٣٤)] :

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار **والأفئدة** لعلكم تشكرون » [(٣٥)] .

« أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم **قلوب يعقلون** بها أو آذان

---

(٣٤) ترد هذه الألفاظ مترادفة فى اللغة العربية وكذلك يرد اسم القلب أو الفؤاد فى القرآن بمعنى العقل .

(٣٥) سورة النحل [٧٨] .

يسمعون بها ؟ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »[٣٦] .

ونقطة الابتلاء فى الأمر كله هى : هل يستخدم الإنسان هذه الأداة العظيمة التى وهبها الله له ، فيضبط منطلق شهواته ، ويرتفع بذلك الضبط إلى المستوى اللائق له ، وينشئ « الحضارة » بمعناها الحقيق ، ويحقق دور الخلافة الراشدة .. وينال فوق ذلك كله الجزاء الأوفى فى الآخرة ، فى الجنة التى « فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »[٣٧] أم يلقى هذه الأداة العظيمة جانبا ، وينساق مع شهواته ، فيهبط وينتكس ، ويدمر نفسه فردا وجماعة على المدى القريب أو المدى البعيد ، ولا ينشئ « الحضارة » الحقيقية اللائقة به ، ولا يحقق الخلافة الراشدة فى الأرض ، وفضلا عن ذلك كله يتعرض للعقاب الرهيب الذى لا تطيقه النفوس ولا تطيقه الأبدان :

« إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب . إن الله كان عزيزا حكيما . والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا »[٣٨] .

وإذا كانت هذه هى القضية فى حس الإنسان السوى فالموقف

---

(٣٦) سورة الحج [٤٦] .
(٣٧) متفق عليه .
(٣٨) سورة النساء [٥٦ ـ ٥٧] .

الذى تمليه الحكمة ، ويتناسب مع «الفؤاد» الذى وهبه الله له ، أن يكتفى بالقدر المباح من المتاع لا يتجاوزه إلى ما حرم الله ، فتستقيم حياته فى الدنيا ، وينجو من عذاب الله الرهيب ، ويستمتع فى الآخرة بالجنة والرضوان .

وهكذا كان الأمر فى حس الأجيال الأولى التى تربت على المنابع الصافية لهذا الدين ، كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وكانت الدنيا والآخرة فى حسهم ـ تبعا لذلك ـ طريقا واحدا وحسبة واحدة :

«وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا» (٣٩) .

«هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه النشور» (٤٠) .

* * *

ولكن هذا التوازن الجميل الذى أنشأه الإسلام فى النفس البشرية ، وحققته الأجيال الأولى من المسلمين ذلك التحقيق الرائع . الذى وعاه التاريخ ، والذى أثر فى الواقع البشرى بصورة لا يوازيها تأثير آخر فى التاريخ ..

---

(٣٩) سورة القصص [٧٧] .

(٤٠) سورة الملك [١٥] .

هذا التوازن الجميل بدأ يختل بعد تلك الأجيال الأولى ، وإن كان الخلل فى هذه المرة قد وقع فى الاتجاه المقابل تماما لما كان عليه فى الجاهلية العربية ..

كان الخلل فى الجاهلية العربية هو انفصال الدنيا فى حس الناس عن الآخرة ، لعدم إيمانهم بالآخرة والبعث والجزاء ، ومن ثم إيثار الحياة الدنيا ؛ وهو الآن انفصال الدنيا فى حس الناس عن الآخرة لاستصغارهم شأن الحياة الدنيا واحتقارها ، ومن ثم إيثار الآخرة !

ولأول وهلة يبدو هذا الأمر هو عين الإيمان ! وهو الواجب الذى ينبغى للمرء المؤمن أن يسعى إليه ، وحين يصل إليه يكون قد بلغ الذروة التى ما بعدها ذروة ، وحقق أروع ما فى هذا الدين ..

وهذا ولا شك هو الذى خطر فى بال أولئك الذين آثروا الآخرة على الدنيا على الصورة التى قدمتها الصوفية ، التى انتشرت قرونا طويلة على امتداد الأرض الإسلامية ، وما تزال آثارها قابعة هنا وهناك ..

أليس الله هو الذى يقول :

« **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** »[41] ؟

أو ليس الذى يبتعد عن متاع الغرور ، ويتعلق بالدار الآخرة وهى

---

(41) سورة آل عمران [١٨٥] .

« الحيوان لو كانوا يعلمون » (٤٢) هو الفائز حقا ، والمحقق لجوهر الدين حقا ، والضارب لأروع الأمثلة حقا ؟ !

ولكن عند التحقيق تتبين جوانب من الأمر قد تكون خافية لأول وهلة ..

أما أنهم ابتغوا بذلك وجه الله .. فنعم !

وأما أنهم سلكوا الطريق الذى فرضه الله .. فلا !

ولا نتكلم الآن عن شطحات الصوفية ، ولا عن وحدة الوجود ، ولا عن الحلول ، ولا أمثال ذلك من انحرافات العقيدة ..

ولا نتكلم الآن كذلك عن عبادة الأضرحة والأولياء ، وما انتشر حولها من بدع وخرافات وأساطير ، وعن اتخاذ وسطاء بين العباد وبين الله ، وقد جاء هذا الدين لينفى الوساطة كلها ، ويحرر القلب البشرى منها ، ويعقد صلته بالله مباشرة بلا وسطاء ولا شركاء :

« وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » (٤٣) .

لا نتحدث الآن عن هذه الانحرافات كلها ، وعن الشرك الواقع

---

(٤٢) جاء فى سورة العنكبوت (آية ٦٤) : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » .

(٤٣) سورة البقرة [١٨٦] .

فيها ، لأن مجال حديثنا الحاضر هو «مفهوم الدنيا والآخرة» ، لذلك نتحدث هنا عما أفسدته الصوفية فى هذا المجال بالذات .

لقد اتكأ الصوفية كثيراً على الآيات التى وردت فى ذم الدنيا ، والأحاديث التى وردت فى لعنها[٤٤] .

واتكأوا كذلك كثيراً على حال الزهاد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين هجروا متاع الحياة الدنيا ولم يتعلقوا بشىء منه .

واتكأوا كذلك كثيراً على أن التعلق بالدنيا يؤدى فى حياة المؤمن إلى المعصية التى تجلب عليه غضب الرب ، وتعرضه للعذاب فى الآخرة ، وقالوا : إنه لا سبيل إلى درء المعاصى إلا باحتقار الدنيا وازدرائها ، والخروج من زخرفها وزينتها ، والبعد عنها قدر المستطاع ..

فأما الآيات فقد وردت ــ كما قلنا ــ فى حق الكفار والمنافقين ..

وصحيح أن المؤمن يناله نصيب منها إن وقع فى بعض ما يقع فيه الكفار ــ وإن كان لا يكفر بذلك مادام محافظا على أصل الإيمان ــ كما ورد فى هذه الآية التى تخاطب المؤمنين :

«**يا أيها الذين آمنوا** مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم

---

(٤٤) كقوله صلى الله عليه وسلم : «الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله أو عالم أو متعلم» رواه ابن ماجه والترمذى .

إلى الأرض ؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل . **إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم** ، ولا تضروه شيئا ، والله على كل شيء قدير»[٤٥] .

وكما كان سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ فى خوف دائم من أن يناله قول الله تعالى : «أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا»[٤٦] وقوله تعالى : «ثم لتسألن يومئذ عن النعيم»[٤٧] مع علمه بأنهما نزلتا فى حق الكفار ..

ذلك صحيح ..

والتعلق بالدنيا ، الذى يؤدى إلى الغفلة عن الآخرة ، أمر لا يقبله الله من مؤمن ولا كافر ، وإن اختلف الجزاء بين هذا وذاك ..

ولكن هذا كله شيء ، واعتبار الدنيا والآخرة معسكرين متقابلين إن اتجه الإنسان لأحدهما انفصل ـ بالضرورة ـ عن الآخر ، ومن ثم ينبغى الاختيار بينهما لاختيار أحدهما ونبذ الآخر .. هذه قضية مختلفة لا سند لها من دين الله !

ولنستمع لقول رب العالمين[٤٨] :

---

(٤٥) سورة التوبة [٣٨ ـ ٣٩] .

(٤٦) سورة الأحقاف [٢٠] .

(٤٧) سورة التكاثر [٨] .

(٤٨) هو قول محكى عن قوم قارون . ولكن السياق يدل على أنه قول مرضى عند الله .

«.. وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا»[٤٩] .

وقوله تعالى :

«هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه النشور»[٥٠] .

وقوله تعالى :

«قل : من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة»[٥١] .

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « .. ألا إنى أعبدكم لله وأخشاكم له ، ولكنى أصوم وأفطر ، واقوم وانام وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى»[٥٢] .

ونقف وقفة خاصة عند قوله تعالى : «قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده .. »

فذكر الزينة فى هذا المجال له دلالته الخاصة . إذ الزينة جمال . والجمال شئ زائد على الضرورة . أى أن الذى يبيحه الله ـ سبحانه وتعالى ـ لعباده ليس هو مجرد الضرورة التى تحفظ الحياة على أى صورة

---

(٤٩) سورة القصص [٧٧] .

(٥٠) سورة الملك [١٥] .

(٥١) سورة الأعراف [٣٢] .

(٥٢) متفق عليه .

كانت ، إنما هو شيء زائد على الضرورة ، يصل إلى درجة الجمال .

وفى القرآن إشارات جمة إلى «الجمال» تحمل هذه الدلالة :

«أم من خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به **حدائق ذات بهجة** ماكان لكم أن تنبتوا شجرها» [٥٣] .

«وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب ، والزيتون والرمان ، مشتبها وغير متشابه . **انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه** [٥٤] . إن فى ذلك لآيات لقول يؤمنون» [٥٥] .

«والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون» [٥٦] .

أما الحديث النبوى فيقرر أن العبادة التى يرضاها الله لعباده لا يدخل فيها الامتناع البات عن متاع الأرض والانصراف الكامل

---

(٥٣) سورة النمل [٦٠] .

(٥٤) لم يقل هنا «كلوا من ثمره» كما جاء فى نفس السورة [آية ١٤١] لأن المطلوب هنا ــ إلى جانب التذكير بنعم الله ذات النفع للإنسان ــ توجيهَ الوجدان إلى الجمال الرائع فى خلق الله المبدع ، وأن هذا الجمال ذاته آية من آيات الله تؤدى بالفطرة السليمة إلى الإيمان .

(٥٥) سورة الأنعام [٩٩] .

(٥٦) سورة النحل [٥ ــ ٦] .

عنه . وأن هذا الامتناع ليس هو التعبير الصحيح عن صدق العبادة والخشية لله . لأن أعبد الخلق جميعا ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأخشاهم لله لا يفعل ذلك ، ولا يأمر به ، بل يعتبر من يقوم به راغبا عن سنته صلى الله عليه وسلم ، وينذره بأنه حائد عن الطريق : «فمن رغب عن سنتى **فليس منى**» .

أما الزهاد الذين احتج بهم الصوفية فهم على طريق آخر غير طريق الصوفية !

ولقد يشتبه المظهر لأول وهلة بين الزاهد والصوفى من بعض الجوانب .

كلاهما مترفع عن المتاع ، منصرف عنه أكثر وقته . وكلاهما صارف همه إلى أنواع من العبادة لا تدع فرصة للاستمتاع بالمتاع المباح ..

نعم .. ولكنهما يفترقان بعد ذلك ! ويكاد يصل الافتراق بينهما إلى طرفى نقيض !

يفترقان فى نوع العبادة التى يتجه كل منهما إليها .. أى أنهما فى الحقيقة يفترقان فى «مفهوم العبادة» ، ومن ثم يفترقان فى منهج الحياة ، وفى منهج السلوك .

* * *

إن الامتناع عن بعض الشهوات يحتاج بادئ ذى بدء إلى عزيمة قوية ، لبناء «السد» الذى يقف فى وجه هذه الشهوات . ثم إن هذا الامتناع ذاته ، حين يقف فى وجه التيار المتدفق للشهوات ، يجمّع فى النفس طاقة هائلة ، رفيعة فى ذاتها ، تتجه إلى مستويات أعلى ، وتنطلق فى تلك المستويات العالية ، كما يقف السد فى وجه تيار الماء فيحجز جانبا منه ، فيرتفع مستواه ، فيصل إلى مستويات لم يكن يصل التيار إليها فى مجراه الأصلى ..

وإلى هنا تتشابه «العملية النفسية» التى تنشأ عن الزهد ، والتى تنشأ عن التصوف .. وتتجمع فى نفس الزاهد وفى نفس الصوفى طاقة نفسية هائلة ، رفيعة المستوى ، قابلة للتوجه إلى آفاق لا يصل إليها قط صاحب النفس المنساقة مع الشهوات ..

ثم تختلف الآفاق ..

فأما زهاد الجيل الأول ، وعلى رأسهم سيد الزهاد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد علمنا طبيعة الآفاق التى رفعهم إليها زهدهم فى متاع الأرض ..

الجهاد فى سبيل الله . الجهاد لتكون كلمة الله هى العليا . الجهاد ليكون الدين كله لله . الجهاد لإقامة العدل الربانى فى واقع الأرض . الجهاد لإقامة المجتمع المثالى الذى يحقق فى عالم الواقع ما يتخيله الناس فى عالم المثال . الإيجابية الهائلة التى تغير الواقع المنحرف ، وتنشئ بدلا

منه الواقع السوى . الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، اللذان هما رسالة الأمة التى أخرجها الله لتكون خير أمة :

«كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله»[٥٧] .

آفاق عالية ، تنطلق فيها الطاقة المخزونة التى رفعها الزهد ، فتنشئ فى عالم الواقع بناء شامخا يبهر الأنظار ، فيسرى نوره فى الأرض ، فيضئ من ظلمات البشرية ما قدر الله أن يستضئ .. ويسرى النور فى نصف قرن فيضئ ما بين المحيط فى الغرب إلى ما وراء الهند فى الشرق ، لا تقف فى وجهه الحواجز ، ولا تثبت فى وجهه الظلمات .

هذا ، والزهاد ـ وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لا يحرّمون المتاع ، إنما يرتفعون فوقه ، فلا يعود يشغلهم عن الجهاد فى تلك الآفاق العالية التى يجاهدون فيها ، ولا عن الأهداف العالية التى يعملون بطاقتهم الإيجابية كلها لتحقيقها فى عالم الواقع .

وحين تجد الزوج الودود عائشة ـ رضى الله عنها ـ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينام على عباءته فوق الأرض اليابسة فتشفق عليه ، فتطبق له العباءة طبقتين لتكون ألين لجسده الشريف ، يغضب ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويأمرها أن تعيدها كما كانت ، ليظل على درجته الرفيعة من التبتل إلى الله ، لا يشغله هذا «اللين» النسبى عن

(٥٧) سورة آل عمران [١١٠] .

توفير طاقته كلها للجهاد فى سبيل الله . ومع ذلك فهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى قال : « ولكنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى ! » .

أما الصوفية فماذا صنعوا بتلك الطاقة الهائلة التى وفرها فى نفوسهم ترفعهم عن المتاع ؟ !

لقد صرفوها إلى نوع آخر من الجهاد .. جهاد الشيطان فى داخل النفوس . وأوّلوا فى سبيل ذلك كل آيات الجهاد الواردة فى كتاب الله ، حتى تلك التى تشمل ألفاظا صريحة تنص على قتال الكفار والمنافقين والغلظة عليهم !

وجهاد الشيطان مأمور به ولا شك .. ومن تحصيل الحاصل أن نقول : إن ذلك الجيل الفريد الذى حقق فى عالم الواقع ماحقّق من المُثل الرفيعة ، قد جاهد الشيطان وظفر فى جهاده له بأكبر نصر عرفه التاريخ . ولكنهم ما جعلوا معركتهم مع الشيطان هى نهاية المطاف .. حتى بعد أن انتهى سلطانه من نفوسهم بشهادة العليم الخبير :

« إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون »[58] .

وهو وصف يصدق على المؤمنين جميعا ، ولكنه يصدق بصفة

---

(٥٨) سورة النحل [٩٩ ـ ١٠٠] .

خاصة على الذين شهد الله لهم بالإيمان :

«آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ..»[٥٩] .

«أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه . أولئك حزب الله . ألا إن حزب الله هم المفلحون»[٦٠] .

إنما كانت معركتهم مع الشيطان وظفرهم عليه هى نقطة الانطلاق التى ينطلقون منها إلى البناء .. إلى الجهاد .. إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. إلى إقامة العدل الربانى فى الأرض .. إلى دك حصون الشرك وإقامة حصون الإيمان .. إلى إزالة الطواغيت وإقامة حكم الله .. إلى إنشاء القوة التى يرهبها أعداء الله ..

وما كانوا يستطيعون أن يقوموا بشىء من هذا كله لو لم يبدأوا بجهاد الشيطان داخل نفوسهم ، أو لو بقيت معركتهم مع الشيطان معلقة بغير نصر حاسم عليه .. ولكنهم لم يتوقفوا قط عند معركتهم تلك مع الشيطان ليقولوا : هنا غاية الغاية ونهاية المطاف !

* * *

وأمر آخر فى تلك المعركة مع الشيطان يلفت الانتباه .

---

(٥٩) سورة البقرة [٢٨٥] .

(٦٠) سورة المجادلة [٢٢] .

لقد كانت سبيل الصوفية فى معركتهم مع الشيطان هى قتل « النفس » التى يأوى إليها الشيطان حتى لا يجد له مأوى فينصرف ! فإنما مأواه هو الشهوات المزينة للإنسان ، يظل ينفث فيها وينفخ فيها حتى تشتعل ، فيعجز صاحبها عن إطفائها فتزداد اشتعالا ! أما إذا ماتت الشهوات فما عاد للشيطان مأوى فى النفس يأوى إليه ، وما عاد يستطيع أن يقوم بدوره الذى يضطلع به :

« .. ولأضلنهم ، ولأمنينهم ، ولآمرنهم .. »[61] .

« واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الأموال والأولاد ، وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا »[62] .

لذلك يظل الصوفى « يجاهد » ، ويتحمل فى سبيل ذلك الجهد ، حتى يظفر أخيرا بقتل شهواته ، لينصرف عنه الشيطان !

أما الزاهد فليست سبيله فى معركته مع الشيطان هى « قتل النفس » بقتل الشهوات .

إنما سبيله التى يستمدها من المنهج الربانى ، هى « تحصين النفس » من غواية الشبطان جهد الطاقة ، مع الإبقاء على حيويتها من أجل عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى ، ومن أجل الجهاد فى سبيل الله .

---

(٦١) سورة النساء [١١٩] .   (٦٢) سورة الإسراء [٦٤] .

إن هذه الدوافع التى أوجدها الله فى النفس الإنسانية لم يوجدها عبثا ، إنما أوجدها سبحانه لغاية ..

فلقد خلق الله الإنسان ليكون خليفة فى الأرض ، وكلفه بعمارتها .

« وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة »(٦٣) .

« هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها »(٦٤) .

والحكمة ما خلقه من قبضة من طين الأرض ، ثم نفخ فيه من روحه ، ولم يخلقه ــ كما خلق الملائكة ــ من نور خالص !

« إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين »(٦٥) .

ومع قبضة الطين وجدت فى النفس البشرية تلك الشهوات المزينة للإنسان :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة ، والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا .. »(٦٦) .

ولكنها بالنفخة العلوية لم تعد طينا معتما ، ومتعة حسية غليظة كمتعة الحيوان ، إنما صار لها ــ وهى طين بعد ــ شفافية روحية تقيها من

---

(٦٣) سورة البقرة [٣٠] .

(٦٤) سورة هود [٦١] .

(٦٥) سورة ص [٧١ ــ ٧٢] .

(٦٦) سورة آل عمران [١٤] .

عتامة الطين ، وتشع فيها قيما ومبادئ وأهدافا وآفاقا جديرة « بالإنسان » الذى كرمه الله وفضّله :

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »[٦٧] .

ويعلم الخالق اللطيف الخبير أن هذه « الشهوات » أو قل « الدوافع » لازمة للوجود البشرى ، لتدفعه إلى العمل والإنتاج والإنجاز والنشاط والحركة والبناء والتعمير ـ التى هى مقتضى الخلافة فى الأرض ـ حتى لا تقف الحواجز والموانع ـ وهى كثيرة ـ دون تحقيق الدور المطلوب من الإنسان .

كما يعلم سبحانه أنه لابد لها من الضبط لكى لا تتحول عن وظيفتها السوية وتصبح دمارا للإنسان .

والمنهج الربانى هو الذى يحدث التوازن المطلوب ، الذى يضبط هذه الشهوات دون أن يقتلها ، ودون أن يطلقها فى الوقت ذاته عارمة تحطم السدود .

وصحيح أن هذه « الدوافع » أو قل « الشهوات » هى نقطة الابتلاء فى حياة الإنسان :

---

(٦٧) سورة الإسراء [٧٠] .

«إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا»[68] .

وهذا هو الجانب الذى لمحته الصوفية فركزت عليه .. إذ رأت أن الإنسان يسقط فى الابتلاء من جانب شهواته ، وأنه إذا استطاع أن يقضى عليها ويقتلها فقد نجح فى الابتلاء ..

ولكنهم أغفلوا الحكمة من إيجادها ، ومن ضرورة الإبقاء عليها حية فى نفس الإنسان ، مع ضرورة ضبطها ما وسع الإنسان الجهد .. كما يقضى بذلك المنهج الربانى كما أنزله الله وكما بينه رسول الله :

«ألا إنى أعبدكم لله وأخشاكم له ، ولكنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء ..»[69]

وحين أغفلوا هذه الحكمة فماذا كانت النتيجة ؟ !

إن الإنسان لا يستطيع أن يكون نورا خالصا كما تشتهى الصوفية من جهادها الضخم مع الشهوات !

وفى الوقت ذاته هل يكون الإنسان قد قام بالعبادة المطلوبة منه ـ المفصلة على قده هو[70] ـ لو نجح فى الوصول إلى الشفافية النورانية الروحية بقتل الجسد وإماتة الشهوات ؟ !

---

(٦٨) سورة الكهف [٧] .

(٦٩) سبق ذكره .

(٧٠) راجع فصل «مفهوم العبادة» .

لا أحد ينكر أن الصوفى الحقيق[٧١] يصل بالرياضة الروحية إلى آفاق شفيفة تحلق فيها روحه خفيفة من ثقلة الجسد ، طليقة من جذب الشهوات ، فترتاد عوالم لا يقدر عليها اللاصق بالطين ، المستغرق فى الشهوات ..

لكن يقع الصوفى من جانب آخر فى خدر لذيذ يخيِّل إليه أنه « واصل » .. ومن هنا **لا يعمل** ! لأنه إذا كان العمل هو وسيلة الوصول للإنسان « العادى » ، وهو قد وصل بالفعل ، فما حاجته بعد إلى الوسيلة ! إنما يسعى إلى الوسيلة من لم يتمكن من « الوصول » .. أما الواصلون .. فحسبهم أنهم واصلون !

وهكذا تلتقى فى نفس الصوفى عوامل كثيرة تصرفه عن العمل فى واقع الحياة .. عن « الجهاد » الذى يخوضه الزاهد لإقامة منهج الله فى الأرض .. لتكون كلمة الله هى العليا .. ليكون الدين كله لله .. لتحطيم الباطل وإزهاقه ، وإقامة الحق وإعلائه .. للبناء والتعمير .. للزيادة والنماء .. لإعداد القوة لإرهاب عدو الله ..

العامل الأول هو نظرته للدنيا ــ وهى فى حسه منفصلة عن الآخرة ــ على أنها السجن الذى يسعى إلى الخلاص منه ، بانطلاقة الروح التى تخلصت من ثقلة الجسد ، فاتصلت بالنور الإلهى واتصلت بالآخرة ــ المنقطعة فى حسه عن الدنيا ..

---

(٧١) أى الصادق المتبتل ، لا المشعوذ المحترف .

وحين تكون الدنيا هى السجن .. فهل يسعى السجين قط إلى عمارة السجن ، وهو يعانى منه ما يعانيه ؟ !

إنما ينصرف بفكره عنه .. ولا يعنيه ما تلف منه أو تهدم .. ولا يسعى إلى إصلاح شىء فيه .. بينما هو يتطلع إلى يوم الخلاص منه !

والعامل الثانى هو انعدام « الرغبة » .. بسبب انعدام « الدوافع » التى تحرك الرغبات ..

إنما « يرغب » الإنسان فى الطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس .. أو « يرغب » فى القوة .. أو « يرغب » فى التملك .. أو « يرغب » فى العلم .. أو « يرغب » فى الغلبة .. أو « يرغب » فى المكانة .. أو « يرغب » فى السبق .. أو « يرغب » فى البناء الحسّى أو المعنوى .. فيتحرك .. يتحرك لتحقيق ما يعتمل فى نفسه من رغبات ، بصرف النظر عن كونها رفيعة أو هابطة ، سوية أو منحرفة ، ملتزمة أو طاغية ..

فأما حين يكون هَمُّ الرياضة الروحية هو قتل تلك الرغبات « لتخليص » النفس منها .. فلأى شئ يتحرك ؟ لأى شئ يسعى ؟ وهو لا يطلب شيئا من هذه الدنيا كلها .. وإن طلب فمجرد القوت الذى يحفظ الحياة .. وبأقل قدر من المئونة التى تحفظ الحياة ؟ !

وأما العامل الثالث فهو تلك الإشراقات الروحية ، أو إن شئت قل

ذلك الخدر الذى يخيِّل لصاحبه أنه « واصل » .. أو قل لذة الفناء التى تحدث الوجود !

وأيّاً سميتها .. فهى شعور يوحى للنفس بالرضى والاكتفاء .. الاكتفاء بما هو حاصل .. وعدم الرغبة فى شئ بعد ! أو إن رغب فإنما يرغب فى «مقامات» أعلى .. فيبذل مزيدا من الرياضة الروحية .. مزيدا من قتل النفس لكى تحيا .. مزيدا من الفناء الذى يحدث الوجود !

وحين تجتمع تلك العوامل الثلاثة ، مضافا إليها المفهوم السلبى لعقيدة القضاء والقدر ، الذى لا يسعى إلى تغيير شىء مما وجد بالفعل ــ أيا كان سوؤه ــ لأنه وجد بقدر من الله ! ولأن محاولة تغييره تعتبر فى نظره تمردا على قدر الله ..

حين تجتمع تلك العوامل كلها فى نفس الصوفى فأى شئ يدفعه للحركة فى خضم الحياة الموّار ؟ ! إنما قصاراه ــ إن تحرك ــ أن يتحرك ليجتنب اللجة ، لكى ينعم فى الأرض بالسلام !

* * *

وأخيرا تتكئ الصوفية ــ كما أسلفنا ــ على فتنة الدنيا التى تؤدى إلى الوقوع فى المعاصى ، والتى لا تتقى إلا بقتل شهوات النفس ، لكى تبتعد عن مزالق الشيطان ..

ويجدون فى هذا المجال وفرة من توجيهات القرآن ، ووفرة من توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم .

« يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور » (٧٢) .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا . إن وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » (٧٣) .

« واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح . وكان الله على كل شىء مقتدرا » (٧٤) .

« اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما . وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » (٧٥) .

« ... فو الله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما

---

(٧٢) سورة فاطر [٥] .
(٧٣) سورة لقمان [٣٣] .
(٧٤) سورة الكهف [٤٥] .
(٧٥) سورة الحديد [٢٠] .

تنافسوها ، وتلهيكم كما ألهتهم »(٧٦) .

وعن أبي ذر ــ رضى الله عنه ــ قال : «كنت أمشي مع النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى حرة المدينة فاستقبلنا أحد ، فقال : يا أبا ذر ! قلت : لبيك يا رسول الله . قال : ما يسرنى أن عندى مثل أحد هذا ذهبا تمضى علىّ ثالثة وعندى منه دينار ، إلا شيئا أرصده لدين ، إلا أن أقول به فى عباد الله هكذا وهكذا وهكذا ــ عن يمينه وعن شماله ومن خلفه . ثم مشى ثم قال : إن الأكثرين هم المقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا ، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه . وقليل ما هم »(٧٧) .

ولقد سمع الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ هذه التحذيرات فى كتاب الله المنزل ، وفى حديث الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وامتلأت بها قلوبهم ، وعلموا يقينا أن متاع الدنيا زائل ، وأن الآخرة هى النعيم الحقيقى الذى يستحق أن يحرص عليه ، فزهدوا فى كثير من متاع الأرض ..

ولكنه ــ كما أسلفنا ــ ذلك الزهد الإيجابى المقدام البنّاء ، الذى يدفع أصحابه إلى الجهاد والمجالدة والمواجهة ، لا إلى الانحسار فى داخل النفس . وهو ــ كما أسلفنا كذلك ــ الزهد الذى يحصِّنُ النفس ضد الفتنة لا الذى يقتل النفس للوقاية من الفتنة !

---

(٧٦) أخرجه البخارى . (٧٧) أخرجه البخارى .

إن هذه التحذيرات جاءت للتذكير ، حتى لا يفتن الناس بالدنيا وينسوا الآخرة ، ولم تجئ لمنع ممارسة الحياة فى الدنيا ، أو منع الحركة والنشاط والعمل فيها ..

إنها أشبه بلافتات تنبه الناس إلى الخطر عند منزلقات الطريق .. لا لكى يمتنعوا عن السير ! وإنما ليحذروا الانزلاق ! فإذا جاء قوم فقالوا : لا نسير فى هذا الطريق لأن هناك لافتات تحذّر من الانزلاق ، فقد بالغوا ولا شك فى الحذر حتى وصل بهم الحذر إلى القعود ! والواثق من نفسه يُقْبِلُ على السير ويحاول أن يتقى المزالق . أما الخائف فإنه يكف عن المسير !

وانظر إلى هذا الحديث من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم :

« والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا فتستغفروا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر الله لهم »[٧٨] .

هل هو حض على ارتكاب الذنوب ؟ !

كلا بالقطع !

فما يكون من شأن رسول مرسل من عند الله ـ صلوات الله وسلامه عليهم جميعا ـ أن يحض الناس على إتيان الذنوب ، وهو الذى يدعو الناس إلى طاعة الله والابتعاد ـ قدر الطاقة ـ عن الذنوب !

---

(٧٨) أخرجه مسلم .

إنما هو حض على العمل !

فحين يمارس الإنسان العمل فى واقع الحياة فإنه يتعرض لوقوع الذنوب منه لا محالة !

«كل بنى آدم خطاء ..» (٧٩)

وعندئذ يكون سبيل المؤمن الذى يعمل فى واقع الحياة ثم يقع منه الذنب أن يستغفر :

« والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ــ ومن يغفر الذنوب إلا الله ــ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، **ونعم أجر العاملين**» (٨٠) .

أما الذى لا يذنب أبدا ــ إن وجد هذا الإنسان قط ــ فهو الذى لا يعمل أبدا ! وتكون خطيئته الكبرى ــ التى لا يتنبه لها ــ هى أنه لا يعمل ! ! وهى خطيئة ثقيلة فى الميزان ، لأنها تقصير فى أداء واجبات مفروضة على الإنسان !

ليست البراعة أن يحمل الإنسان فوق رأسه سلة مملوءة بالأشياء ، ثم يجلس ساكنا لا يتحرك أى حركة لكى لا يقع من السلة شئ ! لأنه

---

(٧٩) سبق ذكره .

(٨٠) سورة آل عمران [١٣٥ ــ ١٣٦] .

مهما بذل من الجهد وتحمل من المشقة فى هذه الجلسة الساكنة فقد نعطل عن الحركة المطلوبة منه !

«كلا ! لما يَقْضِ ما أمره » ! (٨١)

إنما البراعة أن يتحرك الحركة المطلوبة والسلة فوق رأسه لا تقع على الأرض ، ولا يتبعثر ما فيها من الأشياء ! فإذا وقع منه شئ ـ رغم الجهد والمحاولة ، والنية السليمة ـ فهنا يتفضل الله سبحانه بالعفو والمغفرة لمن لم يتهاون فى الأمر ، ولم يستصغر وقوع ما وقع منه ، ولم يصرّ على ما فعل ، بل سارع بالتذكر وسارع بالاستغفار .

وهنا تتبدى رحمة الله بالإنسان حتى وهو مذنب ، مادام قائما بالعمل المطلوب منه ، ومادام الخطأ يقع منه فى أثناء أدائه للواجبات ، لا فى أثناء قعوده أو إعراضه عن الواجبات !

وتتبدى كذلك عظمة المنهج الربانى فى التعامل مع «الإنسان» ..

ليس المطلوب من الإنسان ـ فى المنهج الربانى ـ أن يقتل رغباته لكى يسلم من ارتكاب الذنوب ـ وهو لا يسلم أبدا فى الحقيقة ! ـ لأن ذلك يعطل جوانب كثيرة من مهمة الخلافة التى خلق الله لها الإنسان .

إنما المطلوب منه أن يعمل ويتحرك ـ فى جميع المجالات المتاحة

---

(٨١) سورة عبس [٢٣] .

المباحة ـ ليعمر الأرض بمقتضى المنهج الربانى ، وهو متقٍ لله جهد الطاقة :

« **فاتقوا الله ما استطعتم** . واسمعوا وأطيعوا »[٨٢] .

فتمتلئ الأرض بالنشاط والحركة ، والنماء والقوة ، مع النظافة بقدر ما يطيق البشر.. وهذا هو « إصلاح الأرض » كما ورد فى التعبير القرآنى :

« ولا تفسدوا فى الأرض **بعد إصلاحها** »[٨٣]

ثم يحدث الصراع والدفع فى واقع الأرض ، لرد الأرض إلى الصلاح إذا أفسد فيها المفسدون :

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين »[٨٤]

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . ولينصرن الله من ينصره . إن الله لقوى عزيز »[٨٥] .

وهكذا يقوم الفرد المسلم والأمة المسلمة بمهمتها فى الأرض .. ولا تنتهى هذه المهمة مادام الناس على الأرض .

---

(٨٢) سورة التغابن [١٦] .

(٨٣) سورة الأعراف [٥٦] .

(٨٤) سورة البقرة [٢٥١] .

(٨٥) سورة الحج [٤٠] .

وهكذا يكون الفرد المسلم والأمة المسلمة قد قاما «بالعبادة» المطلوبة ـ فى نطاقها الواسع الشامل ـ وحققا غاية الوجود الإنسانى كما أرادها الله ..

فأما «الزهاد» فقد قاموا بالأمر على مستوى الإحسان :

«قال : وما الإحسان ؟ قال : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه .فإنه يراك»[٨٦] .

وأما الصوفية فقد انصرفوا إلى الصلاة والصيام و«الذكر» .. وقالوا : هذه هى الأعمال المطلوبة للآخرة .. أما أمور «الدنيا» فلا حاجة لنا إلى الخوض فيها ، لأنها الفتنة التى توقع فى حبائل الشيطان !

ثم .. !

انصرفوا عن المشى فى مناكب الأرض والسعى وراء الرزق ، واكتفوا من ذلك بالكفاف .

وانصرفوا عن العلم الدنيوى من طب وفلك ورياضيات وهندسة وفيزياء وكيمياء .. لأنه متعلق بالدنيا الفانية !

وانصرفوا عن التقدم المادى لأنه زخرف الحياة الدنيا المؤدى إلى التهلكة !

وانصرفوا عن مصارعة الباطل ومحاولة إزهاقه ، لأن الله قد أقام

---

(٨٦) من حديث هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم . رواه الشيخان .

العباد فيما أراد ، ولو أراد غير ذلك لكان ، وحين يريد فإنه سيغير من عنده ويخلق الأسباب ..

وكانت النتيجة هى ما أصاب العالم الإسلامى من الفقر والجهل والمرض ، والضعف والتخلف فى جميع الميادين !

ولا يستقيم أمر الدين على هذا النحو ، ولا يستقيم حال الأمة كذلك ، ولا تستطيع أن تؤدى رسالتها الكبرى التى ناطها الله بها ، وهى أن تكون هادية ورائدة لكل البشرية :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا »(٨٧) .

وكيف يكون حال أمة كلها قاعد ، وكلها فقير ، وكلها جاهل وكلها مريض ؟ !

وحين يسعى كل إنسان إلى الرزق بالقدر الذى يكفيه لعيشة الكفاف ، فمن أين تجد الدولة « الفائض » الذى تنفقه فى سبيل الله ، والذى تنفذ به هذا الأمر الربانى :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم .. ؟ »(٨٨)

---

(٨٧) سورة البقرة [١٤٣] .

(٨٨) سورة الأنفال [٦٠] .

وحين لا يكون هناك علم أرضى ، ولا تقدم مادى ، فكيف تعد القوة التى ترهب الأعداء ؟

وحين ينتشر المرض فلا يُدَاوَى ، جهلاً بالطب من ناحية ، وقعودا عن التداوى من ناحية أخرى بدعوى التسليم بقدر الله والرضا به ، فكيف توجد الأجسام القوية التى تحمل السلاح فى وجه الأعداء ؟

كلا ! إن هذا الأمر الربانى ـ وحده ـ فضلا عن أوامر ربانية كثيرة أخرى يستلزم منهجا للحياة مختلفا أشد الاختلاف .

يستلزم أن يقبل الناس على العلم الدنيوى فيتمكنوا فيه ، ويتفوقوا فيه على الأعداء . وأن يسعوا إلى التقدم المادى ويتفوقوا فيه على الأعداء . وأن يكون فى أيديهم مال وفير ، ينشئون به القوة اللازمة للتغلب على الأعداء ..

وأن يكون عندهم « إنتاج » وفير فى كل مجال وفى كل ميدان .

حقا إن الزهد فى متاع الحياة الدنيا هو القمة فى السلوك الإيمانى ، وهو أرفع ما يصل إليه المؤمن من المقامات ..

ولكن الزهد فى المتاع لا يعطل الإنتاج !

فالمؤمن الحق ينتج بأقصى طاقته فى المجال الذى يعمل فيه ، ثم يستهلك لنفسه أقل قدر من الطيبات ، والباقى ينفقه فى سبيل الله . وبذلك يتكافل المجتمع ويترابط ، فيحمل القادرون منه غير

القادرين ، وتتقارب معيشة الناس فلا يوجد الغنى الطاغى ولا الفقر المدمر .. ثم تجد الدولة الفائض الذى يعينها على أداء رسالة الإسلام . ولن تؤدى رسالتها حتى تكون قوية مهيبة الجانب ، يخشى بأسها الأعداء ..

* * *

وما نريد أن نظلم الصوفية فنحملها وحدها وزر الضعف والتخلف الذى أغرى الأعداء بالهجوم من كل صوب ، حتى تحقق النذير الذى أنذر به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الأمة :

« يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال إنكم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل »[89] .

فقد كان مع الصوفية الفكر الإرجائى ، والاستبداد السياسى ، والتفلت من التكاليف ، وغيرها من البدع والمعاصى والانحرافات[90] . كما كان من بين الصوفية من جاهد بسيفه لنشر الدعوة ، ومن قاد الجيوش لقتال الأعداء ، ومن وقف للسلطان الجائر يرده عن ظلم الناس .. وهؤلاء زهاد فى الحقيقة وإن ألحقوا بالصوفية ..

---

(٨٩) سبق ذكره .

(٩٠) انظر إن شئت فصل « خط الانحراف » من كتاب « واقعنا المعاصر » .

كما أن رجال الصوفية وفرقها هم الذين أبقوا العامة مرتبطين بدين الله ـ رغم البدع والانحرافات ـ حين عزّ العلماء ، ولم يعد للعامة باب يلجون منه إلى الدين إلا باب الصوفية[٩١] .

كما أنهم هم الذين حفظوا شيئا من ترابط الأمة المسلمة حين فرقتها السياسة والحرب ، وجزأتها فى دول متناحرة على الغلبة والسلطان ..

ولكن هذا الجهد الذى بذلوه كله لا ينفى عنهم خطأ المنهج الذى أدى إلى فساد المفاهيم :

فصل الدنيا عن الآخرة ، ووضعها فى موضع التضاد والتقابل ، بحيث يصبح التعامل مع إحداهما بمثابة الامتناع عن التعامل مع الأخرى ..

وحصر العبادة فى الشعائر التعبدية ، والتركيز عليها ، وإهمال المفهوم الشامل للعبادة ، الذى يشمل كل نشاط الإنسان ..

ولا هذا من الإسلام .. ولا هذا من الإسلام !

حين دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة أمر ببناء المسجد .. ثم وجه الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ إلى السوق .. وقد كانت السوق يومئذ فى يد اليهود ، ولهم هناك صولة الاقتصاد قائمةً على

---

(٩١) الحقيقة أن هناك تناسبا عكسيا بين وجود الصوفية ووجود العلماء . فكلما كثر العلماء انحسرت الصوفية . وكلما عزّ العلماء انتشرت الصوفية !

الربا وأكل أموال الناس بالباطل . فهل أمر الزاهد العظيم ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه الزاهدين أن يزهدوا فى أمور الاقتصاد ـ وهى فى حس المتأخرين من أمور الدنيا ـ ليفوزوا بالآخرة ، ويدعوا السيطرة الاقتصادية لليهود ، تزيد من قدرتهم على الإفساد فى الأرض ؟ !

إن توجيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للصحابة أن يجاهدوا لنزع السيطرة الاقتصادية من اليهود أمر له دلالته ..

فالمسجد ، الذى بدأ ببنائه ، هو الذى تقام فيه الصلاة المعلِنة عن قيام أمة لا إله إلا الله ممكنة فى الأرض .. وهو الذى تتربى فيه الأمة على هدى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقضى فيه بين المسلمين ، وتقرر فيه سياستهم ، وسلمهم وحربهم .. والسوق هى التى تقام فيها الحياة الاقتصادية التى تقوم عليها حياة الأمة المسلمة :

« أموالكم التى جعل الله لكم **قياما** » (٩٢)

ولابد من هذه وتلك ، ليتكامل كيان الأمة التى تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتحصل على الفلاح :

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » (٩٣) .

أما استخلاص جانب من العبادة التى فرضها الله على الإنسان ـ

---

(٩٢) سورة النساء [٥] .

(٩٣) سورة آل عمران [١٠٤] .

وهو الشعائر التعبدية ـ والزعم بأنها وحدها هى المؤدية إلى الفوز فى الآخرة ، وإهمال الجانب الآخر من العبادة على زعم أنه جانب أرضى متعلق بالحياة الدنيا ، وأن فى إهماله قربى إلى الله .. فقد كان أهم ما تركوه ، وأخطره أثرا فى حياة الأمة ، هو المقتضى الواقعى للا إله إلا الله ! أوقل بعبارة أخرى : المقتضى السياسى والاقتصادى والاجتماعى للا إله إلا الله !

مفهوم الحضارة وعمارة الأرض

حين وقعت الأمة فى هذه المجموعة من الانحرافات : تفريغ لا إله إلا الله من مقتضاها الحقيق ، وتحولها إلى كلمة تقال باللسان ، بغير دلالة ولا رصيد واقعى . وحصر مفهوم العبادة فى شعائر التعبد . وتحوّل عقيدة القضاء والقدر إلى سلبية وقعود عن الأخذ بالأسباب ، وتخل عن دور الإنسان الإيجابى فى الأرض . ووضع الدنيا والآخرة موضع التقابل والتخيير ، ثم اختيار الآخرة وإهمال الدنيا ..

حين وقعت كل هذه الانحرافات فى حياة الأمة لم يكن غريبا إذن أن يختل مفهومها عن الحضارة وأن تهمل عمارة الأرض .

لقد كان فهم الأجيال الأولى من المسلمين للحضارة مستمداً من روح الإسلام ، ومتفردا ككل شئ فى هذا الدين .

فإذا كانت جاهليات معاصرة لمولد الإسلام وسابقة له ولاحقة قد ركزت على المعنى الروحى للحضارة ، وأهملت الحياة الدنيا ، وأهملت العمارة المادية للأرض ، بوصفها أمورا ألصق بالحس ، وأقرب إلى متاع الجسد ، والجسد ملعون ومحتقر ومستقذر ..

وإذا كانت جاهليات أخرى معاصرة لمولد الإسلام وسابقة له ولاحقة قد ركزت على الجانب المادى للحضارة ، وأهملت الآخرة ، وأهملت عالم الروح ، بوصفها أموراً شخصية لا علاقة لها بالواقع العملى ، بل بوصفها ـ فى كثير من الأحيان ـ معوقات لانطلاق الحضارة (!) وأكبّت على عالم الحس وعالم المادة ، تبدع فيهما كل عبقريتها ، وتصب فيهما كل طاقتها ، بصرف النظر عن القيم والمثل والمبادئ ..

فإن الإسلام ـ المنزل من عند الله اللطيف الخبير ، خالق الإنسان والعليم بأحواله وحاجاته ، وما يصلحه وما يصلح له ـ هو المنهج الشامل الكامل ، الذى لا يهمل جانبا من جوانب الإنسان ، ولا يلبى جانبا منه على حساب جانب آخر ، والذى يستجيب للفطرة السوية كما خلقها الله :

« إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين »[1] .

هذا التكوين الإنسانى المترابط ، الذى لا تنفصل فيه قبضة الطين عن نفخة الروح ، ولا نفخة الروح عن قبضة الطين ، له مفهوم حيوى شامل لعالم الجسد وعالم الروح ، وينبغى أن يكون له واقع حيوى يتسم بذات الشمول والترابط المتمثل فى تكوين « الإنسان » .

---

(١) سورة ص [٧١ ـ ٧٢] .

والمنهج الربانى هو الذى يرسم خطوط هذا الواقع الحيوى ويرسم تفصيلاته .

والشمول والترابط والتوازن هى أبرز سمات المنهج الربانى .

شمول لكل جوانب الإنسان والحياة البشرية ، وربط وثيق بينها ، وموازنة بين شتى جوانبها .

وتلك عظمة الإسلام ، وتلك مزيته على المناهج الجاهلية التى تحكم حياة الناس فى معزل عن العقيدة الصحيحة ، أى فى معزل عن لا إله إلا الله ، والتى يشملها قوله تعالى :

« أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » [٢] .

وحكم الله ليس مقصورا على إقامة الحدود ،كما أن حكم الجاهلية ليس مقصورا على القوانين التى يتحاكم الناس إليها فى المحاكم .. إنما حكم الله شامل لكل صغيرة وكبيرة فى حياة الإنسان ، سواء كان مما يصل إلى القضاء أو لا يصل إليه ، بل سواء كان عملا ظاهرا أو نية مضمرة فى الضمير . وكذلك حكم الجاهلية ليس محصورا فى تلك القوانين التى تحكم المخالفات والجنح والجنايات ، أو المعاملات المدنية أو المعاملات التجارية .. الخ .. إنما هو كذلك نظم ومؤسسات

---

(٢) سورة المائدة [٥٠] .

وأفكار وسلوك ومشاعر ، قائمة كلها بمعزل عن لا إله إلا الله ، وعن الاستمداد من منهج الله .

ومن ثم فإن الحضارة وعمارة الأرض ذات صلة وثيقة بلا إله إلا الله ، والمنهج المنزل من عند الله ليحكم الحياة .

* * *

إن المفهوم الإسلامى للحضارة هو مفهوم العبادة ..

هو تحقيق غاية الوجود الإنسانى التى حددها قوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »[٣] .

هذه هى الغاية .. وذلك هو المعيار ..

تحقيق غاية الوجود الإنسانى هو الذى تنشأ عنه الحضارة فى الواقع البشرى . وهو المعيار الذى تقوّم به صعودا أو هبوطا ، واستقامة أو انحرافا .

وحين تختلف النظرة إلى غاية الوجود الإنسانى تختلف النظرة إلى الحضارة ، وتختلف النظرة كذلك إلى التاريخ .

فحين تكون غاية الوجود الإنسانى هى الفناء فى الكائن الأعظم كما تقول « النرفانا » ، أو الخلاص من ربقة الجسد وإطلاق الروح لتتحد

(٣) سورة الذاريات [٥٦] .

مع الخالق .. تصبح الحضارة هى تحقيق عالم الروح على حساب الجسد ، وعلى حساب الجانب المادى من عمارة الأرض .

وحين تكون غاية الوجود الإنسانى هى الاستمتاع بما فى الأرض من متاع ، بصرف النظر عن القيم المصاحبة لهذا المتاع من حلال وحرام ، وخير وشر ، وفضيلة ورذيلة ، ورفعة وانتكاس .. تكون الحضارة هى العمارة المادية للأرض ، وهى تيسير الحياة الأرضية وتزيينها ، والانكباب على متعها ولذائذها ، وتكون فى الوقت ذاته هى محاولة التغلب على الآخرين للاستئثار بأكبر قدر من المتاع ، ومحاولة إخضاعهم بالقوة والقهر ، سواء بالقوة المادية أو القوة العسكرية أو القوة السياسية أو القوة الاقتصادية أو القوة العلمية .. أو كلها جميعا ..

وحين تكون الغاية هى عبادة الله ـ على المعنى الواسع الشامل للعبادة الذى بيناه من قبل[٤] ـ يكون مفهوم الحضارة مختلفا عن هذا المفهوم وذاك ، وكذلك يكون تفسير التاريخ ، لأن المعيار الذى يقوم على أساسه التفسير ، هو مدى تحقيق الإنسان لغاية وجوده ، ومدى تفوقه أو تخلفه فى تحقيق هذا الوجود .

* * *

(٤) راجع فصل «مفهوم العبادة» .

سبق أن بينا فى فصل مفهوم العبادة أن الله ـ من رحمته ـ جعل النشاط الطبيعى للإنسان فى جميع مجالاته : الجسدية والعقلية والروحية عبادة مادام يتوجه به الإنسان إلى الله ، ويستمد فيه من منهج الله . بل إنه ـ سبحانه ـ قد جعل ذلك النشاط هو هو العبادة المطلوبة من الإنسان ، والتى انحصرت غاية وجوده فى أدائها .

وهذا النشاط ذاته هو الذى ينشئ الحضارة .. وما الحضارة إلا منجزات ذلك النشاط البشرى فى مختلف المجالات .

وحين ندقق فى الأمر فليس كل نشاط للجسد أو العقل أو الروح يشكّل حضارة ، أو يكون جزءا من الحضارة ـ وهذا أمر واضح بالبداهة ـ إنما هو **النشاط الهادف** ، الذى يهدف إلى تحقيق غاية الوجود الإنسانى .

فالمشى فى الأرض أو الحفر فيها لا يشكل فى ذاته نشاطا حضاريا . ولكن المشى الهادف ، الذى يهدف مثلا إلى كشف مجاهل الأرض لسكناها وعمارتها ، والحفر الهادف لإخراج كنوز الأرض وتصنيعها من أجل تلك العمارة ، هذا هو الذى يمكن أن يشكل حضارة ، أو يكون جزءا من حضارة .

وكذلك نشاط العقل ونشاط الروح ، يشترط فيهما لكى يشكلا حضارة أن يكونا هادفين ، وأن يكون هدفهما فى الوقت ذاته متجها إلى تحقيق غاية الوجود الإنسانى ، **وليس معاكسا لهذا الاتجاه** .

ومن هنا نستطيع أن نقول ـ واثقين ـ أن ما تنتجه الجاهليات من منجزات مادية أو عقلية (أو روحية أحيانا) ليس حضارة حقيقية ، وإن بدا رائعا وضخما أحيانا ، وإن بهر أعيننا لأول وهلة ، لأنه يفقد هذا الشرط الأساسى الذى يجعل من النشاط البشرى والمنجزات البشرية حضارة ، وهو أن يكون هدفها متجها إلى تحقيق غاية الوجود الإنسانى ، وليس معاكسا لهذا الاتجاه.

إن تحقيق الجانب الروحى للإنسان وحده ، على حساب الجانب الحسى والمادى ، وفى عزلة عنه ، لا يحقق غاية الوجود الإنسانى كاملة كما بينها المنهج الربانى . وإن تحقيق الجانب الحسى والمادى من الإنسان والحياة البشرية على حساب الجانب الروحى وفى عزلة عنه ، لا يحقق كذلك غاية الوجود الإنسانى ، بل يتجه به إلى الدمار والبوار .. ومن ثم فكلاهما لا يشكل حضارة بالمفهوم الصحيح للحضارة . أو إنه يشكل «حضارة جاهلية» إن صح هذا التعبير.

كما أن اجتماع الجانبين معا ولكن على غير قاعدة صحيحة ـ كما حدث فى الجاهلية الفرعونية التى شملت عالم المادة وعالم الروح ، ولكن على قاعدة تأليه الفرعون والعبودية له من دون الله ـ لا يشكل كذلك حضارة بالمفهوم الصحيح . أو إنه ـ كما أسلفنا ـ يشكل حضارة جاهلية إذا قبلنا هذا الاصطلاح .

إنما الحضارة الصحيحة هى التحقيق السوى لغاية الوجود الإنسانى

فى الأرض ، التى حددها قوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » وفسرها قوله تعالى « قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له »[6] . وهى فى المفهوم الإسلامى شىء شامل لكل النشاط الهادف للإنسان .

إن الصلاة والنسك جزء من المفهوم الإسلامى للحضارة ، بمدلولها الحقيقى ، ومقتضاهما الحقيقى[7] .

وإن إقامة شريعة الله فى الأرض ، والحكم بما أنزل الله ، وهو المقتضى المباشر للا إله إلا الله ، جزء من المفهوم الإسلامى للحضارة .

وإن إقامة العدل الربانى فى الأرض كما أراده الله أن يكون ، وأخرج هذه الأمة لتقيمه ، وقال لها سبحانه فى توجيهاته لها وإعداده إياها لحمل هذه الأمانة الكبرى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا »[8] وقال : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى »[9] .. إن إقامة العدل الربانى على

---

(٥) سورة الذاريات [٥٦] .
(٦) سورة الأنعام [١٦٢ – ١٦٣] .
(٧) راجع فصل «مفهوم العبادة» .
(٨) سورة النساء [١٣٥] .
(٩) سورة المائدة [٨] .

هذه الصورة جزء من المفهوم الإسلامى للحضارة .

وإن إقامة الحياة كلها ــ بكل ألوان النشاط فيها ــ على قاعدة أخلاقية مدارها تقوى الله وخشيته .. فتكون السياسة ذات أخلاق قائمة على حكم ولى الأمر بشريعة الله ، والسمع والطاعة من الأمة لولى الأمر فيما يأمر به موافقا لشريعة الله ، والنصح لله ورسوله ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والتعاون على البر والتقوى ، وعدم التعاون على الإثم والعدوان ، وإقامة الأمر على الشورى التى أمر بها الله .. ويكون الاقتصاد له أخلاق ، قائمة على الالتزام بما أحله الله ، وتحريم ما حرم الله من ربا واحتكار وغش وسلب ونهب ، وسرقة وغصب ، وأكل مال الأجير ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وقائمة على تطهير المال بأداء الزكاة ، والإنفاق فى سبيل الله ، وعدم الإنفاق فى ترف أو سرف أو معصية أو مخيلة .. وتكون علاقات المجتمع ذات أخلاق قائمة على التواد والتحاب والتكافل ، والتعاون على البر والتقوى ، وحرمة الدم والعرض والمال ، وكظم الغيظ والعفو عن الناس ، والكف عن الغمز واللمز والغيبة والنميمة والتجسس والاطلاع على العورات .. وتكون علاقات الأسرة ذات أخلاق .. وعلاقات الجنسين ذات أخلاق .. إن إقامة الحياة كلها على هذه القاعدة الأخلاقية جزء من المفهوم الإسلامى للحضارة .

وإن الوفاء بالمواثيق ، يستوى فى ذلك العقود الفردية أو المعاهدات والمواثيق الدولية ، جزء من المفهوم الإسلامى للحضارة .

وإن طلب العلم ، سواء العلم بدين الله وأحكامه ، أو العلم بسنن الله فى الكون وبخواص المادة ، الذى يعين على استخلاص ما سخر الله للإنسان من طاقات السماوات والأرض ، واستخدامها فى عمارة الأرض ، أو العلم بسنن الله فى الحياة البشرية ، التى يقوم على أساسها مجتمع صالح ، أو العلم بالتاريخ البشرى وما فيه من فترات الهدى والضلال ، والنتائج المترتبة على كل منهما فى واقع الحياة البشرية .. إن هذا العلم بمختلف فروعه واتجاهاته ، جزء من المفهوم الإسلامى للحضارة .

وإن إقامة فنون نظيفة ، تلتفت إلى الجمال فى الكون وفى الحياة البشرية وتعبر عنه فى أداء جميل .. فنون لا تزين الفاحشة لأن الفاحشة ليست جمالا ولكنها هبوط . ولا تزين لحظة الضعف لأنها ليست جمالا إنما هى لحظة غفلة عن إدراك غاية الوجود الإنسانى ، أو لحظة تقصير فى تحقيق ذلك الوجود . ولا تزين الانحراف والشذوذ لأنه ليس جمالا ، وإنما هو نشاز نافر عن الجمال . ولا تزين عبادة الشيطان وعبادة الهوى والشهوات ، لأنها ليست جمالا ، وإنما هى حطة للإنسان الذى كرمه الله وفضله ، وأراد له أن يتحرر من كل عبودية زائفة تزرى بكيانه وتستذله.. إن إقامة مثل هذه الفنون جزء من المفهوم الإسلامى للحضارة [١٠] .

---

(١٠) راجع إن شئت كتاب «منهج الفن الإسلامى» .

وهذا كله ، وما كان فى مثل اتجاهه ، هو الجانب المعنوى من الحضارة فى المفهوم الإسلامى .

ثم إن هناك جانبا ماديا للحضارة الإنسانية يشمله المفهوم الإسلامى ، وهو جانب ضخم كذلك .

فلئن كان الإنسان مخلوقا لعبادة الله ، فإن عمارة الأرض هى جانب من مفهوم العبادة الواسع الشامل ، الذى يحقق خلافة الإنسان فى الأرض .

« وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة »[١١] .
« هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها »[١٢] .

واذا اعتبرنا إقامة لا إله إلا الله فى الأرض ، أى إزالة الشرك ، وإقامة التوحيد ، وإقامة العدل الربانى والأخلاق الإيمانية جانبا من « العمارة » ، لأن الأرض لا تعمر حقا إلا تحت المظلة الإيمانية التى تقيها من الانحراف والفساد والشر.. فإن الجانب الآخر هو العمارة المادية ، باستخلاص طاقات السماوات والأرض وتسخيرها لخير الإنسان .

وهذا الجانب من العمارة يحتاج إلى كدح ذهنى وعضلى لتحقيقه . يحتاج إلى معرفة خواص المادة والسنن الربانية التى يُجْرى الله بها

---

(١١) سورة البقرة [٣٠] .　　(١٢) سورة هود [٦١] .

هذاالكون (والتى يسمونها فى الجاهلية المعاصرة «قوانين الطبيعية» [١٣]) ثم استخدام هذه المعرفة فى المجال التطبيقى فى الفيزياء والكيمياء والطب والهندسة وسائر العلوم ..

وحين تعتبر الجاهلية المعاصرة هذا الجانب هو الحضارة ، أو هو أهم ما فى الحضارة ، وأبرز منتجات الإنسان ، فإن الإسلام يشترط شرطا واحدا لإدخال هذه الإنجازات فى مدلول الحضارة ، هو أن تكون كلها قائمة وفق المنهج الربانى ، غير حائدة عن مقتضياته ..

إن استخلاص الطاقات الكونية ـ على ضرورته ـ ليس هو أهم مايقوم به الإنسان على الأرض ، ولو وصل به إلى القمر أو إلى المريخ . إنما الأهم من ذلك هو الغاية الكامنة وراءه ، والأسلوب الذى يتم به ، والمنهج الذى يحكمه .

وحين نقول : «الأهم» يفهم بعض الناس أننا نقول «البديل» ! يعنى أننا نضع القيم المعنوية بديلا من القيم المادية ! ولا يقول بهذا عاقل ! فالقيم المعنوية **وحدها** لا تملأ المعدات الخاوية إن لم يكن هناك خبز ، ولا تسيّر السيارات والقطارات والطائرات إن لم يكن هناك وقود ، ولا تصنع المدفع والدبابة والصاروخ إن لم تكن هناك مصانع وآلات .

تلك بديهية لا يحتاج الإنسان لذكرها .. ولكن هناك بديهية مقابلة

---

(١٣) ذلك حين كفرت الجاهلية المعاصرة بالله ، وعبدت الطبيعة بدلا منه !

لها لا تقل عنها بداهة ، ولا تقل عنها أهمية ، وإن جادلت فيها الجاهليات كثيرا ، والجاهلية المعاصرة بصفة خاصة ، هى أن الخبز والوقود والمصانع والآلات والسيارات والقطارات والصواريخ والدبابات والمدافع **وحدها** لا تصنع حضارة ، ولا إنسانا متحضرا ، ولا عمارة حقيقية للأرض ، لأنها ــ وحدها ــ بدون « القيم » ــ تؤدى إلى الخراب !

وهذا الذى لا تصدقه الجاهلية المعاصرة أو لا تريد أن تصدقه رغم كل دلالة التاريخ ، بل رغم النذر التى تحيط بها هى ذاتها وتكتنفها من كل جانب ، وتشيع فى صفوفها الخبال !

إن الإنسان ــ بكل الإنتاج المادى الذى ينتجه ــ يمكن أن يهبط أسفل سافلين إذا تخلّى عن القيم التى تجعل الإنسان إنسانا وترفعه عن مستوى الحيوان ..

والجاهلية المعاصرة هى عنوان ذلك ومصداقه ..

إن بين يديها أكبر قدر من «العلم» شهدته البشرية ، وأكبر قدر من الإنتاج المادى فى التاريخ . كما أن بين يديها من المخترعات والتيسيرات المادية مالم يتجمع قط لأى جيل من أجيال البشرية ..

ضغطة زر واحدة صارت تصنع أشياء كثيرة ورائعة .. تدير آلة ضخمة . أو تنقل إليك أخبار العالم فى الإذاعة المسموعة أو المرئية .. أو تنطلق بك فى الفضاء إلى القمر أو المريخ .

نعم .. ولكن أين « الإنسان » ؟ !

ابحث عنه شاردا فى المراقص والحانات ، أو غارقا فى شهوة جنس هابطة ، أو مجرما يعتدى على الآمنين ، أو نزيلا فى أحد المصحات العقلية ، أو مترددا على إحدى العيادات النفسية ، أو مصابا بالحيرة والقلق والضياع تفسد أعصابه وتدمر سعادته ..

وليست القضية هى وجود « حالات » من ذلك كله . فإنه لا يوجد مجتمع فى الأرض أياً كانت القيم التى يعيش عليها يخلو من حالات من تلك الأنواع . ولكن القضية هى النسب المخيفة التى ترتفع إليها تلك الحالات حتى تصبح ظواهر اجتماعية ، ثم تصبح هى السمة البارزة فى جاهلية القرن العشرين !

* * *

ذلك إذن هو المفهوم الإسلامى للحضارة .. حضارة « الإنسان » الخليفة فى الأرض ، المخلوق من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله . إنه ليس ذلك الحيوان الداروينى الذى يلفظ ـ بحكم تكوينه ـ كل القيم والأخلاق والمبادئ ، ولا ذلك الإله الزائف الذى يتبع هواه ، ويتجبر به فى الأرض مستكبرا عن عبادة الله .

وعلى أساس هذا المفهوم قامت حضارة إسلامية متفردة فى التاريخ .

قامت ـ عند مولدها ـ بأعظم قدر من القيم فى تاريخ البشرية ،

وبأقل قدر من المظاهر المادية قامت عليه حضارة فى التاريخ : مجموعة من الخيام ، وبيوت الطين ، وبساتين النخل ، والخيل والإبل والأغنام ، والسهام والسيوف !

وكانت ــ بصورتها تلك ــ إحدى معجزات التاريخ !

فهذا القدر من العمارة المادية للأرض لا يتصور إنسان أنه ينشئ حضارة ، فضلا عن تلك الحضارة السامقة الفريدة . ولكن الفيض الهائل من القيم ، الذى لا مثيل له فى التاريخ ، مطبقا فى صورة واقع ، لا فى صورة شعارات أو مُثُلٍ معلقة فى الفضاء ، هو الذى عوض هذا النقص فى العمارة المادية وغطاه ، وأخرج «خير أمة أخرجت للناس» .

ومع أن هذه لم تكن الصورة النهائية لتلك الحضارة ، إنما كانت هى «المولد» فحسب ، إلا أن لنا وقفة عند هذه الصورة الفريدة التى شهدتها البشرية . وقفة تجيب على هذا التساؤل : أى جانبى الحضارة يمكن أن يغطى النقص فى الجانب الآخر ويعوضه (حين يوجد نقص لسبب من الأسباب) : أهو الجانب المعنوى ــ جانب القيم ــ أم الجانب الحسىّ المادى ؟ !

إن التجربة الإسلامية الرائعة ــ فى مقابل الجاهلية المعاصرة ــ تجيب إجابة حاسمة على هذا التساؤل . فقد استطاع الفيض الهائل من القيم أن يعوض التخلف المادى ، ويخرج خير جيل شهدته البشرية ، بشهادة

الله وشهادة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بينما لم يستطع الفيض الهائل من الإنتاج المادى والعلمى والتكنولوجى أن يعوض التخلف الروحى والمعنوى والأخلاق ، فأخرج شر جاهلية فى التاريخ .

ولكن صورة « المولد » لم تكن هى الصورة النهائية ، وما كان ينبغى لها أن تكون .

لقد كان كامنا فى هذا المولد كل عناصر النماء والقوة التى برزت فيما بعد .

فهذا المولد الفذ هو الذى دفع هذه الأمة تبحث عن « العلم » فى كل مصادره ، وتتعلم اللغة اليونانية واللاتينية ، وكل لغة للعلم فى ذلك العصر ، لتترجم عنها ، ثم تنشئ حركتها العلمية الذاتية فيما بعد ، التى كان أروع ما ابتكرته المنهج التجريبى فى البحث العلمى ، الذى قامت عليه ـ فيما بعد ـ حركة أوربا العلمية المعاصرة ، بما تعلمته فى مدارس المسلمين .

وهو الذى دفع هذه الأمة إلى التعمير المادى والتنظيمى فى الأرض ، بما تشهد به المدن الإسلامية وما حفلت به من صناعة وتجارة وحركة موارة . وما تشهد به نظم الإدارة والقضاء والحسبة ونظم التعليم ونظام الوقف والتنظيمات الحربية وديوان المظالم وديوان الإنشاء .. الخ .. الخ

وهو الذى دفع هذه الأمة أن تكشف مجاهل الأرض ، وترسم

الخرائط وتحدد المواقع ، فى حركة من أكبر حركات الكشف الجغرافى فى التاريخ ، والتى على أساسها قامت حركات الكشف الأوربى فيما بعد ، بما فيها حركات فاسكوداجاما ، وكولومبوس ، وماجلان .

وهو الذى أنشأ التراث الفكرى الهائل الذى تعجب له الأجيال المعاصرة : كيف تم بهذه الأصالة وهذه الغزارة وهذا العمق .

وهو الذى أنشأ فنونا فى الأدب وفى العمارة وغيرها من ألوان الفنون ..

ولكن أهم ما تميزت به تلك الحضارة أنها قامت بكل ما قامت به من عمارة الأرض وهى تستظل بظل العقيدة الصحيحة ، بل تنطلق من مطلقاتها ، فتعمر ما تعمر فى الأرض وهى تؤمن بالله واليوم الآخر ، وتحقق مقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر من قيم وأخلاق ومبادئ ، دون تناقض فى حسها بين هذا الأمر وذاك .

* * *

ولئن كانت هذه الحضارة قد أصيبت بالترف بعد ذلك فقد كان هذا بدء الاختلال فى تاريخ هذه الأمة وبدء الانحسار ..

وتلك مشكلة من مشاكل الكيان البشرى والحياة البشرية ليس هنا مجال الحديث عنها ، وإن كنا نلم بها إلمامة سريعة فى مجال الحديث عن «مفهوم» الحضارة وعمارة الأرض ..

إن الأمم تبدأ نشأتها متجمعة العزيمة مشحوذة الهمة متوفرة الجهد ، لأنها تواجه تحديات جمة . ومن شأن التحديات أن تشحذ الهمة وتستنفر الجهد وتجمّع العزيمة . وتمضى بضعة أجيال حتى يتم « الإنجاز » بالصورة التى تحقق الوجود وتؤمنه وتمكّن له ، وتتغلب على التحديات .. وعندئذ يحدث نوع من الاطمئنان إلى ما تم إنجازه بالفعل ، فيحدث معه نوع من التراخى ، وفتور الهمة ، والانصراف إلى الدعة والترف ، وخاصة مع كثرة الموارد المالية التى تصاحب النجاح المادى فى أغلب الأحيان ..

وحين يبدأ الترف يبدأ الانهيار ..

وتجىء الأخطار والأمة لاهية فى ترفها ، مشغولة بمتاع الأرض القريب ، غير مقدّرة للخطر الذى يقترب منها ، مخدوعة بقوتها ، أو مستنيمة لهواتف الراحة والسلامة والإخلاد إلى الأرض ، مبعدة عنها صوت النذير !

وتمضى السنة الربانية بتدمير المترفين :

« وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا »[١٤] .

والسنن الربانية لا تحابى أحدا من الخلق ، مهما زعموا لأنفسهم من مسوغات تسوغ المحاباة !

---

(١٤) سورة الإسراء [١٦] .

«وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه . قل : فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق ..» (١٥)

ولقد جرت السنة الربانية على الأمة الإسلامية حين جنحت إلى الترف وأخلدت إلى الأرض ، لأن سنن الله لا تتبدل ولا تتحول :

«.. فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا» (١٦) .

وكان الترف القتّال من جانب ، مصحوبا ـ أو متبوعا ـ برد فعل خطر على الجانب الآخر ، هو الانزواء والانصراف عن العمارة المادية للأرض ، وعن اتخاذ أسباب القوة المادية ، بحجة أن الدنيا ملعونة لأنها تصرف الناس عن الآخرة .

وبذلك كانت الحضارة تنهار من جانبيها فى وقت واحد : الجانب الروحى والمعنوى ـ جانب القيم والأخلاق والمبادئ ـ يفسده الترف المنحلّ ، والجانب المادى والحسّى تفسده الصوفية المنصرفة عن تعمير الأرض ..

ولا الترف مقبول من الأمة المسلمة ، ولا الطريق الصحيح لتقويمه هو الانزواء والانصراف عن عمارة الأرض ، فقد كان كلاهما من أسباب الضعف الذى أغرى أعداء الأمة الإسلامية ، فجاءوا من الشرق والغرب يحاولون القضاء على دين الله .

---

(١٥) سورة المائدة [١٨] .

(١٦) سورة فاطر [٤٣] .

لقد حدثت موجة من الانحسار الشامل فى كل ميدان .

ميدان الفكر والعلم . ميدان الأدب والفن . ميدان السياسة والاقتصاد والحرب . ميدان الإنتاج المادى الصناعى والزراعى . ميدان السلوك الخلق .. وكذلك ـ وقبل كل شئ ـ فى مجال العقيدة الصحيحة . فى مفهوم العبادة ومفهوم لا إله إلا الله(١٧) .

واستمر هذا الواقع عدة قرون ، والعالم الإسلامى ينحدر كل يوم ، وأعداؤه يتقوون على حسابه ، ويتحولون من الدفاع إلى الهجوم ، ويقتطعون كل يوم قطعة من العالم الإسلامى ، يستذلونها ويستعبدونها ، ويحاولون القضاء على الإسلام فيها ..

ثم استيقظ العالم الإسلامى على الصدمة ، حين وجد كل شئ فى داخله ينهار ويقع فى قبضة الأعداء .

لقد كان الانهيار نتيجة طبيعية لكل ما حدث من انحراف خلال القرون .

الخواء الذى أصاب مفهوم لا إله إلا الله . الخواء الذى أصاب مفهوم العبادة . السلبية المتواكلة المريضة . الانصراف عن وسائل القوة التى أمر الله بإعدادها لأعداء الله .

ولكن الصدمة العنيفة ـ الموازية فى شدتها لشدة الخواء ـ أحدثت

---

(١٧) راجع إن شئت فصل «خط الانحراف» من كتاب «واقعنا المعاصر» .

هزيمة داخلية عنيفة لم يفق منها «المسلمون المعاصرون» بعد ، إلا الذين رجعوا إلى حقيقة هذا الدين ، ومارسوا تلك الحقيقة فى عالم الواقع .. تلك الهزيمة الروحية هى التى مهدت فى نفوسهم لتقبل الغزو الفكرى بلا مناقشة ولا تدبر ولا تفكير..

ومن بين المفاهيم الضالة التى أدخلها الغزو الفكرى فى قلوبهم ورءوسهم مفهوم الحضارة وعمارة الأرض .

لقد توهموا ـ بتأثير الغزو الفكرى ـ أنهم تأخروا لأنهم كانوا مسلمين !

وما أبعد هذا الوهم عن الحقيقة ! فيوم تأخروا ماكان أبعدهم يومئذ عن الإسلام ! وإن بعدهم عن حقيقة الإسلام لهو الذى أدى بهم إلى ذلك التخلف المعيب[١٨] .

ولكن هذا الوهم جعلهم يبحثون عن الحلول لا فى إسلامهم ـ الذى انسلخوا منه ـ وإنما فى الحضارة الغربية .. أى فى الجاهلية المعاصرة !

وقالت لهم الجاهلية المعاصرة : إن الحضارة هى التقدم المادى والعلمى والتكنولوجى ، والتيسيرات المادية التى تأخذ عن عاتق الإنسان ماكان يحمله من جهد فتحمّله للآلة ، وماكان يحمله من ألم فتغيبه بالعقاقير !

(١٨) وراجع إن شئت فصل «آثار الانحراف» من نفس الكتاب .

وقالت لهم تلك الجاهلية ـ بلسان حالها وإن أنكرت فى مقالها ـ إن القيم والأخلاق والمبادئ لغو ساقط من الحساب !

وقام « المسلمون المعاصرون » يتحضرون ! قاموا ينفضون عن أنفسهم غبار التخلف ، ويحاولون أن يعوضوا فى سنوات ما تخلفوه خلال عدة قرون !

« يتحضرون » على النهج الغربى ، منسلخين أو نافرين من منهج الله .

قاموا يأخذون ببعض أسباب القوة المادية ـ على فتور ظاهر وتقاعس ـ بينما يغرقون فى الترف الغربى إلى أذقانهم ، فى صورة بيوت حديثة ، وفراش وثير ، وسيارات وطائرات ، وأفران وثلاجات ، وملابس مزوقة .. وخمر وميسر، وفوضى جنسية تسمى « الانطلاق » !

ودع عنك المفاسد الخلقية التى يقر الجميع بأنها مفاسد ، وإن كانوا فى دخيلة أنفسهم مسرورين بها ، راغبين فى المزيد منها ، متطلعين إلى اليوم الذى تصبح فيه هى « العملة السارية » ، فيمارسوا ـ باسم التحضر والتقدم ـ كل ماتصبو إليه نفوسهم من أرجاس ..

وخذ الجانب الحقيقى من التقدم المادى الذى يصبون إليه : عملية التصنيع ، وزيادة الإنتاج ، ورفع مستوى المعيشة ، وزيادة الاستهلاك فى الكهرباء (!)

ما قيمة ذلك كله بغير قيم ولا مبادئ ولا أخلاق ؟ ! ما قيمته بغير «الإسلام» الذى انسلخوا منه ونبذوه ؟ !

هل يحسبون أنهم سيخرجون بذلك من ذلتهم وهوانهم على الناس ؟ !

فليسمعوا مقالة المؤرخ المعاصر «توينبى» عن تركيا أتاتورك :

«ولم يكتف الأتراك بتغيير دستورهم (وهو شئ سهل نسبيا فى مجال الإصلاح الدستورى) ، بل قامت الجمهورية التركية الوليدة بخلع المدافع عن الدين الإسلامى ـ الخليفة ـ وألغت منصبه ـ أى الخلافة ـ وجردت رجال الدين المسلمين وحلت منظماتهم ، وأزالت الحجاب عن رأس المرأة ، واستنكرت كل ما يرمز إليه الحجاب ، وأجبرت الرجال على ارتداء القبعات التى تمنع لابسيها من أداء شعائر الصلاة الإسلامية التقليدية ، بخاصة فى السجود ، وكنست[١٩] الشريعة الإسلامية بأكملها ، وتبنت القانوَن المدنى السويسرى بعد أن ترجمته إلى التركية ، وطبقت قانون الجرائم الإيطالى ، وذلك بفرض هذين القانونين بعد التصويت عليهما فى المجلس الوطنى ، وغيرت الأحرف العربية بأحرف لاتينية ، وهذا أمر لم يتم إلا بطرح القسم الأكبر من التراث الأدبى العثمانى القديم ..

---

(١٩) علق المترجم (الدكتور نبيل صبحى) على هذه الكلمة بقوله ـ فى الهامش ـ : «هذا هو تعبير المؤلف .. الأديب ! !» .

« .. ويجب على المراقب الغربى أن يراعى حدود اللياقة فلا يغالط ولا يسخر ، لأن ما يحاول « المقلدون » الأتراك القيام به هو تغيير وطنهم ومواطنيهم مما هم فيه ، إلى حالة كنا نحن ـ منذ التقاء الغرب بالإسلام ـ ننتقدهم لعدم وجودها طبيعة فيهم . وها هم حاولوا ـ ولو متأخرين ـ إقامة صورة طبق الأصل لدولة غربية وشعب غربى .

« وعندما ندرك تماما هدفهم الذى رموا إليه ، **لا نستطيع إلا التساؤل بحيرة : هل يبرر هذا الهدف حقا الجهد الذى بذلوه فى صراعهم لبلوغه ؟؟؟**

« من المؤكد أننا لم نكن نحب التركى التقليدى المسلم (المتحمس) الذى كان يثير حنقنا عندما ينظر إلينا من علٍ على أننا فريسيون زناديق ! ويحمد ـ أى التركى ـ يحمد الله على أنه لم يجعله مثلنا . وبما أن التركى التقليدى القديم كان يعتبر نفسه من طينة خاصة ، حاولنا أن نحط من كبريائه ، بتصوير هذه « الطينة الخاصة » شيئا ممقوتا ، وسميناه « التركى النكرة » .. إلى أن استطعنا أخيرا أن نحطم سلاحه النفسى ، وحرضناه على القيام بهذه الثورة (المقلدة) التى استهلكها الآن أمام أعيننا .

« والآن وبعد أن تغير التركى بتحريضنا ورقابتنا ، وبعد أن أصبح يفتش عن كل وسيلة لجعل نفسه مماثلا لنا وللشعوب الغربية من

حوله .. الآن نحس نحن بالضيق والحرج ، بل ونميل إلى الشعور بالسخط والحنق ... وبإمكان التركى أن يجيبنا أنه مهما فعل فهو مخطئ فى نظرنا ، وهو ـ أى التركى ـ قادر على ترديد مقطع من كتابنا المقدس على مسامعنا ، يقول :

« لقد نفخنا معكم فى القرب فلم ترقصوا ، وحزنا معكم فلم ترقصوا ، وحزنا معكم فلم تبكوا » !

« على كل حال قد يكون انتقادنا للأتراك فظا وغير لائق .. ولكن ليس فيه أى تحامل ، ولا هو خارج عن الموضوع . إذ ما الذى سيكسبه التراث الحضارى فى حالة عدم ذهاب جهود الأتراك سدى ؟ أى فى حالة نجاحهم ـ فرضا ـ النجاح المرجو ؟؟ وهذه النقطة تكشف حركة « المقلدين » عن نقطتى ضعفها الأصيلتين فيها :

« أولاهما : أن الحركة المقلدة متبعة وليست مخترعة مبتدعة ، **لذا فهى فى حالة نجاحها ـ جدلا ـ لن تزيد إلا فى كمية المصنوعات التى تنتجها الآلة فى المجتمعات المقلّدة . بدل أن تطلق شيئا من الطاقة المبدعة فى النفس البشرية .**

« ثانيهما : أنه فى حالة النجاح الباهت ـ المفترض ـ هذا ، وهو أقصى ما يمكن « للمقلدين » الوصول إليه ، سيكون هناك خلاص ـ مجرد خلاص ـ لأقلية ضئيلة فى أى مجتمع تبنى طريق « التقليد » ..

ومآل الغالبية : هو تضخيم عدد بروليتاريا الحضارة المقلّدة »[٢٠] (يقصد بذلك المستعبدين للحضارة الغربية) !

إنها الزراية الصريحة ، والشماتة الصليبية الواضحة . الشماتة بالذين فقدوا ذاتيتهم ، وعجزوا فى الوقت ذاته عن تقديم شئ أصيل للبشرية .

والمسلمون الحقيقيون عندهم الكثير الكثير يعطونه للبشرية الضالة فى جاهلية القرن العشرين ..

فليأخذوا العمارة المادية للأرض من أى مكان يريدون . ولكن فليقيموها على المنهج الربانى ، لينشئوا الحضارة الحقيقية الأصيلة التى تستحق هذا الاسم .

فليأخذوا العلم والتقدم المادى والتكنولوجى ، ولكن فليحددوا لأى شئ يستخدمون هذا كله ..

فى العبودية الذليلة للشهوات ؟ فى الاستغراق فى الحياة الدنيا إلى حد نسيان الآخرة؟ فى عبادة الشيطان بدلا من عبادة الله ؟

عندئذ لا هم سيخلصون أنفسهم من الهوان والذل . ولا هم يملكون

---

(٢٠) من كتاب مترجم بعنوان « الإسلام .. والغرب .. والمستقبل » هو ترجمة محاضرتين ألقاهما توينبى فى عامى ١٩٤٧ ، ١٩٥٢ ترجمة الدكتور نبيل صبحى ، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م ص ٥٠ ـ ٥٣ (مقتطفات) .

أن يخلصوا البشرية من الضياع والتيه ..

لكن يستخدمونه فى إقامة المنهج الربانى ؟ .. فى إعادة شريعة الله لتحكم الأرض ؟ .. فى إقامة العدل الربانى كما يريده الله ؟ فى إقامة الحياة على قاعدة أخلاقية فى السياسة والاقتصاد وعلاقات المجتمع وعلاقات الأسرة وعلاقات الجنسين والفكر والأدب والفن .. ؟

بعبارة أخرى : يحققون غاية الوجود الإنسانى ؟ يحققون لا إله إلا الله فى عالم الواقع ؟ يحققون المفهوم الصحيح للعبادة ؟

عندئذ سيخلصون أنفسهم مما حل بهم ، ويمدون يد الخلاص إلى البشرية الضالة الضائعة التى تبحث عن طريق الخلاص .

وليس ذلك على الله بعزيز :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا » (٢١) .

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (٢٢)

---

(٢١) سورة النور [٥٥] .

(٢٢) سورة البقرة [١٤٣] .

«الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور»[٢٣] .

---

(٢٣) سورة الحج [٤١] .

أضواءٌ على المُسْتقبَل

عرضنا فيما مضى من الكتاب بعض المفاهيم الرئيسية للإسلام ، وبيّنّا كيف كانت فى حس الجيل الأول الذى تلقى الدين تلقيا مباشرا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتربى على عينه . والأجيال التالية التى كانت على مقربة من منابع النور .. وكيف تحوّلت فى حس الأجيال المتأخرة تحولا خطيرا عن صورتها الصحيحة .. وكيف أثر ذلك التحول فى حياة المسلمين ، فهبط بهم من الذروة التى كانوا عليها إلى الحضيض الذى يعيشونه اليوم ، غثاء كغثاء السيل .

ويأتى السؤال طبيعيا بعد هذا العرض .. وماذا بعد ؟ !

ماذا بعد أن وصلت الأمور إلى هذه الصورة ، وبعدت الأمة كل هذا البعد عن حقيقة الإسلام ؟ !

فأما الإجابة على هذا السؤال فقد تكفل بها قدر الله الذى أخرج « الصحوة الإسلامية » إلى الوجود :

« والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (١)

---

(١) سورة يوسف [٢٢] .

والصحوة الإسلامية هى قدر الله الغالب ، الذى قدره الله ليخرج به هذه الأمة من حالة الضياع التى تكتنفها ، وتجعلها غثاء كغثاء السيل ، إلى الاستقامة على الطريق ، ومد الجذور مرة أخرى ، والقيام بدور جديد فى حياتها ، تنقذ به نفسها مما وقعت فيه من الهوان والذل ، والشتات والتيه ، وتطلق فى الوقت ذاته بصيصا من النور للبشرية الحائرة ، لعلها تهتدى إلى الطريق[2] .

ولكن الطريق أمام الصحوة ذاتها مملوء بالعقبات . مملوء بالأشواك . مملوء بالعثرات . مملوء بالوحوش الضارية تتلقف السائرين فيه لتفتك بهم أولا بأول ، لأنها تعلم جيدا أنها إن لم تفتك بهم اليوم فغدا يسدون عليها الطريق !

ولكن المبشرات ـ كما أشرت فى كتاب « واقعنا المعاصر » أكبر من المعوّقات . وقدر الله ماضٍ إلى غايته لا يقف فى طريقه شئ !

« ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا ، إنهم لا يعجزون »[3] .

ولكن الصحوة فى حاجة لأن تتعرف على عثرات الطريق لكيلا تتعثر ، وعلى عقباته لكى تعد لها العدة اللازمة ، كما لابد لها أن تعرف طبيعة الوحوش الضارية ، لتعرف طبيعة المعركة معهم ، وتعرف

---

(٢) راجع إن شئت فصل « الصحوة الإسلامية » وفصل « نظرة إلى المستقبل » من كتاب « واقعنا المعاصر » .

(٣) سورة الأنفال [٥٩] .

مجالاتها وميادينها ، ولكيلا تتوهم فى الوقت ذاته أن بعضها يمكن أن يكون أرأف بالمسلمين من بعض ، أو أن بعضها يمكن أن يهادن السائرين فى الطريق !

وعليها أن تعرف قبل كل شئ عدة النصر فى المعركة الضارية التى تقوم بينها وبين أعداء الله ، والتى عليها أن تخوضها لا محالة رضيت أو كرهت ، لأن أولئك الأعداء لا يمكن أن يرضوا عن الصحوة الإسلامية ، ولا أن يكفوا عن قتالها :

« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم »(٤) .

« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا »(٥) .

* * *

ينبغى أولا أن تدرك الصحوة جيدا أن المعركة ليست معركة هذه الجماعة ولا تلك ، ولا معركة هذا العدو أو ذاك .. إنما هى معركة الأمة الإسلامية جميعا مع أعدائها جميعا .. فالخصومة قائمة أصلا بين أعداء الله وبين الإسلام ، حيثما كان الأعداء ، وحيثما كان الإسلام . .

ومقتضى ذلك أن تعلم أن النصر لا يتم والمعركة قائمة بين الأعداء وبين جماعات منعزلة هنا وهناك ، تستفرد بها الوحوش الضارية وتغتالها

---

(٤) سورة البقرة [١٢٠] .
(٥) سورة البقرة [٢١٧] .

على تمكن .. ولكنه يتم ـ بتوفيق الله ـ حين تصبح المعركة هى معركة « الأمة الإسلامية » على اتساعها ، إزاء الأعداء المتكتلين فى حرب الإسلام كتلة واحدة ، وإن تفرقوا فى كل شىء عدا ذلك !

وحين نقول الأمة على اتساعها يظن بعض الناس أننا نقصد كل فرد من أفرادها ، وهذا مستحيل ! فلا يوجد مجتمع واحد فى التاريخ ـ فضلا عن أمة يبلغ تعدادها اليوم ألف مليون من البشر ـ يكون كله على قلب رجل واحد ، وعلى مستوى واحد من الرفعة ، أو الصلابة ، أو التوجه إلى الخير ..

ومجتمع الرسول ذاته لم يكن كذلك ، كما أوضحنا فى أكثر من موضع وفى أكثر من كتاب ..

ولكنا نقصد أن توجد فى هذه الأمة قاعدة صلبة ـ كالقاعدة التى قامت فى مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم ـ يبلغ من قوتها وصلابتها أن تحمل ضعاف الإيمان ، والمعوّقين ، والمبطئين ، والمتثاقلين ، والمنافقين ، وتسير بهم جميعا إلى هدفها ، كما سارت القاعدة الصلبة التى رباها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على عينه ، ولم يعوّقها وجود هذه الفئات كلها عن النصر الحاسم على أعداء الله ..

* * *

وينبغى أن تدرك الصحوة جيدا كذلك أن المعركة ليست مجرد

معركة بين فريق من البشر وفريق ، أو بين شعب من الشعوب وشعب ، أو بين نوع من السلاح ونوع .. إنما هى قبل ذلك كله ـ وأهم من ذلك كله ـ معركة بين عقيدة وعقيدة ، ومنهج للحياة ومنهج .

عقيدة تؤمن بالله واليوم الآخر ، وعقيدة تشرك فى إيمانها بالله آلهة أخرى أو تنكر وجوده أصلا .. ومنهج للحياة قائم على عقيدة التوحيد ومتناسق معه ، مستمد من المصدر الربانى المنزل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومنهج مبنى على الشرك أو الكفر ومتناسق معه ، مستمد من أى مصدر إلا الوحى الربانى ..

ومقتضى ذلك أن النصر لا يتم حتى تتمحض تلك العقيدة فى نفوس أصحابها وتصفو ، وتتخلص من كل ما شابها من عناصر دخيلة عليها ، أياًّ كان المدى الذى توغلته تلك العناصر الدخيلة ، وأياًّ كان الزمن الذى استغرقته وهى متلبسة بعقائد الناس .

إن الجاهلية لم تقف برمتها أمام عقيدة التوحيد وجها لوجه كما تقف اليوم ، إلا مرة واحدة من قبل ، أيام بعثة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والصدر الأول من الإسلام .. مع الفارق الذى أحدثه التقدم العلمى ، والتقدم التكنولوجى ، ووسائل النقل ، ووسائل الإعلام ، الذى جعل الكتلة المتكتلة ضد الإسلام أكثر ترابطا ، وأكثر توحدا ، وأكثر ضراوة ..

ولكن المعركة فى جوهرها لم تتغير..

معركة التوحيد والشرك .. معركة الإسلام والجاهلية .

ولقد واجه الإسلام ـ بعد تمكنه فى الأرض ـ كثيراً من عداوات الجاهلية ، مع الصليبيين مرة ، ومع التتار مرة ، ومع اليهود من قبل مرة .. ولكنه لم يقف فى وجه جاهلية الأرض كلها مجتمعة إلا مرتين اثنتين : الأولى وقت البعثة المحمدية وصدر الإسلام ، والثانية فى الوقت الحاضر.

وهذا يستلزم كما ألمحنا أن تكون العقيدة من النقاء فى نفوس أصحابها ، ومن رسوخ الإيمان بها ، والتجرد لله بها ، كما كانت فى المواجهة الأولى ، لتكون كفؤا للجاهلية الواقفة أمامها ، فضلا عن التغلب عليها فى نهاية المطاف .

* * *

أمر ثالث ينبغى أن تدركه الصحوة جيدا .. أن الجاهلية تواجه الإسلام اليوم وهى فى قمة حضارتها المادية ، وقمة افتتانها بتلك الحضارة ، والمسلمون فى درجة شديدة من التخلف فى هذا المجال ..

ومقتضى ذلك أن يواجه المسلمون تلك الحضارة بمثل ما واجه المسلمون الأوائل الحضارة الفارسية والبيزنطية وهما فى أوج تمكنهما المادى .. أى بالقيم الحضارية المواجهة تماما للحضارة الجاهلية .

لقد تمت المواجهة الأولى بين الإسلام والجاهلية والمسلمون يكادون

يكونون مجردين من أدوات الحضارة المادية وتنظيماتها ، بينما الدولتان «العظميان» يومئذ ـ فارس وبيزنطة ـ فى قمة من قمم الحضارة المادية والتنظيمية لم يكن قد بلغها أحد قبلهم فى ذلك التاريخ ..

وانتصر الإسلام ..

انتصر **بحسب السنن الجارية** ، لا بسنة خارقة .. وإن كانت هذه وتلك جميعا تتم بقدر من الله .

فمن سنن الله الجارية أن ينتفش الباطل فى غيبة الحق . فإذا جاء الحق زهق الباطل ..

« وقل : جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا »[٦] .

ومن سنن الله الجارية أن يتدافع الحق والباطل ليتم إنقاذ الأرض من الفساد :

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين»[٧] .

ومن سننه أن يكون للحق جنود يؤمنون به ، لأن الحق المجرد من الجنود لا ينتصر ، وأن يكون هؤلاء الجنود مخلصين لله ، مترابطين على العقيدة ، مؤتلفة قلوبهم عليها :

---

(٦) سورة الإسراء [٨١] .

(٧) سورة البقرة [٢٥١] .

« **هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم** . لوأنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم »[٨] .

وأن يكون هؤلا الجنود صادقى التوكل على الله :

« يا أيها النبي حسبك الله ، ومن اتبعك من المؤمنين[٩] »[١٠]

وأن يكونوا مجاهدين فى سبيل الله ، إذا دعت دواعى الجهاد يقاتلون صابرين محتسبين :

« يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال : إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا : فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله . والله مع الصابرين »[١١]

ثم إن من سننه الجارية كذلك أن الباطل المنتفش بقوته المادية ــ فى غيبة الحق ــ لا أصالة له لأنه باطل ، ومع ذلك يمكّن فى الأرض فترة من الوقت لحكمة يريدها الله ، وبسنة يجريها الله :

« فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء ، حتى إذا

---

(٨) سورة الأنفال [٦٢ ــ ٦٣] .

(٩) أى من اتبعك من المؤمنين حسبهم الله .

(١٠) سورة الأنفال [٦٤] .

(١١) سورة الأنفال [٦٥ ــ ٦٦] .

فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين»[١٢]

فإذا جاء الحق ـ وهو وحده صاحب الأصالة ـ وتمت له مقوماته ، أى الجنود المؤمنون به ، المخلصون فى إيمانهم ، المجاهدون الصابرون المحتسبون ، فإنه ينتصر بما فيه أصالة ، ولو كان أقل جنودا وأقل عدة ، لأنه يحمل القيم الأصيلة التى كتب الله لها البقاء والصلاحية :

«فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض »[١٣]

«كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ، إن الله قوى عزيز»[١٤]

«ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون »[١٥]

«ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون»[١٦] .

تلك ـ وأمثالها من السنن الجارية ـ هى التى قررت فى علم الله

---

(١٢) سورة الأنعام [٤٤ ـ ٤٥] .

(١٣) سورة الرعد [١٧] .

(١٤) سورة المجادلة [٢١] .

(١٥) سورة الأنبياء [١٠٥] .

(١٦) سورة الصافات [١٧١ ـ ١٧٣] .

انتصار الإسلام فى مواجهته الأولى مع الدولتين «العظميين» يومئذ ، فضلا عن سائر الجاهليات القائمة فى ذلك الحين .. ولم يكن للقوة المادية الساحقة ، الخاوية من «القيم» ، الخاوية من «الحق» أصالة تحميها من غلبة الإسلام عليها ، وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته ، فانتصر الحق وزهق الباطل وذهب طىّ النسيان ..

واليوم تقف الجاهلية ـ بدولتيها «العظميين» ـ ذات الموقف مرة أخرى ..

قمة فى القوة المادية والتقدم العلمى والمادى والتكنولوجى لم يبلغها أحد من قبل ..

ولا أصالة ..

فالأصالة هى الحق ..

وحين يكون الإنسان فى عرف الجاهلية المعاصرة حيوانا كما أراده دارون ، وحين يكون فى وهم نفسه ـ فى الوقت ذاته ـ إلها متجبرا طاغيا مستكبرا عن عبادة الله .. فكلاهما وهم لا ظل فيه للحق .. ومن ثم فلا أصالة فيه ..

وحين تكون الحضارة هى حضارة «قبضة الطين» منقطعة الصلة «بنفخة الروح» ، فهى حضارة غير أصيلة ، لأن قبضة الطين المنفصلة عن نفخة الروح لا وجود لها فى الحقيقة ، وكل بناء يبنى على أساس وجودها فهو مجافٍ للحق ، ومن ثم لا أصالة فيه ..

ولا ينفى هذا أن يكون لهذه الحضارة المجافية للحق منجزات ضخمة نافعة ، كمنجزاتها العلمية والتنظيمية ، فهذا من العطاء الربانى المتاح للبشر جميعا مؤمنهم وكافرهم ، وكان للجاهليات التاريخية كلها نصيب منه :

«كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا »[(١٧)]

ولا ينفى كذلك أن تكون بعض الأفكار والقيم ذات قيمة ونفع ، فإن النفس البشرية لا تتمحض للشر الخالص مهما بعدت عن الحق ، ولا يتمحض مجموع الناس فى الجاهليات للشر بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«**خياركم فى الجاهلية** خياركم فى الإسلام إذا فقهوا »[(١٨)] .

ولكن العبرة فى النهاية ـ فى صراع الحق والباطل ـ ليست بالمنجزات المادية مهما يكن من ضخامتها ونفعها ، وليست بالأفكار والقيم الجزئية التى يمكن أن تكون فى الجاهليات .. إنما هى **بالقاعدة** التى يقوم عليها البنيان كله ..

فلا شك أن كلا من الجاهلية الفارسية والجاهلية الرومانية كان لها منجزات مادية وتنظيمية ضخمة ونافعة ، ولا شك أن بعض القيم

---

(١٧) سورة الإسراء [٢٠] .

(١٨) أخرجه مسلم .

وبعض الأفكار النافعة كان موجودا فى كل من الجاهليتين ..

ولكن ذلك كله لم يحم هاتين الجاهليتين من الانهيار أمام الإسلام ، الذى يقوم **كله** على القاعدة الصحيحة السليمة ، التى تحقق الغاية الحقيقية للوجود الإنسانى ، وهى عبادة الله ، بالمعنى الواسع الشامل للعبادة الذى بيناه من قبل[١٩] ، رغم قلة العدد والعدة فى جانب المسلمين يومئذ ، ورغم الفراغ من المنجزات المادية والتنظيمية إلا القليل الذى لا يكاد يذكر.

وتلك ــ كما بينا ــ **سنة جارية** . ومعنى كونها جارية أنها يمكن أن تتحقق ــ بقدر من الله ــ فى كل مرة تتحقق مقوماتها وعناصرها ، وتتم المواجهة بمقتضاها ..

ومن جانب الجاهلية فكل المقومات والعناصر قائمة .. قوة مادية هائلة ، وفراغ هائل فى عالم القيم والمبادئ والأخلاق ..

ويستلزم سريان السنة الجارية ــ وهى تجرى فى كل مرة بقدر من الله ــ أن يكون المسلمون فى المواجهة قائمين على الشرط ، كما كان المسلمون فى المواجهة الأولى ، فيتم النصر ــ بقدر من الله ــ كما تم أول مرة ، ويتغير وجه الأرض كما تغيّر من قبل ..

ولا شك عندى ــ من وعد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ... أن ذلك سيحدث ..

---

(١٩) راجع فصل «مفهوم العبادة» .

ولكن الصحوة ينبغى أن تدرك شرط النصر فى تلك المواجهة ..

إن المسلمين لن يسبقوا الجاهلية المعاصرة فى التقدم العلمى والمادى والتكنولوجى والتنظيمى فى الوقت الحاضر.

ولكنهم ــ مع ذلك ــ يملكون مالا تملك الجاهلية اليوم ولا غدا ولا فى أى وقت .. يملكون العقيدة الصحيحة والمنهج الصحيح .. المنهج الشامل الكامل المتوازن المترابط ، الذى أنزله الله العليم الخبير ليصلح به الأرض ، ويصلح حياة الناس.

وحين يحققون العقيدة الصحيحة فى ذوات أنفسهم ، ويحققون المنهج الصحيح فى واقع حياتهم ، تجرى السنة بقدر من الله ، وينتصر الإسلام فى المواجهة الحاضرة بينه وبين الجاهاية .. ويتغير وجه الأرض .

ولكن العقيدة ينبغى أن تكون فى صفائها كله ، وفى بهائها كله ، وفى ألَقِهَا كله ، لتحدث فى واقع الأرض الفارق الحقيقى الذى يلمسه الناس فى صورته الأخّاذة ــ كما حدث أول مرة ــ فيهرعون إليه ، ويدخلون فى ظله .. والمنهج ــ بما يشتمل عليه من قيم فذة ، وأخلاقيات عالية ، وصدق وعمق ، ورسوخ وتمكن ، وشمول وتوازن ــ ينبغى أن يكون محققا فى نماذج بشرية فذة ، تُبْرِزُ للناس فى عالم الواقع الفارق الهائل بين الإسلام والجاهلية ، كما حدث أول مرة ، فيحب الناس المنهج ويدخلون فيه ..

عندئذ ينتصر الحق بجدارة ـ حسب السنن الجارية ـ لأنه يثبت جدارته بالفعل . ويكون له دور حقيقى يؤديه فى حياة الناس لأنه يعطى الناس بالفعل ما هم فى حاجة حقيقية إليه ، ولو لم يشعروا بتلك الحاجة وهم سادرون فى غيهم ، بل ولو كانوا رافضين للخير والهدى فى مبدإ الأمر كما يكون الناس فى كل جاهلية .. ولكن الفطرة البشرية تقدره ، حين تراه مطبقا فى عالم الواقع ـ فى الصورة الباهرة التى يلتقى فيها الواقع بالمثال ـ وعندئذ يشعر الناس بما يشتملون عليه من نقص ، ويهرعون إلى الكمال ..

وسيزيدهم طمأنينة إلى المنهج الربانى وإقبالا عليه ، أن يروا ـ من خلال التجربة الواقعية ـ أن الإسلام لن يهدم تقدمهم العلمى والتكنولوجى والتنظيمى ، إنما سيقيمه فقط على القاعدة الإيمانية الصحيحة ، ويمنحه « الأخلاق » التى تسلبه إياها الجاهلية ، ويمنحه « الروح » التى تجعل منه إنجازا لائقا « بالإنسان » .

* * *

من أجل ذلك كله ينبغى للصحوة أن تقدر الأمر حق قدره ، وتمنحه الطاقة اللازمة لإنجازه ..

إنه أمر جاد .. وهو كذلك أمر خطير ..

إنه ليس نزهة قريبة .. ولا هو أمر يخصهم وحدهم فى ذوات أنفسهم ..

إنه أمر الأمة الإسلامية بأكملها .. وأمر البشرية كذلك ، من شاء منهم أن يستقيم ..

أمر خلاص « الإنسان » من حمأة الطين التي يتمرغ فيها اليوم ، والتي انساق « المسلمون » إليها ـ أو ساقهم أعداؤهم إليها ـ حين تخلفوا عن عقيدتهم ، فتخلوا عن ذاتيتهم ، فأصبحوا كغثاء السيل[٢٠] .

أمر جاد .. لاتكفي فيه جهود هامشية مبعثرة ، ولا يكفي فيه جهد يبذل لمجرد ممارسة الإسلام على أي مستوى من المستويات .

أمر يحتاج إلى كل الطاقة مجمعة .. ويحتاج إلى محاولة الصعود إلى القمة التي صعد إليها المسلمون أول مرة ، حين عوضت القيم الفذة ، والممارسة الفذة لهاتيك القيم ، كل الفروق المادية بين المسلمين وأعدائهم ، وكتبت النصر لأصحاب القيم الفذة الأصيلة على أصحاب الباطل المنتفش بالقوة المادية وعبقرية التنظيم .

* * *

إن على « الصحوة » في كل بلد إسلامي أن تربي القاعدة الصلبة على المستوى الفائق ، ثم تدعو إليها الجماهير ..

وليس هنا بيان منهج التربية اللازم لبناء القاعدة الصلبة على ذلك

---

(٢٠) انظر ـ إن شئت ـ فصل « خط الانحراف » وفصل « آثار الانحراف » في كتاب « واقعنا المعاصر » .

المستوى الفائق ، ولا منهج الدعوة التى توجه إلى الجماهير[٢١] ..

ولكنا نشير هنا إلى أمر أساسى ، سواء فى بناء القاعدة أو فى دعوة الجماهير .. **إنه لابد أولا** من تصحيح المفاهيم .. إذ كيف تبنى القاعدة على المفاهيم الخاطئة للإسلام ؟ !

كيف تبنى قاعدة صلبة على الفكر الإرجائى الذى يقول : إن الإيمان هو التصديق والإقرار ؟ ! وإن العمل ليس داخلا فى مسمى الإيمان ؟ وإنه من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن ولو لم يعمل عملا واحدا من أعمال الإسلام ؟ !

كيف تبنى قاعدة صلبة على مفهوم قاصر للعبادة يحصرها فى الشعائر التعبدية ، ويخرج العمل كله من دائرة العبادة ، ويخرج الأخلاق ، ويقسم الحياة إلى « ساعة لقلبك وساعة لربك » فتنقلب ساعة القلب إلى لهو عابث ، وساعة الرب إلى مجرد أداء للشعائر بغير مقتضى واقعى فى سلوك الناس ؟ !

وكيف تبنى على عقيدة للقضاء والقدر سلبية مخذّلة متواكلة لا تأخذ بالأسباب ؟

وكيف تبنى على تصور خاطئ يفصل ما بين الدنيا والآخرة ، ويجنح بالسلوك سواء لحساب هذه أو حساب تلك ؟

---

(٢١) فى النية ـ بإذن الله ـ إصدار كتيب فى هذا الموضوع بعنوان « كيف ندعو الناس » .

وكيف تبنى على إهمالٍ لعمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى الشامل المتكامل الذى ينشئ الحضارة الخليقة بالإنسان ؟

وماذا تستطيع مثل هذه القاعدة فى الصراع الهائل مع الجاهلية ؟ وماذا تمنح الناس لتحبب إليهم اعتناق الحق والدخول فيه ؟ !

وكذلك الدعوة الموجهة إلى الجماهير ، لتكون سندا للقاعدة الصلبة بدلا من أن تكون حملا عليها ..

لماذا نقوم بالدعوة أصلا إن لم نغير عند الناس مفاهيمهم الخاطئة عن الإسلام ؟ !

لأى هدف ندعوهم إذا قلنا لهم إن الإيمان هو التصديق والإقرار ، وإن العمل ليس داخلا فى مسمى الإيمان ، وإنه من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن ، ولو لم يعمل عملا واحدا من أعمال الإسلام ؟ !

هل ندعوهم لنثبت فيهم الأسباب التى أدت بهم إلى الضياع والتيه ، وجعلتهم غثاء كغثاء السيل؟ سواء ما وقعوا فيه من شرك الاعتقاد عن طريق عبادة الأولياء والأضرحة والمشايخ ، أو شرك الاتباع ، باتباع غير ما أنزل الله ، واتخاذ البشر ـ المشرعين من عند أنفسهم ـ أربابا من دون الله ؟

أم ندعوهم ليغيروا ما بأنفسهم فيغير الله لهم ؟ !

* * *

لابد فى جميع الأحوال من تصحيح المفاهيم .

وحين تصحح المفاهيم بالفعل ، وتتربى على المفاهيم الصحيحة قاعدة صلبة ، تساندها الجماهير المؤمنة الواعية التى تمارس الإسلام فى عالم الواقع .. عندئذ يتحقق الوعد الذى وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ماشاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إن شاء أن يرفعها . ثم تكون ملكا عاضا فتكون ماشاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون ملكا جبريا فتكون ماشاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم **تكون خلافة على منهاج النبوة** »(٢٢) .

وعندئذ يتغير وجه الأرض ..

وتتحقق للإسلام جولة جديدة ، يخرج فيها الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ..

« ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم »(٢٣)

---

(٢٢) رواه الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان .

(٢٣) سورة الروم [٤ – ٥] .

الفهرس

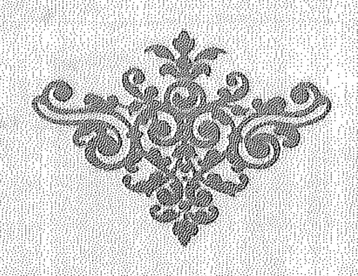
مقدمة ٧
مَفهُومُ لا إلٰه إلاّ الله ١٧
مَفهُوم العبَادة ١٧٣
مَفهُوم القضَاءِ وَالقَدَر ٢٥٥
مَفهُوم الدّنيَا والآخرة ٢٨٣
مفهُوم الحَضارةِ وَعمارةِ الأرض ٣٣٥
أضواءٌ علَى المُستقبَل ٣٦٣

رقم الايداع : ٨٨/١٨٨٨
الترقيم الدولى : ٨ـ ١٩٠ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ ٨١٧٧٦٥ برقيا: داشروق ـ تلكس ٢٠١٧٥ SHOROK
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف: ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤ برقيا: شروق ـ تلكس: ٩٣٠٩١ SHROK UN





© دار الشروق

بيروت: مارالياس - شارع سيدة صيدنايا - بناية صفا ص.ب:
٨٠٦٤ - برقيا: داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE - هاتف:
٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - ٣٠٧٩٨٤ - ٨٦٧٥٥٥ - فاكس ٨١٧٧٦٥
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ت: ٣٩٢٩٣٣٣ / ٣٩٣٤٥٧٨ فاكس
٣٩٣٤٨١٤ - تلكس SHROK UN ٩٣٠٩١ ٨ شارع سيبويه
المصري - مدينة نصر. ت: ٢٦٢٣٣٩٨ - ٢٦٢٣٥٤٨ - فاكس ٦١٧٥٦٧